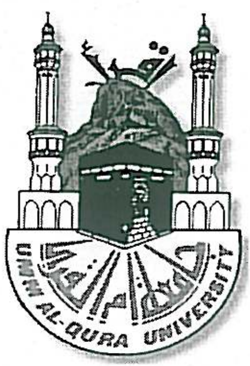
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب



التشبيه بالحيوان في الصحيحين

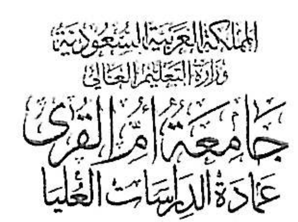
(دراسة في الخصائص والمزايا)

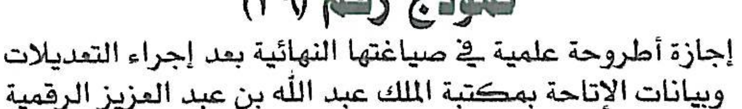
بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير
في البلاغة والنقد

إعــــداد
الطالب / سالم ناجي سالم قاضي
الرقم الجامعي / ٤٢٨٨٠٠٣٠

إشراف
الأستاذ في قسم البلاغة والنقد / محمد هريدي الصعيدي

العام الدراسي / ١٤٣٢ / ١٤٣٣ هـ







نموذج رقم (١٩)

إجازة أطروحة علمية في صياغتها النهائية بعد إجراء التعديلات وبيانات الإتاحة بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الرقمية

بيانات الطالب

Name	Salem Naji Salem Qadi			سالم ناجي سالم قاضي	الاسم
University ID	٤٢٨٨٠٠٣٠			٤٢٨٨٠٠٣٠	الرقم الجامعي
College	Arabic and Literature			اللغة العربية وآدابها	الكلية
Department	Higher Education			الدراسات العليا	القسم
Academic Degree	١٤٣٣هـ	year	١٤٣٣هـ	السنة	الماجستير	الدرجة العلمية
E-mail	www.salemnq@gmail.com				البريد الالكتروني

بيانات الأطروحة (الرسالة) العلمية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة العلمية، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٤ / ٦ / ١٤٣٣ هـ، بقبول الأطروحة بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازة الأطروحة في صياغتها النهائية المرفقة ، كمتطلب تكميلي للدرجة العلمية المذكورة أعلاه. والله الموفق.

عنوان الأطروحة كاملاً	التشبيه بالحيوان في الصحيحين – دراسة في الخصائص والمزايا

أعضاء اللجنة

المشرف على الرسالة	الاسم	أ.د. محمد على هريدي الصعيدي	التوقيع [signature]
المشرف المساعد (إن وجد)	الاسم		التوقيع
المناقش الداخلي	الاسم	أ.د. محمود توفيق محمد سعد	التوقيع [signature]
المناقش الخارجي	الاسم	أ.د. يوسف عبد الله الأنصاري	التوقيع [signature]
المناقش الخارجي (إن وجد)	الاسم		التوقيع
مصادقة رئيس القسم	الاسم	د. محمد علي الدغريري	التوقيع [signature]

إتاحة الأطروحة (الرسالة) العلمية

بناء على التنسيق المشترك بين عمادة الدراسات العليا و عمادة شؤون المكتبات، بإتاحة الرسالة العلمية للمكتبة الرقمية، فإن للطالب الحق في التأشير (✓) على أحد الخيارات التالية :

- ○ **لا أوافق** على إتاحة الرسالة كاملة في المكتبة الرقمية، وأعلم أن للمكتبة الحق في استخدام عملي أو إتاحته في إطار الاستخدام المشروع الذي يسمح به نظام حماية حقوق المؤلف في المملكة العربية السعودية.
- ✓ **أوافق** على اتاحة الرسالة في المكتبة الرقمية، وتصوير الرسالة كاملة بدون مقابل.
- ○ **أوافق** على تصوير الرسالة كاملة بمقابل وفق شروط مكتبة الملك عبدالله الرقمية والتي سبق وأن أطلعت و وافقت عليها.

توقيع الطالب	[signature]	التاريخ	٢ / ٧ / ١٤٣٣هـ

يعبأ النموذج باستخدام الحاسب الآلي، ويوضع أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة (الرسالة) العلمية في كل نسخة من الرسالة

ملخّص الرسالة

تتكون خطة هذا البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة وفهارس على النحو الآتي :

(التشبيه بالحيوان في الصحيحين)

دراسة في الخصائص والمزايا

المقدمة : وفيها موجز عن قيمة البيان النبوي ، وأهمية الوضوح في دلالته ، ثم بيان لمترلة التشبيه من علم البيان ، ثم توضيح أسباب اختيار الموضوع وإشكالياته ومنهج الدراسة .

التمهيد : وفيه حديث موجز عن أصناف وخصائص الحيوان المشبه به في الصحيحين .

الفصل الأول : سياقات التشبيه بالحيوان في الصحيحين

وهو مقسَّم إلى ثلاثة مباحث : سياق الأمر والحث على العمل الصالح ، ثم سياق النهي والتنفير من العمل السيء ، ثم سياق البيان والإيضاح والوصف والإخبار .

الفصل الثاني : الجانب التركيبي للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

وهو عبارة عن دراسة للأنماط التركيبية للتشبيهات بالحيوان الواردة في الصحيحين ، والمسائل النظمية المتعلقة بها والتي تُدرس في علم المعاني .

الفصل الثالث : الجانب التصويري للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

وهو دراسة للأنماط التصويرية للتشبيه ، مع الاجتهاد في الوصول لأسرار اختيار الحيوان المشبه به ، والغرض الذي بني التشبيه لأجله .

الفصل الرابع : الجانب التأثيري للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

وهو محاولة للوصول إلى المزايا التي تعود على المعنى حينما يقع التشبيه بالحيوان ، وتتبع الأثر النفسي للسامع حين يقام له المعنى في صورة تشبيه بالحيوان .

الخاتمة: وفيها تخليص لكليات البحث وتوصياته

ثبت المصادر والمراجع

فهرس الآيات والأحاديث وأبيات الشعر والحكم والأمثال

فهرس محتويات البحث

الباحث	المشرف
سالم ناجي قاضي	محمد هريدي الصعيدي

SUMMARY OF RESEARCH

The plan for this research consists of an introduction, a preface and four chapters in addition to a conclusion and an index.

Animal Simile in the Sahihayin

(Books of Prophet's Traditions by Imam Bukhari & Imam Muslim)

A study of Characteristics and Features

- **INTRODUCTION** : A brief of the value of the Prophetic rhetoric, the significance of clarity, value of rhetoric simile, reasons for the selection of topic :difficulties & study methods.
- **PREFACE** : A brief of characteristics of animals used for simile in Sahihayin.
- **CHAPTER I**: Types of simile in Sahihayin (three divisions; command & urge to good deed- prohibition of bad deed- clarity, description and telling.
- **CHAPTER II**: A study of constructive animal simile in Sahihayin.
- **CHAPTER III**: Photographic study of animal simile and search for secrets of choosing and purpose.
- **CHAPTER IV**: Effectiveness of animal simile in Sahihayin; searching the merits of meanings with animal simile and psychological effect gained through animal simile.
- **CONCLUSION**: Summary & recommendations. References & index of quranic ayas ,Prophetic traditions , poetry, sayings and proverbs.
- **RESEACH CONTENTS**

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرّف الإنسان بالأصغرين القلب واللسان ، وفضله على سائر الحيوان بنعمتي المنطق والبيان ، وجعله خليفته في الأرض برجاحة العقل ليعبده ويقيم العدل في الميزان ، والصلاة والسلام على سيّد ولد عدنان ، خاتم النبيّين وإمام المرسلين سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم أفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وحملة راية العلم والعرفان ، وبعد :

فلما كان البيان النبوي أرقى مستويات البيان البشري ، ولما كان النص النبوي من النصوص التي كلّما تقادم عهدها تجددت قيمتها ؛ كان البيان النبوي من أكثر الميادين خصوبةً وقابلية للدراسات بشتى مجالاتها شرعية ، وعلمية ، وفكرية ، ونفسية ، وأدبية ، وبيانية . . .

فالسنة هي الكتر الذي لا يفنى ، والمعين الذي لا ينضب ولا يتكدّر مهما كثر عليه الواردون ، ولعل أبرز ما تميز به الحديث النبوي البيان والوضوح فقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويأمر بأن يُخَاطب الناس بما يفهمون .

وبيان الكلام ووضوحه له دعائم يقوم عليها منها ما يختصُّ باللغة من حيث انتقاء المفردات المناسبة والأسلوب والصياغة مناسبة ذلك لحال المخاطب ، ومنها ما يرجع إلى الغرض المَسُوق له الكلام ، ومنها ما يرجع إلى حالة المخاطب النفسية ، ولعل من المهم أيضًا استخدام الأساليب البيانية الفنية ، وهو ما يُعْرَفُ في البلاغة العربية بعلم البيان : (وهو العلم الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه) .[1]

وقد علّق على هذا التعريف عبد المتعال الصعيدي في كتابه بغية الإيضاح بقوله : (بأن يكون بعض الطرق واضح الدلالة عليه وبعضها أوضح ، وبذلك يكون الاختلاف بينهما في حدود وضوح الدلالة ، لأن علم البيان يقصد منه الاحتراز عن التعقيد المعنوي فلا يطلب فيه إلا وضوح الدلالة) .[2]

وهذا العلم الشريف (علم البيان) له أبواب متعددة : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، ويلاحظ أن التشبيه مُقَدَّم في علم البيان على بقية أبوابه ، وما ذلك إلاّ لشرف هذا الباب وأهمية في الكلام .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، بدون تاريخ ، ص٢١٥ .

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب القاهرة عام ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م ، الجزء الثالث ، حاشية رقم ١ ص٤

وقد اتفق العقلاء على شرف هذا النوع من البيان (وفخامة أمره في فن البلاغة ، وأن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كان أوذمًا ، أو افتخارًا ، أو غير ذلك) .[1]

وقد قدّمه الشيخ عبد القاهر في سياق حديثه عن مقصده في التوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق فقال : (وهذا غرض لا ينال على وجهه ، وطلبة لا تدرك كما ينبغي ، إلا بعد مقدمات تقدّم ، وأصول تمهّد ، وأشياء هي كالأدوات فيه حقها أن تجمع . . . وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة فإن هذه أصول كبيرة ، كأنّ جلّ محاسن الكلام إن لم نقل كلها متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها) .[2]

كل ذلك يبين قيمة التشبيه بين فنون البلاغة العربية ، ومن هنا وقع اختيار هذا الموضوع ليكون أساس الدراسة ، لكنّه تشبيه خاص هو (التشبيه بالحيوان في الصحيحين) .

وأقصد بالحيوان في بحثي ما لا يعقل سواءً كان دابة كالحيوانات البرية ، أو طائرًا ، أو حشرة ، وهذا القصد معلوم في كتب الأدب القديمة ككتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري وغيرهما .

والتشبيه بالحيوان معروف في البيان العربي منذ القديم ؛ لكننا نجده في البيان النبوي بصور مميزة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمو بالنفس البشرية إلى العلا ، ثم نجده يشبه الإنسان بالحيوان في بعض أحاديثه ، فالبحث ساعٍ إلى الإجابة عمّا قد يقُوم في النفس من تساؤلات منها :

س١/ لِمَ يشبِّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم الإنسانَ وبعضَ تصرفاته بالحيوان في أحاديثه ؟

س٢/ ما الأغراض التي يؤمُّها التشبيه بالحيوان في البيان النبوي ؟

س٣/ لِمَ اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم في تشبيهاته على بعض الحيوانات دون الأخرى ؟

س٤/ ما الأحوال التي راعاها النبي صلى الله عليه وسلم في تشبيهاته بالحيوان ؟

إلى غير ذلك من التساؤلات التي تتوافد على القلب حين يتدبر بيان النبوَّة في هذا الباب .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، للقزويني ص٢١٦

(٢) أسرار البلاغة ، للشيخ عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر ، الطبعة الأولى لمطبعة المدني عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ص٢٧ .

أسباب اختيار الموضوع :

١- من خلال بحثي في الدراسات السابقة لم أجد دراسة خاصة بالتشبيه بالحيوان في البيان النبوي ، وإن وُجِدَتْ دراسات عامَّة للتشبيه في البيان النبوي فلم تكن تتوقف للعناية بهذا التشبيه الخاص بالحيوان لتبيِّن خصائصه ومزاياه .

٢- خدمة السنة النبويّة الشريفة ، وتذوّق بلاغتها ، مما يزيدنا استنارةً بهدي صاحبها صلوات ربي وسلامه عليه ، ورغبةً في الوقوف على شيء من أسرار بلاغته التي وقف أمامها البلغاء وأولو اللَّسَن مطأطئي رؤوسهم ، معترفين بجلالها وجمالها .

٣- الإيمان بأنّ البلاغة بحاجة إلى الدراسة التطبيقيّة التذوّقيّة من منابع أفصح الخلق ، ومنابع أبلغ البشرصلى الله عليه وسلم ، حتّى نجني ثمار هديه ونزداد يقينًا بأنّه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحي يوحى .

٤- دراسة التشبيه بالحيوان من خلال التطبيق على الحديث الشريف دراسةً فيها جدّة وطرافة ، وإثبات للعلاقة الوطيدة التي بين اللغة والدين ، وربط بين القديم والحديث ؛ لأنّها تتجّه إلى بيان التأثير النفسي للكلام ، والكشف عن أسباب هذا التأثير . وما أحوجَنا إلى الدراسات التي تصل الحاضر بالماضي .

٥- التشبيه فن له أهميّته في بلاغة الكلام ، حيث يثير نفس المتلقّي ، ويستحثّ مشاعره ، ويدفع عنه شبح الملل ، ويدفعه إلى الاستجابة ، ويبعثه على فعل المطلوب ، أو ترك المذموم . فإذا بحثت أساليبه وجلِّيَت طرقه أمكن توظيفها والإفادة منها في مجالات الدعوة إلى الله تعالى ، والخطابة ، والكتابة ، والتعليم ، وغير ذلك من المجالات التي يعرض فيها المتكلّم نتاج عقله وبنات فكره على الناس ؛ إذْ يستطيع بها جذبَهم إلى حديثه ، وتشويقهم إلى دعوته ، والالتفاف حولها ، والالتزام بها .

٦- إثبات أنّ البحوث البلاغيّة جديرة بأن تساير النهضة العلميّة ؛ لأنّها لا تنطلق من تصوّرات عقليّة محضة ، وإنّما ترتبط بأحوال الناس وواقعهم ، وترسم لهم أفضل الطرق التّي يعبّرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم .

٧- الإفادة من هذه الدراسة مستقبلاً من حيث توجيه الدارسين في التخصصات العلمية للاهتمام بهذا التشبيه الخاص بالحيوان واكتشاف العلاقة بين المشبه والحيوان المشبه به .

وقد اقتصرت الدراسة على الصحيحين البخاري ومسلم - رحمهما الله - دون غيرهما من كتب السنة المدوّنة ؛ لإجماع الأمّة على تناول كلّ ما ورد فيهما بالقبول ، ولحسن تنظيمهما ودقّة تبويبهما لأحاديثهما ، وشدّة اعتنائهما بروايات عديدة وردت في حديث واحد . وهذا يعين على كشف وجوه التشبيه وأنواعه التي قد توجد في رواية دون غيرها .

الدراسات السابقة :

من خلال بحثي واستقصائي للدراسات السابقة لم أجد دراسة خاصة بالتشبيه بالحيوان في البيان النبوي ، وإن وُجِدَتْ دراسات عامة للتشبيه في البيان النبوي فلم تكن تتوفق للعناية بهذا التشبيه الخاص بالحيوان لتبيِّن خصائصه ومزاياه، ومن تلك الدراسات السابقة:

١- (الصورة الفنية في الحديث النبوي - تنظير وتطبيق) رسالة دكتوراه للباحثة غادة الحوطي ، نوقشت في جامعة أم القرى عام ١٤٢١ هـ وأشرف عليها الدكتور حسن الوركلي .

وهذه الدراسة يتضح من عنوانها أنها مقسمة إلى بابين ، الباب الأول تنظير واعتمدت فيها الباحثة على دراسة آليات الصورة البيانية ومصادرها وأنماطها ومقاصدها ووظائفها وجمالياتها ، وخصصت الباب الثاني للتطبيق من خلال تحليل الصورة في بعض نماذج كم الحديث ، حيث قسّمت هذا الباب إلى أربعة فصول صورة للنماذج الإنسانية بين الاستواء والاكتئاب ، صورة المخلوقات الغيبية بين الهدى والضلال ، صورة المكان في عالم الشهادة والغيب ، وصورة الزمان مونقًا وموحشًا .

وهذه الدراسة بعيدة عن دراستي حيث أنها عامة درست الصورة البيانية بمعناها العام بينما تختصُّ دراستي بالتشبيه مع الاهتمام بالفنون البيانية المعزِّزة له ، كما أنَّ هذه الدراسة اعتمدت فيها الباحثة على التنظير والتحليل وأعطت الجانب النظري جُلَّ اهتمامها وأكثر فصول بحثها ، بينما دراستي تهتم بالجانب التطبيقي وتقوم على التحليل للتشبيه بالحيوان للوصول إلى مزايا هذا التشبيه وخصائصه .

٢- (الصورة البيانية في أحاديث الغيب - دراسة بلاغية موضوعية في الصحيحين) ، رسالة ماجستير للباحثة : جواهر زغتي محمد الزهراني ، وأشرف عليها الدكتور : محمد فرعلى الشافعي ، نوقشت في جامعة أم القرى عام ١٤٢٨هـ .

وهذه الدراسة جيدة كانت تختصُّ بدراسة أحاديث الغيب الدنيويَّة والأخرويَّة فكشفت عن جمال الصورة البيانية في تلك الأحاديث ، وهي مقسّمة إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول في الصورة البيانية في أحاديث الغيب الدنيوي ، والفصل الثاني الصورة البيانية في أحاديث الغيب الأخروي ، والفصل الثالث في خصائص الصورة البيانية ووظائفها .

ومن خلال اطلاعي على هذه الرسالة رأيت أنها تختلف عن دراستي من حيث أنها تدرس الصورة البيانية بمعناها العام من تشبيه واستعارة وكناية ، بينما تختص دراستي بالتشبيه فقط ، كما أن هذه الدراسة تخصّ أحاديث الغيب بالدراسة ، بينما تختصّ دراستي بالتشبيه بالحيوان بصرف النظر عن كونه غيبي أومحسوس .

٣- (التشبيه التمثيلي في الصحيحين) ، رسالة ماجستير للباحثة فائزة سالم صالح يحي ، أشرف عليها الدكتور : محمد محمد أبو موسى ، نوقشت في جامعة أم القرى عام ١٤٠٦هـ .

وإن كانت هذه الدراسة تتفق مع دراستي من حيث أنها في التشبيه وفي الصحيحين ، إلا أنها تختص بدراسة التشبيه التمثيلي دون المفرد . وهذه الدراسة قسِّمت إلى بابين الأول دراسة نظرية للتشبيه التمثيلي عند البلاغيين ، قبل عبد القاهر من الجاحظ إلى أبي هلال العسكري ، والفصل الثاني يعنى بالتمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين . أما الباب الثاني فيتناول التشبيه في الصحيحين ، وهو أيضًا يهتم بالدراسة النظرية في أغلب فصوله حيث قسمت الدراسة إلى سبعة أبواب ، يدور الباب الأول حول التراث البلاغي للبيان النبوي ، والثاني يبحث في المعاني التي جاء فيها التمثيل ، والثالث يبحث في المصادر التي استمدّ منها البيان النبوي عناصر التمثيل ، والرابع درست فيه أسرار الصياغة في التمثيل النبوي والتي تظهر بصورة مطردة في أكثر

الأحاديث ، والخامس يبين أثر القرآن في التمثيل النبوي ، والسادس يوازن بين تمثيل الجاهليين والتمثيل النبوي ، والسابع يتعرض لدراسة بعض الأحاديث دراسة متكاملة على المنهج الذي وضعته الباحثة في الفصول السابقة .

وقد قسمت هذه الدراسة المتكاملة للأحاديث في الفصل الأخير إلى جزأين ، الأول مبني على الحديث وصياغته من حيث المفردات والجمل ، والثاني صياغة المثل ، وهذا يعني أن الدراسة لا تقوم على التحليل وإنما التحليل جزء منها ، كما أظن أن هذه الدراسة لم تتقص جميع الأحاديث التي ورد فيها التمثيل بل اقتصرت على دراست ثلاثة أحاديث فقط دراسة متكاملة.

وهذه الدراسة تختلف عن دراستي من عدة جهات :

أولاً : أن هذه الدراسة خاصة بالتشبيه التمثيلي ، بينما دراستي ستكون – بإذن الله – للتشبيه بأنواعه .

ثانيًا : أن دراستي تقوم على المنهج التحليلي المستفاد من شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني كما سأبين في منهج الدراسة .

ثالثًا : أن هذه الدراسة لم تستقص جميع الأحاديث التي ورد فيها التشبيه التمثيلي ، بينما دراستي سأتقصى فيها – بإذن الله – جميع الأحاديث التي ورد فيها التشبيه بالحيوان في الصحيحين وأحللها تحليلاً بلاغيًا يكشف عن خصائص هذا التشبيه وميِّزاته .

٤- (التشبيه في صحيح مسلم-دراسة تحليلية) ، رسالة ماجستير للباحث أحمد عيظة الثقفي ، أشرف عليها الدكتور يوسف عبد الله الأنصاري ، نوقشت في جامعة أم القرى عام١٤٢٣ هـــ .

ربما تكون هذه الدراسة أقرب الدراسات السابقة من دراستي من حيث أنها تدرس التشبيه من ناحية ، وأنها تقوم على المنهج التحليلي من ناحية أخرى .

لكنها تختلف عن دراستي من جوانب أخرى حيث أنها في التشبيه دون تخصيص مشبَّه به معين ، بينما دراستي مقتصرة على التشبيه بالحيوان فقط ، ومن جهة أخرى إن هذه الرسالة مقتصرة على دراسة ما ورد من التشبيه في صحيح مسلم ، بينما دراستي ستكون في الصحيحين البخاري ومسلم .

كما أحبّ أن أنبه على أن هذه الدراسة تطرقت للتشبيه بالحيوان إلاّ أن ذلك لم يعدُ أن يكون عنصرًا من مباحث الفصل الثاني من الباب الثالث بما لا يتجاوز العشر صفحات ، بينما دراستي خاصة ومنحصرة في التشبيه بالحيوان لما رأيت من أهمية هذا التشبيه وما يحمله من دلالات جديرة بالاهتمام والدراسة .

كما لاحظت من خلال اطلاعي على تلك الدراسات السابقة أنها وإن تعرَّضت لذكر أحاديث ورد فيها التشبيه بالحيوان إلا أنها تقصر الدارسة على الجزء المتعلق بالتشبيه أو الصورة البيانية دون التطرق لدراسة النص الذي وردت فيه الصورة ، بينما في دراستي سأذكر نص الحديث كاملاً وأُعنى بدراسة جميع مفرداته وجمله وما لها من علاقات ظاهرة أو خفية في تكوين التشبيه وتقوية المعنى المراد منه والسياقات الواردة فيها .

وليس المقصود من كلّ ما ذكرته سابقًا من تعليقات على تلك الرسائل العلمية التقليل من قيمتها أو الحطّ من منزلتها العلمية أو النيل من جهد أصحابها ، وإنما أردت بيان الفرق بين دراستي ودراساتهم وإن تشابهت العناوين وتقارب المجال ؛ ولأصرح أن عملهم ليس صارفًا لي عمّا سأعمل في دراستي حتى وإن كنت قد اخترت هذا العنوان لرسالتي قبل اطلاعي على تلك الدراسات – وإلا فالفضل للمبتدئ ولو أحسن المقتدي – وقد اطلعت على تلك الدراسات واستأنست بها بل وأفدت منها في بعض المواضع في دراستي ، فجزى الله أصحاب تلك الدراسات عن العلم والسنة والبلاغة العربية خير الجزاء .

٥- (التشبيهات النبوية في صحيح البخاري : دراسة موضوعية فنية) رسالة ماجسير للباحث يونس عبد مرزوك ، نوقشت في جامعة بغداد عام ١٩٩٧م .

٦- (التشبيه في الحديث النبوي) ، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الموصل عام ١٩٩٨م .

٧- (التشبيه في الحديث الشريف : أسلوبه وخصائصه البلاغية) ، رسالة ماجستير للباحث عبد العزيز حسين عثمان خضر ، نوقشت في جامعة الأزهر عام ١٩٨٠م ، وأشرف عليها محمد عبد الرحمن الكردي .

ولما كانت هذه الدراسات الثلاث الأخيرة في جامعات خارج المملكة العربية السعودية وتعسّر عليّ الاطلاع عليها – حتى عن طريق التقنية الحديثة في شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) – اكتفيت بذكر عناوينها وبعض المعلومات التي استطعت الوصول إليها عن تلك الدراسات .

كما يظهر لي أن تلك الدراسات الأخيرة كانت أيضًا في التشبيه بشكل عام ، ولم تخصّ التشبيه بالحيوان في الصحيحين بالدراسة كما يبدو ذلك من عناوينها . وأتعهد بعدم التقاطع مع تلك الرسائل منهجًا ومادة ، ولن أسير على طرائقها في دراستي .

منهج البحث :

يقوم هذا البحث على استقراء الأحاديث المشتملة على التشبيه بالحيوان استقراءً تامًا – قدر الإمكان – وتصنيفها موضُوعيًا ، ثم تحليل التشبيه القائم فيها ، واستنباط خصائصه وميّزاته البلاغية . وهذا المنهج مستفاد ممّا قرره شيخ البلاغيين عبد القاهر في أوائل كتابه دلائل الإعجاز كما لايخفى على ناظرٍ فيه ، حيث يقول في كتابه دلائل الإعجاز : (لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصبَ لها قياساً وأن تصفَها وصفاً مُجملاً وتقولَ فيها قولاً مُرسَلاً . بل لا تكون من معرفتها في شَيْءٍ حتى تُفَصِّلَ القولَ وتُحَصِّلَ وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تعرضُ في نظمِ الكلمِ وتعدَّها واحدةً واحدةً وتسمِّيَها شيئاً شيئاً . وتكون معرفتُك معرفةَ الصَّنَعِ الحاذقِ الذي يعلمُ علمَ كلّ خيطٍ منَ الأبريسَم الذي في الدِّيباج وكلّ قطعةٍ منَ القطع المَنْجورة في الباب المُقَطَّع وكلّ آجُرَّةٍ منَ الآجُرِّ الذي في البناء البديع) .[1]

ويقول في موضعٍ آخر : (لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه ولفظٍ تستجيدهُ من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلةٌ معقولةٌ . وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ وعلى صحةِ ما ادَّعيناهُ من ذلك دليلٌ) .[2]

ويقول أيضًا : (واعلمْ أنك لا تَشْفي الغُلّة ولا تنتهي إلى ثلجِ اليقينِ حتى تتجاوزَ حدَّ العلمِ بالشيء مُجملاً إلى العلم به مفصَّلاً وحتّى لا يُقْنِعَك إلاّ النظرُ في زواياهُ والتَّغلغلُ في مكامنه وحتى تكون كمن

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني القاهرة ، الطبعة الثالثة عام ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م . ص٣٧

(٢) المصدر السابق ، ص٤١

تتبَّعَ الماءَ حتّى عرفَ منْبَعَه وانتهى في البحثِ عن جوهرِ العُود الذي يصنع فيه إلى أن يعرفَ منبتَه ومَجرى عُروقِ الشجرِ الذي هو منه) .[1]

وسأتخذ خطوات تقود إلى حسن الإفادة من هذا المنهج حيث أسير في معالجته على ما يأتي:

١. أعرّف كلّ مصطلح بلاغي داخل في فن التشبيه ، في ضوء الكتب المصنّفة في البلاغة قدر الإمكان .

٢. أقتصر على الأحاديث الواردة في الصحيحين في تجلية فن التشبيه بالحيوان وتحليله ، وأبدي النكتة البلاغيّة فيها من خلال شرحها ، مستعينًا بالله في ذلك ثمّ معتمدًا على ما يهديني إليه ذوقي في الغالب ، راجعًا إلى كلام الشّراح والبلاغيّين حيث أرى لذلك لزومًا أو حسنًا في إيضاح المعنى .

٣. أعرض لبعض الشواهد الشعريّة التي تفيد في التشبيه أحيانًا ، وذلك بغية الإفادة منها في التنظير، وإظهار الروعة البلاغيّة حسب المستطاع .

٤. أخرّج كلّ أحاديث الصحيحين الواردة في البحث ، مشيرًا إلى الجزء والصفحة والكتاب والرقم التسلسلي للحديث ليتيسّر الرجوع إليها .

٥. أخرّج الآيات القرآنية ، والنصوص الشعريّة ، والشواهد الفصيحة الأخرى والتي تهدي في الشرح والبيان من مظانّها قدر الإمكان .

٦. أذكر معلومات النشر كاملة في أوّل ذكري للمصدر أو المرجع ، وأكتفي بذكر الصفحة والجزء – إن كان الكتاب أكثر من جزء – في الإحالات اللاحقة .

(١) دلائل الإعجاز ، ص٢٦٠

شرح خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن يجيء في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة وفهارس تفصيلية .

المقدمة تشير إلى قيمة البيان النبوي ، وارتقائه على جميع مستويات البيان البشري حيث إنه النص الذي كلما تقادم عهده ازدادت قيمته وتجددت خصائصه ، فهو الكنز الذي لا يفنى والمعين الذي لا ينضب مهما كثر عليه الواردون .

كما بيّنتْ هذه المقدمة أهمية الوضوح في دلالة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فهو النص الذي يخاطب جميع فئات المجتمع المسلم .

كما بيّنتْ هذه المقدمة بعض الدعائم التي يقوم عليها البيان والوضوح في الكلام وأن التشبيه من أعظم هذه الدعائم التي اهتم بها النبي صلى الله عليه وسلم وأكثر استخدامها في حديثه ؛ لما لها من عظيم الأثر في الكشف عن المعنى المساق له الحديث والتأثير البالغ في نفس المخاطب .

ثم وقفة مع التشبيه وبعض ميِّزاته في علم البيان ومكانته بين أبواب علم البيان .

ثم بيان سبب اختيار الموضوع ، وعنوانه ، والدراسات السابقة في هذا المجال ، كما بيّنت ما تتميز به هذه الدراسة عن سابقاتها ، وما تضيفه إليها .

ثم تحديد منهج الدراسة وهو منهج مستفاد ممّا قرره عبد القاهر في أوائل كتابِه دلائل الإعجاز إذ يقوم هذا المنهج على استقراء الأحاديث والمشتملة على التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وتصنيفها تصنيفًا موضوعيًا ، ثم تحليل التشبيه القائم فيها ، واستنباط خصائصه وميزاته البلاغية .

التمهيد :

جاء للحديث عن أنواع الحيوان الذي وقع التشبيه به في الصحيحين ، وهو مصنَّف إلى ثلاث مجموعات : مجموعة الحيوانات البرية ، ثمّ مجموعة الطيور ، ثمّ مجموعة الحشرات .

وفيه وعرض بإيجاز للخصائص المهمة لكل حيوان مما يكون له أثر في التشبيه به في الحديث النبوي .

الفصل الأول : (سياقات التشبيه بالحيوان في الصحيحين)

وهو مقسم إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : جاء للحديث عن سياق الأمر والحث على العمل الصالح ، وضربت على ذلك مجموعة من الأمثلة من تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان في الصحيحين .

المبحث الثاني : جاء للحديث عن سياق النهي والتنفير من العمل السيئ ، وجئت بمجموعة من الأمثلة عليه من تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان في الصحيحين.

المبحث الثالث : وجاء للحديث عن سياق البيان والإيضاح والوصف والإخبار ، مع ضرب الأمثلة عليه من تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان في الصحيحين .

الفصل الثاني : (الجانب التركيبي للتشبيه بالحيوان في الصحيحين)

وهو أيضًا مقسم إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : وجاء للحديث عن أجزاء الجملة وما يتعلق بها من ذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وإطلاق وتقييد ، وتقديم وتأخير .

المبحث الثاني : وجاء للحديث عن سمات الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وفيه بيان للفرق بين التعبير بالجملة الاسمية والجملة الفعلية ،وحديث عن الأساليب الإنشائية ، وأخيرًا عن القصر والتوكيد .

المبحث الثالث : الحديث فيه عن سمات الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان من حيث الروابط بين الجمل سواءً كانت روابط لفظية بين الجمل المتصلة كما في حروف العطف وحروف الشرط ، أو روابط معنوية بين الجمل المنفصلة ، والعلاقات بين الجمل من حيث اللفظ والمعنى إيجازًا وإطنابًا .

كما درس هذا الفصل بعض أساليب علم البديع التي هي في أساسها تركيبية وذلك في بعض الأحاديث .

الفصل الثالث : (الجانب التصويري للتشبيه بالحيوان في الصحيحين)

وفي هذا الفصل دراسة لكافة الأنماط التصويرية للتشبيه وجميع الجزئيات المتعلقة به في الأحاديث التي تم استقصاؤها ، وهو مقسم إلى أربعة مباحث باعتبار الأغراض التي يشبه بها بالحيوان في الصحيحين :

المبحث الأول : ما كان تشبيهًا به في الحسن والقبح .

المبحث الثاني : ما كان تشبيهًا به في المقدار .

المبحث الثالث : ما كان تشبيهًا به في السرعة .

المبحث الرابع : ما كان تشبيهًا به في القلة والندرة .

الفصل الرابع : (الجانب التأثيري للتشبيه بالحيوان في الصحيحين)
وهو دراسة للمزايا التي تعود على المعنى حين يقع التشبيه بالحيوان والمزايا التي تعود على السامع حين يقام له المعنى في صورة تشبيه بالحيوان ، وهو مقسم إلى ثلاثة مباحث :
المبحث الأول : شعور المخاطب بالفرح والبهجة والتفاؤل بالأجر .
المبحث الثاني : الشعور بالخوف من العقاب .
المبحث الثالث : الشعور بالتحقير والتنفير والتقزز والاشمئزاز .

الخاتمة :
فيها ملخص لكليات كل فصل وتصنيفها وبيان بعض النتائج والتوصيات العلمية .

الفهارس :
فهرس الآيات ، فهرس الأحاديث ، فهرس الأشعار ، فهرس الحكم والأمثال ، فهرس محتويات البحث .

وقد واجهتني بعض الصعوبات في هذه الدراسة ، ولعل من أهمها تحديد نوع وفهم بعض الصور التشبيهيَّة ؛ وذلك لكثرة الروايات في الصحيحين ، وقد حاولت جاهدًا أن أقع على المعنى البلاغي للتشبيه بالرجوع إلى كلِّ الروايات واستنتاج خلاصة ما قاله علماء الحديث والشُّراح البلاغيون .
كما واجهتني صعوبة أخرى في تقسيم الفصل الأخير (الجانب التأثيري للتشبيه) إذ لم أقع على كتابٍ أو دراسةٍ اختصَّتْ ببيان هذا التأثير للتشبيه أو تقسيمه تقسيمًا علميًا مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب علم النفس وعلم الاجتماع في محاولة استنتاج أثر التشبيه بشكل علميّ منظَّم وأقرب للمنطق وأكثر موافقة للدوافع والانفعالات النفسية .

ثم لا يسعني في الختام إلاّ أن أشكر الله تعالى أولاً على إتمام هذا البحث المتواضع ، ثم أتقدَّم بالشكر لجميع أعضاء هيئة التدريس بكلية اللغة العربية فجزاهم الله خيرًا ، ثم أخصُّ بالشكر الأستاذ الدكتور محمد هريدي الصعيدي على ما بذله من جهد وتوجيه ونصح فقد كان أبًا ومعلمًا وكان يكثر الدعاء لي ويشجعني ، وكان نعم العون بعد الله في تذليل ما يواجهني من عقبات ، كما لا يفوتني أن أتقدم

بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد الذي بدأ معي هذا البحث و لم يتوان في تقديم العون والمشورة الموفقة كلّما احتجت إليه ، وكذلك الدكتور يوسف عبد الله الأنصاري على ما بذل من نصح وإرشاد ، فجزاهم الله عني وعما قدموه لغيري من طلاب العلم خير الجزاء وجعل ذلك في موازين حسناتهم يوم الحساب .

وكذلك أشكر الزملاء الفضلاء الأساتذة الكرام الذين مدُّوا لِيّ يد العون بشكل أو آخر خلال إعدادي لهذا البحث ، شكر الله مساعيهم ووفّر لهم أجورهم .

ثم أتقدم بخالص الدعاء لوالدي الكريمين الذين حرصا على توجيهي والدعاء لي بالتوفيق سائلاً المولى أن يديم عليهما الصحة والعافية وأن يرزقني برهما .

وختامًا أسأل الله أن يكون هذا العمل عمل خيرٍ نؤجر عليه ، وأن أكون قد وفِّقت في تقديم شيءٍ في خدمة السنة والبلاغة العربية ، كما أسأله سبحانه أن يضاعف لي أجر ما بذلته من نظرٍ في كتابه الكريم وحديث نبيه الأمين والحمد لله ربِّ العالمين .

التمهيد

عنوان هذه الرسالة (التشبيه بالحيوان في الصحيحين - دراسة في الخصائص والمزايا) ، وأعني بالخصائص والمزايا ما تميز به هذا النوع من التشبيه في البيان النبوي ، ومحاولة الوصول لخصائصه وما يوحي إليه من معاني يمكن الشعور بها من خلال صورة المشبه به .

في المعجم الوسيط : (خصَّ) خصاصًا وخصاصةً افتقر (أخصَّهُ) به خصَّه وفلانٌ فلاناً وبه صار خاصًا به (خصَّص) فلانًا بالشيء خصَّهُ به (اختَصَّ) الشيء خص وفلانٌ افتقر وبه انفردَ والشيء اصطفاهُ واختارهُ وفلاناً بكذا خصَّهُ به والشيء لنفسهِ خصَّها به (تخصُّص) انفردَ وصارَ خاصًا يقال : خصَّصَهُ فَتَخَصَّصَ وبه وله انفردَ به وله ويقال : تخصَّصَ في علمٍ كذا قَصَرَ عليه بحثَهُ وجُهْدَهُ (استَخَصَّهُ) عدَّهُ خاصًا واصطفَاهُ واختَارَهُ .[1]

والمزيَّةُ ج مَزَايَا : الفضيلة من علمٍ أو كرمٍ أو شجاعةٍ أو شرفٍ ونحو ذلك مما يمتاز به الإنسان أو الشيء عن غيره .[2]

يقول الإمام عبد القاهر في ترك البحث عن العلّة التي توجب المزيَّة في الكلام : (واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولُ في هذا البابِ موقعاً من السامعِ ولا يَجدُ لديه قُبولاً حتى يكونَ من أهل الذوقِ والمعرفةِ وحتى يكونَ ممن تحدِّثُه نفسُه بأنَّ لما يُومىءُ إليه من الحسنِ واللطفِ أصلاً وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلام فيجدَ الأريحيةَ تارةً ويَعرى منها أخرى . وحتى إذا عجَّبَته عجبَ وإذ نَبَّهته لموضع المزية انتبه . فأمّا من كانتِ الحالانِ والوجهان عنده أبداً على سواءٍ وكان لا يَفْقَه من أمرِ النظمِ إلا الصحَّةَ المُطلقةَ وإلا إعراباً ظاهراً فما أقلَّ ما يُجدي الكلامُ معه).[3]

فالبحث ساعٍ للوصول إلى مزية هذا التشبيه ، وهذه المزيه تنبع من اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للحيوان المشبه به وما يختصّ به من صفات وطباع ومزايا تميزه عن غيره من الحيوانات ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تميّز هذا التشبيه من حيث تركيب جمله واختيار ألفاظه والسياق الذي ورد فيه .

---

(١) المعجم الوسيط لمؤلف / إبراهيم مصطفى ـــ أحمد الزيات ـــ حامد عبد القادر ـــ محمد النجار دار النشر : دار الدعوة ، تحقيق / مجمع اللغة العربية ، باب الخاء ج١/٢٣٨

(٢) المنجد في اللغة والأعلام ، تأليف مجموعة ، الطبعة الرابعة والثلاثون لدار المشرق بيروت ، بدون تاريخ . ص٧٦٠

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص٢٩١

ارتبطت حياة الإنسان منذ نشأته على الأرض بالحيوان واهتمّ به ، وذلك لأن الله سبحانه قد سخّر له تلك الكائنات وجعل فيها طعامه وسقاءه ومركبه ومسكنه ، بل ودواءه أحيانًا .

قال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]

ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾[٢]

ولو رجعنا إلى التاريخ البشري لرأينا ذلك الارتباط بين الإنسان والحيوان منذ الأزل ، فهذا آدم عليه الصلاة والسلام أبو البشر وأول الأنبياء كان سبب خلاف ابنيه قابيل وهابيل القربان الذي قدماه لله تعالى كما قصَّ الله ذلك علينا في كتابه العزيز ، وما ذلك القربان إلاّ من بهائم الأنعام ، بل حتى الرسول الذي أرسله الله للقاتل منهما ليعلمه كيف يواري سوأة أخيه كان غرابًا .

واقرأ ما ورد في خبر داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام وما امتن الله به عليهما من تعليمهما لغة الطير والحيوان فقال : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [٣]، وقصّ علينا ما فهّمه سليمان عليه السلام من حديث النملة مع قطيعها ، والحوار الذي دار بينه وبين الهدهد . فقال : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ... ﴾[٤]

---

(١) سورة النحل آية رقم (٥-٨)

(٢) سورة النحل آية رقم ٨٠

(٣) سورة النمل آية ١٦ ، واقرأ ما بعدها إلى آية ٢٨

(٤) سورة النمل آية رقم ١٨-٢٢

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء ارتبطت حياته منذ بداية طلبه للرزق برعي الغنم لأهل مكة ، قال صلى الله عليه وسلم " ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم " فقال أصحابه : وأنت؟ فقال : " نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة ".[١]

وإذا نظرنا إلى الأمم السابقة وما خلفوا من آثار رأينا تلك النقوش والرسومات التي تركوها تعبِّر عن ارتباطهم بالحيوان واتخاذهم إياه عنصرًا مهمًا في حياتهم ورمزًا للكثير من عقائدهم وعاداتهم .

وبعد تطور الإنسان العلمي رأينا كيف اهتم اليونان بالحيوان ودراسة خصائصه وطباعه ، ولعل أعظم شاهد على ذلك كتاب (طباع الحيوان) لأرسطو طاليس .

وكذلك الهنود والفرس اهتموا بالحيوان وأخباره بل تطور بهم الفن حتى إنهم قصوا على ألسنة الحيوان بعض القصص الخرافية ، ورأينا ابن المقفَّع كيف أفاد منهم ونقل لنا هذا الفن بأسلوبه الجميل في كتابه (كليلة ودمنة) فجعل الحيوان لهوًا ، وما ينطق به حكمة وأدبًا .

وكذلك العرب اهتموا منذ القديم بالحيوان وارتبطت حياتهم به في تربيته والانتفاع به كبقية الأمم ، وأفادوا من طباعه وخصائصه في تصوير بعض طباع وتصرفات الآدميين به ، فجعلوا من التشبيه ببعض هذا الحيوان ما يوحي بالمدح والثناء والشجاعة والوفاء وذلك حين يشبهون بالأسد والخيل والذئب والفحل ، وفي التصوير ببعضها ما يوحي بالضعف والخبث والدناءة والإهانة والهوان وذلك حين يشبهون بالأرنب والفراش والثعلب والكلب والحمار .

وقد ضرب لنا القرآن الكريم في هذا المجال أبلغ وأروع الأمثلة حينما شبَّه المنافقين واليهود وكفار قريش ببعض هذه الحيوانات ، وكذلك في تشبيه من صدّ عن سبيله ووقع في المعاصي والسيئات .[٢]

وكذلك إذا نظرنا إلى الحديث النبوي الشريف رأيناه صلى الله عليه وسلم ببلاغته الفائقة كيف رسم لأمته طريق الحق حينما وضَّح لهم المحمود والمذموم من الأفعال والصفات بالتشبيه ببعض تلك

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري حديث رقم ٢٢٦٢ ج٤/ص٥١٦

(٢) المقام هنا لا يسمح بضرب الأمثلة على تشبيهات القرآن بالحيوان ، لكن حسبي أن أشير إلى بعض الآيات لعل القارئ أن يرجع إليها.ومن ذلك: سورة المائدة آية ١١٠ ، سورة الأعراف آية ١٧٦ ، سورة العنكبوت آية ٤١ ، سورة الجمعة آية ٥ وغيرها .

الحيوانات التي يعرفونها ، بل كان صلى الله عليه وسلم يؤثر التعبير عن المعنى المجرّد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين ؛ لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به ، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي وتضاعف القوى في تحريك النفس لفعل المحمود ، وترك المذموم .

وقد صُنِّفتْ كثير من الكتب العربية قديمًا وحديثًا في دراسة طباع الحيوان وخصائصه ، ولعل من أشهر تلك الكتب : كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ، وسأجعل هذين الكتابين هما المصدر الرئيس في جلِّ ما أذكره من خصائص الحيوان المشبه بها في الصحيحين والتي سأتناولها في هذا التمهيد بإيجاز ، بالإضافة إلى كتاب آخر حديث التأليف هو موسوعة الحيوان لغراتا قره بتيان.

وهذا التمهيد دراسة موجزة لخصائص الحيوانات الواردة في التشبيهات النبوية في الصحيحين وسيكون تقسيم هذه الحيوانات إلى ثلاث مجموعات : مجموعة الحيوانات البرية ، ثم مجموعة الطيور ، ثم مجموعة الحشرات .

أ- مجموعة الحيوانات البرية :

وأقصد بها ما ليس بطائرٍ ولا حشرةٍ من الحيوانات التي تعيش في شبه الجزيرة العربية سواءً كانت مفترسة كالأسد والذئب ، أو غير مفترسة من أمثال الإبل والغنم والخيل والحمير وغيرها .

١- الإِبلُ (البخت ، الراحلة) :

الإِبلُ : بكسر الباء الموحَّدة ، وقد تُسكَّن للتخفيف : الجِمالُ ، وهو اسمٌ واحد يقع على الجميع ، وليس بجمعٍ ولا اسم جمعٍ وإنما هو دالٌّ على الجنس .[1]

الإبل حيوانات ثديية مجترة من رتبة مزدوجات الأصابع ، وهي أقدم الحيوانات الداجنة التي سخَّرها الإنسان في حمل أثقاله ، ويعتقد أن موطنها الأصلي آسيا الصغرى ، وقد يكون بلاد العرب ، أو الهند ، أو فارس .

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ، تأليف كمال الدين محمد بن موسى الدميري ، تحقيق إبراهيم صالح ، الطبعة الأولى لدار البشائر ج١/ص٧٣

والإبل من الحيوانات العجيبة ، وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها ، وهو أنه حيوان عظيم الجسم ، سريع الانقياد ، ينهض بالحمل الثقيل ، ويبرك به ، وتأخذ زمامه فأرة فتذهب به إلى حيث شاءت ، ويتُّخذ على ظهره بيتٌ ، يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبسه وطرُوفِهِ ووَسائده كأنه في بيته ، ويُتَّخَذُ للبيت سقفٌ ، وهو يمشي بكلِّ هذه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[1]

وكل الحيوان له مرارة إلا الإبل ، ولذلك كَثُر صبرها وانقادت ، وكُنِّيَ الجمل بأبي أيوب .[2]

والإبل ، كالغنم ، تسير قطعانًا ، وإذا أُفرد الجمل عن القطيع ، كان همه الأول الالتحاق بهذا القطيع . وهو حيوان وديع أليف لمن يؤانسه ويرعاه ، ولكنه جبان أشد الجبن ، فهو يخاف ، رغم عظم حجمه ، من أصغر الحيوانات . وقيل : إنه أجبن الحيوانات .

ومن خصائصه المهمَّة القدرة الفائقة على تحمل العطش ، حتى في الأيام الحارة ، وسهولة انقياده ، وشدة حنوّ الناقة على مولودها ، وشدة الطرب للحداء والغناء .[3]

قالوا : والجمل أشدُّ الحيوان حقدًا ؛ وفي طبعه الصبر والصولة .[4]

والبخت : من الإبل ، مُعَرَّبٌ ، وبعضهم يقول : هو عربي ، الواحد الذكر : بُخْتِيٌّ ، والأنثى بُخْتِيَّةٌ ، وجمعه بخاتي غير مصروف ... والبَخاتِي : جمالٌ طوال الأعناق .[5]

والراحلة : قال الجوهري : هي الناقة التي تصلح لأن تُرْحل ، وكذلك الرَّحُولُ ؛ ويُقال : الرَّاحِلة : المَرْكَبُ من الإبل ذكرًا كان أو أنثى .[6] انتهى . والهاء فيها للمبالغة ، كالتي في داهية ، وراوية ، وعلامة وإنما سُمِّيتْ راحلة ؛ لأنها تُرْحَلُ أي : يُشَدُّ عليها الرَّحْلُ ... وقال ابن قتيبة : النجيبة المختارة من الإبل للركوب وغيره ، وهي كاملة الأوصاف ، فإذا كانت في إبلٍ عُرِفتْ . وقال

---

(١) سورة الغاشية آية رقم ١٧

(٢) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٧٥-٨٠

(٣) موسوعة الحيوان (علمية،أدبية،لغوية،ثقافية) إعداد غراتا قره بتيان ، الإشراف اللغوي الدكتور إميل بديع يعقوب ، الطبعة الأولى للدار العربية للعلوم عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م ، ج١/ص٩

(٤) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٧٩

(٥) المصدر السابق ج١/ص٣٨٥

(٦) مختار الصحاح ، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، الطبعة الأولى لدار الفكر بيروت عام ١٩٩٧م ، مادة (ر ح ل) ، ص١١٠

الأزهري : الراحلة عند العرب : الجمل النَّجِيبُ ، والناقة النَّجيبةُ .[١]

وقد شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم بالإبل في أكثر من حديث في الصحيحين يتنوع فيها وجه الشبه بين عظم قيمتها عند الناس ، وندرتها ، وسرعة تفلّتها من عقولها ، وغير ذلك مما سنفصِّل القول فيما يلي من فصول هذا البحث .

٢- الأَسَدُ :

الأَسَدُ : من السِّباع معروفٌ ، وجمعه أُسُودٌ وأُسْدٌ وآسُدٌ وآساد ، والأنثى أَسَدَةٌ .[٢]

والأسد من الثدييات ومن آكلات اللحوم ، يأكل الظباء ، والخنازير ، والأرانب ، والجواميس ، وغيرها من الحيوانات ، ولا يهاجم الإنسان إلا إذا عضه الجوع .

ويتميز الأسد بحدة البصر ، وبلمعان عينيه في الظلام ، وبرهافة السمع الذي يهديه إلى الفريسة قبل أن تظفر بها عينه .[٣]

قالوا : وللأسد من الصبر على الجوع ، وقلّة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع ؛ ومن شرف نفسه أنه لا يأكل من فريسة غيره ، فإذا شبع من فريسته تركها ولم يعُد إليها ؛ وإذا جاع ساءت أخلاقه ، وإذا امتلأ من الطعام ارتاض ؛ ولا يشرب من ماء وَلَغَ فيه كلب .[٤]

ويُضْرَبُ المثل بالأسد في الشجاعة ، والإقدام ، والشدة ، والنجدة ، والبسالة ، والجرأة ، والصولة ، كما ضربوا المثل بالخوف من الأسد ، وبه جاء تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد " [٥]

٣-البَدَنَةُ :

جمعها بُدُنٌ ، بضمِّ الدال ، وإسكانها ، وبالإسكان جاء القرآن ؛ وممن ذكر الضم الجوهري رحمهُ الله ، وهو ما أُشْعِرَ من ناقةٍ أو بقرة ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تُبَدَّنُ أي تُسَمَّنُ . وقال النووي : هي

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٤٥٠-٤٥١

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٨

(٣) موسوعة الحيوان ج١/ص٣٣

(٤) الحياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٩-٤٠

(٥) صحيح البخاري ، الطبعة الثانية عام ١٤١٩ هـ ، دار السلام الرياض ، حديث رقم (٥٧٠٧) صفحة ١٠٠٩

البعير ، ذكرًا كان أو أنثى ، وشرطها أن تكون في سن الأُضحية عند الفقهاء ، وعند اللُّغويين أو أكثرهم تطلق على الإبل والبقر . وقال الأزهري : تكون في الإبل والبقر والغنم ؛ سُمِّيَتْ بذلك لعظم أبدانها .[١]

وقيل : البَدَنَةُ ناقةٌ أو بقرةٌ تُنْحَرُ بمكة سُمِّيتْ بذلك لأنهم كانوا يُسَمِّنونها والجمع (بُدْنٌ) بالضم .[٢]

ويشهد لاختصاصها بالإبل : ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .[٣]

وجمع البَدَنَةِ بُدْنٌ ؛ قال تعالى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أي من أعلام دين الله ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾[٤] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هي نفعٌ في الدنيا ، وأجرٌ في الآخرة .

والبدنة يضرب بها المثل في الكثرة والبركة وعظم الأجر ، يدلُّ على ذلك الحديث الذي أوردناه في فضل غُسْلِ يوم الجمعة والتبكير إلى الصلاة .

٤-البَغْلُ :

معروفٌ ، وكنيته أبو الأشحج ، وأبو الحَرُون ، وأبو الصقر ... ويقال له : ابن ناهق . وهو مركب من الفرس والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار ، وعِظَم آلت الخيل . وكذلك شحيجه – أي صوته – مولود من صهيل الفرس ، ونهيق الحمار . وهو عقيم لا يولد له... وله صبر الحمار ، وقوة الفرس ؛ ويوصف برداءة الأخلاق والتلوُّن لأجل التركيب ؛ ولكنه مع ذلك يوصف بالهداية في كل طريقٍ يسلكه مرّةً واحدةً ، وهو مع ذلك مَركَبُ الملوك في أسفارها ، وقعيدة الصعاليك في قضاء أوطارها ، مع احتماله للأثقال ، وصبره على طول الأيغار .[٥]

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٨٦-٣٨٧

(٢) مختار الصحاح ، مادة (ب د ن) ص٢٦

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

(٤) سورة الحج آية٣٦٠

(٥) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٥٥-٤٥٦-٤٥٧

ويُضرب المثل بالبغلة في العُقْر ، كما يُضرب بالبغل المثل في شدة الصبر .

٥-البقرة (الثور) :

والبَقَرَةُ : اسم جنس ، والبقرةُ تقع على الذكر والأنثى ، والهاء للإفراد ، والجمع البَقَرَاتُ .[١]

والبقرة حيوان مفيد جدًا للإنسان تُربَّى للبنها ولحمها وجلدها ، وتعتبر ثروة قومية في كثير من البلدان ، ومن أجل ذلك يتنافس المربُّون في تحسين سلالاتها .[٢]

والبَقَرُ : حيوان شديد القوة ، كثير المنفعة ، خلقه الله ذلولاً ، و لم يخلق له سلاحًا شديدًا كما للسباع ، لأنه في رعاية الإنسان ، فالإنسان يدفع عنه عدوه ، فلو كان له سلاح لصعب على الإنسان ضبطه .[٣]

ويضرب المثل بأذناب البقر في الذُّلِّ ، كما يُضرب ببقرة بني إسرائيل في الشيء يأمر به السيِّد فيجنح فيه المسود ، ويسدّ الأمر فيه على نفسه[٤] ، وكذلك يضرب به المثل في الكثرة والوفرة والبركة ، وبه شبه النبي صلى الله عليه وسلم مقدار أجر من اغتسل يوم الجمعة وراح إلى الصلاة في الساعة الثانية .

والثَّوْرُ : الذكر من البقر ، وكنيته أبو عِجْلٍ ؛ والأنثى ثَوْرَةٌ ، والجمع ثِوَرَةٌ وثِيْرانٌ وثِيَرَةٌ ... وسمي الثور ثورًا ، لأنه يُثِيرُ الأرض ، كما سميت البقرة بقرةً ، لأنها تَبْقَرُها .[٥]

ويضرب المثل بالثور في الزهْو (المشي باختيال) ، والبلادة [٦] ، والقوة ، ويشبه به في وفرة الشعر وكثافته ، وفي التشبه به إيحاء بالحث على العمل الصالح والضرب في الأرض إذ عُرِف هذا الحيوان بالقوة والنشاط والشجاعة والبأس .

---

(١) مختار الصحاح مادة (ب ق ر) ص٣٣

(٢) موسوعة الحيوان ج١/ص٥٣

(٣) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٨٦

(٤) موسوعة الحيوان ج١/ص٥٦

(٥) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٥٨٩-٥٩٠

(٦) موسوعة الحيوان ج١/ص٥٦

٦- **البَهِيمَةُ :**

كل ذات أربع (قوائم) من دواب البرِّ والبحر . قاله ابن سيده ؛ والجمع بهائم .

سُمِّيتْ بهيمة لإبهامها من جهة نقص نُطقها وفهمها ، وعدم تمييزها وعقلها ، ومنه : بابٌ مبهمٌ ؛ أي مُغْلقٌ ، وليلٌ بهيمٌ .(١)

وقد شبّه النبي صلى الله عليه وسلم كلَّ مولودٍ يولد في سلامة عقيدته بالبهيمة في سلامة أعضائها ثم يطرأ على العقيدة الانحراف بتربية الوالدين كما يطرأ الجدع والنقص على أعضاء البهيمة ، يقول صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " (٢)

٧- **التَّيسُ :**

الذّكر من المعز والوعل ، والجمع تُيوسٌ وأَتْياسٌ وفي فلان تَيْسِيَّةٌ وناسٌ يقولون تَيْسُوسِيَّةٌ وكيفوفية ولا أدري ما صحتها .(٣)

ويقال للذكر من الظباء أيضًا تيسٌ ؛ ويُقال نبَّ التَّيسُ يَنِبُّ نَبِيبًا : إذا صاح وهاج .(٤)

وقد مَثَّل النبي صلى الله عليه وسلم بالتيس وبصوته حينما أُتي له برجلٍ قد زنى ؛ فردَّهُ مرتين ، ثم أمر به فرُجم فقال : " ألا كلمّا نفرنا غازين في سبيل الله ، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس ، يمنح أحدهم الكثبة ، أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه " .(٥)

٨- **الجَدْيُ :**

الذَّكَرُ من أولاد المعز ، وثلاثة أَجْدٍ ، فإذا كَثُرَتْ فهي الجِداءُ .(٦)

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٥١٧-٥١٨

(١) صحيح البخاري (٢١٧/١٣٥٨)

(٣) مختار الصحاح مادة (ت ي س) ص٤٢

(٤) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٥٤٤

(٥) صحيح مسلم الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، حديث رقم (٤٤٢٤) صفحة ٧١٩

(٦) ينظر : مختار الصحاح ، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، الطبعة الأولى لدار الفكر بيروت عام ١٩٩٧م ، ص٤٩

والجدي من جيّد الأنعام ، وأطيبها لحمًا إذْ هو سريع الانهضام ، ويضرب المثل بالجدي في الخير المؤمّل ، ويُعَبَّر الجدي في المنام بالولد الذكر .

وقد شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا بالجدي الأسك في جانب التحقير حينما مرّ بجدي أسك ميت فقال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " [١]

٩- الحِمَارُ :

الحِمَارُ النَّهَاقُ من ذواتِ الأربع أهْلِيّاً كان أو وَحْشِيّاً والجمعُ أحْمِرَةٌ وحَمِيرٌ وحُمُرٌ وحُمُرَاتٌ جمعُ الجمع عند سيبويه والأنثى حِمارةٌ .[٢] وكنية الحمار أبو صابر ، وأبو زياد .[٣]

قال الزمخشري : الحمار مثل في الذم الشنيع والشتيمة ؛ ومن استيحاشهم لذكر اسمه ، أنهم يكنون عنه ، ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون : الطويل الأذنين ، كما يكنون عن الشيء المستقذر ؛ وقد عُدَّ من مساوئ الآداب ، أن يجري ذكر الحمار في مجلس قومٍ ذوي مروءة .[٤]

والحمار من أغبى الحيوانات وأحقرها ، وصوته من أنكر الأصوات قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[٥]. والحمار يدل على الكدّ والإهانة .

ويُضرب المثل بالحمار في الصحة ، والضراط ، والجهل ، والغيرة ، والذّل ، والصَّبر ، والضلال ، والامتهان ...[٦]

وقد شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم بالحمار في جانب الجهل والذّل والامتهان وذلك في أكثر من حديث سيأتي الحديث عنها وتحليلها في فصل الجانب التصويري إن شاء الله .

---

(١) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)

(٢) المخصص لابن سيده ، الطبعة الأولى لدار إحياء التراث العربي ، تحقيق :خليل إبراهيم جفال ، بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(٣) حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٤٨

(٤) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٢ ص٥٠

(٥) سورة لقمان ، آية رقم ١٩

(٦) موسوعة الحيوان ج١/ص٧٠

١٠- **الخيل :**

جماعة الأفراس وهي من أنفس ما يمتلكه العربي من الحيوانات ولها صلة وثيقة بحياتهم في حربهم وسلمهم وترفهم وفخرهم ، وسمية الخيل خيلاً لاختيالها في المِشْيَةِ ، ويكفي في شرف الخيل أن الله أقسم بها في كتابه ، فقال: ﴿ والعاديات ضبحًا ﴾[١] وفي صحيح البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، قال رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه بأُصبعيه ، وهو يقول : " الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجرُ والغنيمةُ "[٢]. ومعنى عقد الخير بنواصيها أنه ملازم لها ، وكأنه معقود فيها ؛ والمراد بالناصية هنا : الشعر المسترسل على الجبهة ؛ قاله الخطابي وغيره . قالوا : وكنى بالناصية عن جميع ذات الفرس ، كما يُقال : فلان مبارك الناصية ، وميمون الغرّة ؛ أي الذات .[٣]

ويضرب المثل بالخيل في السرعة وبنواصيها في العزِّ ، كما يضرب بها المثل في الجري ، والصبر ، والسمع ، والعدو ، والشَّأو ، والطاعة ، والشدة ، ويضرب المثل بالفرس الأبلق (الذي فيه سواد وبياض) بالشهرة .[٤]

١١- **الشُّجَاعُ (الحيَّةُ) :**

الشُّجَاعُ : بالضَّمِّ والكسر : الحيّة العظيمة ، التي تثب على الفارس والرَّاجل ، وتقوم على ذنبها ، وربما بلغت رأس الفارس ، وتكون في الصحاري .[٥]

ولها أسماء كثيرة منها : الحية ، والأرقم ، والأسود ، والأشجع ، والأفعى ، والأفعوان ، والثُّعبان ، والحَيُّوت ، والشُّجاع ، والحضْب ، وأبو حيَّان ، وأبو عثمان ، وأبو وثّاب ، وأبو يقظان .[٦]

---

(١) سورة العاديات ، آية رقم ١

(٢) السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، الناشر مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الهند ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ ، كتاب الفيء والغنيمة ص٣٢٩

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٢٦٩-٢٧٠

(٤) ينظر : موسوعة الحيوان ج١/ص٩٧

(٥) ينظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٦١٩

(٦) موسوعة الحيوان ج١/ص٧٨

ويُضرب المثل بالحية في الظلم ، والعرْي ، وقوة البصر ، والرِّيّ ، والشَّرَه ، والسمع ، والصَّرد ، والضلال ، وطول العمر ، والرِّجلة (القدرة على المشي) ، كما يُضرب بإطراقها ، ورقيتها ، ورقّة ردائها .(١)

١٢- الشَاةُ :

الشاة : الواحدة من الغنم ، تقع على الذّكر والأنثى من الضأن والمعز . وأصلها شَاهَةٌ ، لأن تصغيرها شُوَيْهَةٌ ؛ والجمع : شِياهٌ بالهاء في أدنى العدد . تقول : ثلاث شِياهٍ إلى العشرة ؛ فإذا جاوزت العشرة فبالتاء ؛ فإذا كَثُرَتْ قلت : هذه شاءٌ كثيرةٌ .(٢)

وهي حيوانات ثديية مجترَّة ، وهي تُربَّى في معظم دول العالم طلبًا لأصوافها ولبنها ولحومها .

ويضرب المثل بمَرْقات الغنم في النَّتن ، كما يضرب المثل بالنعجة في العجلة على الحوض ، وحمقها عليه ، ويضرب المثل بالشاة في سرعة حلبها .(٣)

١٣- الضَّبُّ :

بفتح الضّاد : حيوان برِّيٌّ معروفٌ يشبه الوَرَلَ . وكنيته أبو حِسْلٍ . والجمع ضِبابٌ وأَضُبٌ ، مثل كَفٍّ وأَكفٍّ ؛ والأنثى ضَبَّةٌ .

قالت العرب : " لا أفعله حتى يَرِدَ الضَّبُّ " . لأنّ الضَّبَّ لا يردُ الماء .

وقال عبد القاهر : الضّبُّ دُويبّةٌ على حَدِّ فرخ التمساح الصغير ، وذَنَبُهُ كذنبه ، وهو يتلوّن ألوانًا بحرِّ الشمس كما تتلوّن الحرباء .(٤)

وفي طبعه النسيان وعدم الهداية ؛ وبه يُضرَب المثل في الحيرة . ويوصف بالعقوق لأنه يأكل حُسولَهُ ، فلا ينجو منها إلا ما هرب . ومن طبعه : أنه يرجع في قيئه كالكلب ، ويأكل رجعه ؛ وهو طويل الذَّماء بعد الذبح .(٥)

---

(١) المصدر السابق ج١/ص٨١

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٥٩٢

(٣) ينظر : موسوعة الحيوان ج١/ص١٥٤

(٤) كذلك نقله الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى ، ج٢/ص٧٠٤

(٥) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٧٠٣-٧٠٥

ويضرب المثل بالضب في البله ، وطول العمر ، والعقوق ، والحيرة ، والصبر ، والضلال ، وضيق المَبْعَج ، وذلّ العترة ، وقصر الإبهام ، وكثرة عقد الذنب .(١)

وفي تحذيره صلى الله عليه وسلم لأمته من اتباع الأمم السابقة شبّه رداءة طرق تلك الأمم ، برداءة وضيق جحر الضب حين قال : " لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه ".(٢)

١٤- الفَحْلُ :

الفحل : الذكر من ذي الحافر والظِّلْفِ والخُفِّ وغير ذلك من ذي الرُّوح . وجمعه أَفْحُلٌ وفُحُولٌ وفُحُولَةٌ وفِحالٌ وفَحالةٌ .(٣)

وهو حيوان معروف لدى العامة والخاصة كما أنه كان مضربًا للمثل عندهم ، ومن ذلك قولهم : (ذلك الفحل لا يُقْدَعُ أنفه)... وأصحاب الحديث يروونه : (الفحل لا يُقْرَعُ أنفه) بالراء .(٤)

١٥- - الكَبْشُ :

والكَبْشُ : فحل الضأن ، في أي سِنٍّ كان ؛ وقيل : إذا أثنى ، وقيل : إذا أربع . والجمع : أَكْبُشٌ كِبَاشٌ .(٥)

ويقال : إنَّ الكبش أشرف الدواب بعد ابن آدم ؛ لأنه كان فِدَاءً لإسماعيل عليه السلام .(٦)

وقالوا في المثل : " عِنْدَ النِطّاحِ يَظْهَرُ الكَبْشُ الأَجَمُّ " . وهو الذي لا قرن له . ويضرب لمن غلبه صاحِبُهُ بما أعَدَّ له .(٧)

---

(١) ينظر : موسوعة الحيوان ج١/ص١٢٥

(٢) صحيح البخاري ، حديث رقم (٣٤٥٦) صفحة ٥٨٢

(٣) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ج٣/ص٣٥٣

(٤) انظر : حياة الحيوان الكبرى ، ج٣/ص٣٥٧

(٥) حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٥٥٤

(٦) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٥٦٥

(٧) ينظر : المصدر السابق ج٣/ص٥٦٣-٥٦٤

١٦- الكَلْبُ :

الكلب : كِلَاب وأَكْلُب وجمعه أَكالِب وكِلَابَات : كلُّ سبُع يعضّ . وغلب على الحيوان النابح .[١]

(والكلب : حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء ، وهو لا سَبُعٌ ولا بهيمةٌ ، حتى كأنه من الخَلق المركب ، لأنه لو تمّ له طباع السَّبعية ما ألف الناس ، ولو تمّ له طباع البهيميَّة ما أكل لحم الحيوان ... وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات . والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض ؛ ويأكل العذرة ، ويرجع في قيئه) .[٢]

والكلب مثل في لؤم الأصل ، وخبث الطبع ، وسقوط القدر ، والخسَّة ومهانة نفسه ومع قلَّةِ خيره وكثرة شره واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه واستسفاله .[٣]

١٧- النَّعَمُ :

النَّعَمُ : عند اللغويين : الإبل والشاة ، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ ... والجمع أَنْعامٌ ؛ وجمعُ الجمعِ : أَناعِيْمُ .

وعند الفقهاء : النَّعَمُ يشمل الإبل والبقر والغنم . وقال ابن الأعرابي : النَّعَمُ : الإبل خاصةً ؛ والأنْعامُ : الإبل والبقر والغنم .

وقال ابن الأعرابي : النَّعَمُ : الإبل خاصة ؛ والأنعام : الإبل والبقر والغنم .[٤]

والنعم كثيرة الفائدة ، سهلة الانقياد ، ليس لها شراسة الدواب ، ولا نفرة السباع ؛ ولشدة حاجة الناس إليها ، لم يخلق الله تعالى لها سلاحًا شديدًا ، كأنياب السباع وبراثنها ، وأنياب الحشرات وإبرها ، وجعل من شأنها الثبات والصبر على التعب والجوع والعطش ؛ وخلقها ذلولاً تُقادُ بالأيدي ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[٥] ، وجعل قرنها سلاحًا لتأمن به من الأعداء .

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام ص٦٩٤

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٣/ص٥٨٨- ٥٨٧

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ١٠٢/١

(٤) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٤/ص٨٩

(٥) سورة يس آية رقم ٧٢

ولما كان مأكلها الحشيش ، اقتضت الحكمة الإلهية أن جعل لها أفواهًا واسعةً ، وأسنانًا حِدادًا ، وأضراسًا صِلابًا ، لتطحن بها الحبَّ والنوى .[١]

١٨- الوَحَرَة :

الوحرة : بفتح الواو والحاء والراء : دويبَّةٌ حمراء ، تلزق بالأرض كالعَظاء . والجمع وَحَرٌ . قاله الجوهري . وقال غيره : هي بفتح الحاء وسكونها ، وهي وَزَغَةٌ شبيهةٌ بسامّ أبرص ، تلصق بالأرض ؛ وضربٌ من العَظاء ، لا تطأ طعامًا ولا شرابًا إلا سمَّتهُ ، وهي على شكل سامّ أبرص .[٢]

وقال عنها ابن حجر : هي (دويبة تترامى على الطعام واللحم فتفسده ، وهي من نوع الوزغ).[٣]

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٤/ص٩٠

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٤/ص١٨٤

(٣) ينظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني ، الطبعة السلفية ، (ج٩/صفحة٣٦٣)

ب– مجموعة الطيور :

وأقصد بها ما عُرف أنه طائر وغطّى جسمه الريش ، سواءً كان قادرًا على الطيران كالحمام والعصافير ، أو غير قادر كالنَّعام وبعض أنواع الدجاج .

١– الدجاجة :

الدجاجة واحدة الدجاج ، الذكر والأنثى فيه سواء ، والهاء فيه للوحدة كبطة وحمامة .[١]

قال ابن سيدة : سميت الدجاجة دجاجةً لإقبالها وإدبارها . يقال : دجَّ القوم يدجُّون ، دجًا ودَجِيجًا : إذا مَشَوا مشيًا رُوَيْدًا ، في تقارب خَطْوٍ . وقيل هو أن يُقْبلوا ويدبروا .

وكنية الدجاجة : أم الوليد ، وأم حفصة ، وأم جعفر ، وأم عُقبة ، وأم إحدى وعشرين ، وأم قوب ، وأم نافع . وتوصف الدجاجة بقلة النوم ، وسرعة الانتباه .[٢]

والدجاج مشترك الطبيعة ، يأكل اللحوم والذباب ، وذلك من طباع الجوارح ؛ ويأكل الخبز ، ويلتقط الحب ، وذلك من طباع البهائم والطير .[٣]

ويضرب المثل بالدجاجة في كثرة البيض ، والعطش ، والسَّلْح (التغوّط) . ويضرب المثل بالديك في الزهو (المشي باختيال) ، والشجاعة ، والنّخوة ، والغيرة ، والسخاء ، والخُيلاء ، والحسن ، والنكاح ، وبصفاء عينه ، وببيضته في الشيء يكون مرَّةً واحدة لا ثانية لها .[٤]

٢– الطَّائِرُ :

الطَّائِرُ : واحد الطُّيُور ، والأنثى طَائِرَةٌ ، وهي قليلةٌ ؛ وجمع الطّير : أَطْيَارٌ وطُيُورٌ . والطيران : حركة ذي الجناحين في الهواء بجناحيه .

وهو يُطلق على أيٍّ من طائفة الطيور التي تشمل الفقريات البيوضة ، الثابتة الحرارة ، المتميزة

---

(١) موسوعة الحيوان ج٢/ص٨٠

(٢) حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٣٣٢

(٣) حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٣٣٣

(٤) موسوعة الحيوان ج٢/ص٨٤

باكتسائها الريش كلِّيًا أو جزئيًّا ، وبقوائمها الأمامية التي تحوَّلت إلى أجنحة .

والطيور تطير بمعظمها ، والقدرة على الطيران إنما تأتّت لها بفضل الأجنحة ، وقَصٍّ عريض تتصل به عضلات قوية .

ويُضرب المثل بالطائر في خفَّة الرأس والحسْوة ، كما يُضرب بمخالبه للمكان الذي يقلق فيه ساكنه أو لما لا يرُجى ، وبغنائه في الطِّيب ، وبلبنه في العسرة والامتناع .(١)

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل بأفئدة الطير في الرقة والضعف والخوف والهيبة والتوكل ، ومن ذلك قوله : " يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير " .(٢) قال النووي : قيل : مِثْلُها في رقَّتها وضعفها ، وقيل : في الخوف والهيبة ، لأن الطير أكثر الحيوان خوفًا وفَزَعًا ، وقيل في التوكل .(٣)

٣- العُصْفُورُ:

العُصْفُورُ : بضمِّ العين ؛ وحكى ابن رشيق في كتاب " الغرائب والشذوذ " : عَصْفُور – بالفتح – والأنثى عَصْفُورةٌ ... وكنيته : أبو الصَّعْوُ ، وأبو مُحْرِزٍ ، وأبو مُزاحِمٍ ، وأبو يَعقوب. قال حمزة : سُمِّيَ عُصْفُورًا ، لأنّهُ عَصَى وَفَرَّ .

وهو اسم عام يطلق على مجموعة من الطيور الصغيرة ، منها الحسُّون ، والكنار ، والدوريّ ، وعصفور الشوك ، والحُمَّرة ، والصّرار ، وكل ما هو دون الحمام من الطير قاطبةً .(٤)

وليس في الأرض طائرٌ من سَبُعٍ ولا بهيمة أحنى من العصفور على ولده ، ولا أشدَّ له عشقًا ، وذلك مشاهدٌ عند أخذ فراخها .(٥)

ويُضرب المثل بالعصفور في الحَذَر ، والنَّزْو (النكاح) ، وخفّة الحلم .(٦)

---

(١) ينظر : موسوعة الحيوان ج٢/ص١١٣و١١٩

(٢) صحيح مسلم الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، حديث رقم (٧١٦٢) صفحة ١١٦٦

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص١٧

(٤) موسوعة الحيوان ج٢/ص١٣٤

(٥) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ ص٩٤-٩٥

(٦) ينظر : موسوعة الحيوان ج٢/ص١٣٧

٤- الغُرَابُ :

الغراب : طائر معروفٌ ، وسمي بذلك لسواده ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وغرابيب سود ﴾[(١)] وهما لفظان بمعنىً واحدٍ .

وجمعه : غِرْبَانٌ ، أَغْرِبَةٌ ، وأَغْرُبٌ ، وغرابينُ ، وغُرُبٌ . وكنيته : أبو حاتم ، وأبو جحادب ، وأبو الجَرَاح ، وأبو حَذَرٍ ، وأبو ريدان ، وأبو زاجرٍ ، وأبو الشؤم ، وأبو عَتَابٍ ، وأبو القعقاع ، وأبو المِرْقال .[(٢)]

ويضرب المثل بالغراب في السواد ، والفُسْق ، والغُروب (التنحِّي والبعد) ، واليقظة ، وصحة البدن ، والزهو (الاختيال) ، وصفاء العيش ، وصفاء العين ، والشيء يُتشاءم منه ، والبَصَر ، والحذر ، والبكور ...[(٣)]

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٢٧

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٢٥٨-٢٥٩

(٣) ينظر : موسوعة الحيوان ج٢/ص١٥١

ج- مجموعة الحشرات :

وأقصد بها صِغار دواب الأرض سواءً كانت طائرة كالفراش والبعوض والنحل ، أو غير طائرة كالنمل والذر وغيرها :

١- البعوضة :

البَعُوضُ : دُوَيّبَةٌ . قال الجوهري : إنه البَقُّ ، والواحدَةُ بَعُوضَةٌ . وهو وَهْمٌ ، والحقّ أنه صنفان ، وهو يشبه القُرادَ ، لكنَّ أرجله خفيفة ، ورطوبته ظاهرة ؛ ويسمَّى بالعراق والشام : الجِرْجِسُ. قال الجوهري : هو لغةٌ في القِرْقِسِ ، وهو البعوض الصِّغار .

ومما ألهمه الله تعالى ، أنه إذا جلس على عضو من أعضاء الإنسان ، لا يزال يتوخى بخرطومه المسام التي يخرج منها العرق ، لأنها أرقُّ بشرةٍ من جلد الإنسان ، فإذا وجدها وضع خرطومه فيها .

وفيه من الشره أن يمصَّ الدم إلى أن ينشقَّ ويموت ، أو إلى أن يعجز عن الطيران ، فيكون ذلك سبب هلاكه .[1]

ويضرب المثل بالبعوض فيقال : " أعزُّ من مُخِّ البعوض " . وقالوا : " كلَّفتني مُخَّ البعوض " ؛ يضرب لمن يُكَلَّفُ الأمور الشاقَّة ؛ و" أضعفُ من بعوضة " .[2]

٢- الذّرّة :

الذّرّة : النمل الأحمر الصغير ، واحده : ذَرَّةٌ . قال تعالى : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّةٍ ﴾[3] أي لا يبخس ولا يَنْقُصُ أحدًا من ثواب عمله مثقال ذرّةٍ ، أي وزن ذرّةٍ .

وقيل إن الذّرّةَ ليس لها وزنٌ . ويحكى أن رجلاً وضع خبزًا حتّى علاه الذرُّ ، وستره ، ثمّ وزنه فلم يزد شيئًا .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٢٢-٤٢٣

(٢) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٣٩

(٣) سورة النساء ، آية ٤٠

وقيل : الذّرُّ : أجزاء الهباء في كوَّة ، وكل جزءٍ منه ذرّة ، ولا يكون لها وزن .[١]
ويضرب المثل بالذرة في صغر حجمها وضعف حيلتها وحقارتها .

٣– الفَرَاشُ :

الفراش : دوابٌّ مثل البعوض ، واحدها : فراشةٌ ؛ وهي التي تطير وتتهافت في السِّراج لضعف أبصارها ، فهي بسبب ذلك تطلب ضوء النهار ، فإذا رأت المسكينة السراج بالليل ظنّت أنها في بيت مظلمٍ ، وأن السراج كُوَّة في البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلا تزال تطلب الضوء ، وترمي بنفسها إلى النار ، فإذا جاوزتها ورأت الظلام ، ظنت أنها لم تصب الكوة ، ولم تقصدها على السَّداد ، فتعود مرَّةً بعد مرةٍ حتى تحترق .
قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾[٢] شبههم بالفراش في الكثرة ، والانتشار ، والضعف ، والذلّة ، والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش .
ويضرب المثل بالفراش فقالوا : " أطيش من فراشة " ، و" أضعف ، وأذلُّ ، وأجهل ، وأخفُّ ، وأخطأُ من فراشة " لأنها تُلقي نفسها في النَّار ؛ كما قالوا " أخطأُ وأجهل من ذُبابٍ " . لأنه يُلقي نفسه في الطعام الحار وفيما يُهْلِكُهُ .[٣]

٤– اليَعْسُوبُ :

اسمٌ مشتركٌ ، يقع على طائرٍ نحو الجرادة ، له أربعة أجنحة ، لا يقبضُ له جناحًا أبدًا ، ولا يرى أبدًا يمشي ؛ وإنما يُرى واقفًا على رأس عودٍ ، أو طائرًا .
وقيل : هو طائرٌ أعظم من الجرادة ؛ ولو قيل : إنه النحل لجاز .
وقال الجاحظ : اليعسوب : هي كبار الذباب . انتهى .
واليعسوب : ملك النحل وأميرها ، الذي لا يتمُّ لها رواح ولا إيابٌ ولا عمل ولا مرعىً إلاّ به ،

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٤١٩

(٢) سورة القارعة آية رقم ٤

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٣٦٣ -٣٦٤-٣٦٥

فهي مؤتمرة بأمره ، سامعة له مطيعة ، وله عليها بكلف وأمر ونهي ، وهي منقادة لأمره ، متبعة لرأيه ، يُدَبِّرها كما يُدَبِّرُ الملك أمر رعيته ، حتى إنها إذا آوت إلى بُيُوتها ، وقف على باب البيت ، فلا يَدَعُ واحدة تُزاحم أخرى ، ولا تتقدّم عليها في العُبُور ، بل تعبر بيوتها واحدةً بعد واحدة ، بغير تزاحمٍ ، ولا تصادمٍ ، ولا تراكمٍ ، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى مَعْبَرٍ ضيِّقٍ لا يتجاوزه إلا واحدٌ بعد واحدٍ .

وفي " صحيح مسلم " من حديث النَّوَّاس بن سمعان الطويل : " أنَّ الدَّجَّال تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النَّحل " .[١]أي تظهر له ، وتجتمع عنده كما تجتمع النحل على يعسوبها .[٢]

---

(١) صحيح مسلم (١٢٠١/٧٣٧٣)

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٤/ص٢٤٤-٢٤٧

الفصل الأول

سياقات التشبيه بالحيوان في الصحيحين

١- المبحث الأول : سياق الأمر بالعمل الصالح .

٢- المبحث الثاني : سياق النهي عن العمل السيئ .

٣- المبحث الثالث : سياق البيان والإيضاح والوصف والإخبار .

بما أن دراستي في هذا البحث في البيان النبوي وهدفي الكشف عن بعض بلاغته صلى الله عليه وسلم ، فإنه ثمّة خطوة رئيسة لا يمكن تجاوزها في الوصول إلى هذا الهدف وهذه النتيجة وهي الوقوف على سياقات الأحاديث التي تم جمعها للدراسة ؛ وذلك للمساهمة في بيان هذه القدرة التي أعطيت له صلى الله عليه وسلم في التعبير عن مراده وإيصال أحكام الله إلى الناس على تفاوت مستوياتهم العلمية والفكرية ، ولبيان كيف وظّف النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان في إيصال هذه المعاني التي يرمي إليها من أقصر الطرق وأكثرها تأثيرًا في نفوس المخاطبين .

وذلك لأن دلالة السياق من القرائن المهمة التي تدل على مراد المتكلم ، وإثبات المعنى المقصود دون غيره ، وقد اعتبرها العلماء الأصل الذي يُبنى عليه فهم النص النبوي كما هي الأصل الذي يبني عليه المفسرون فهمهم لكتاب الله .

ودلالة السياق قاعدة جليلة لها تأثيرها في جودة الفهم " فإن السياق طريق إلى بيان المجملات ، وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه ، وفهمُ ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه وهي قاعدة متعيِّنة على الناظر " .[1]

و" السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة . وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته .

فانظر إلى قوله تعالى :﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[2]كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[3]

ودلالة السياق قرينة يُستعان بها على الفهم ، وهذه القرينة تكون تارة ظاهرة تُدرك من غير فكر ورويّة ، وتارة تكون خفيّة لا تدرك إلا بمزيد نظر وتأمل ، وآلتها إشراق العبارة وجمالها في الإفصاح عن المراد لاسيما إذا حوت هذه العبارة صورة بيانية كانت أكثر تأثيرًا في نفس المخاطب ، وأدل على مراد المتكلم .

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، للإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة عام ١٤١٨هـ ، صفحة ٦١٨ -٦١٩

(٢) سورة الدخان ، آية رقم ٤٩

(٣) بدائع الفوائد ، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني وعدنان درويش ، الطبعة الأولى لدار الكتاب العربي بيروت عام ١٤٢٢هـ ، صفحة ٥٤٠

وهذه الدلالة وليدة النظر ، وحسن الذائقة ، فلا يطلب عليها دليل ، "ودلالة السياق لا يقام عليها دليل ، وكذلك لو فهم المقصود من الكلام ، وطولب بالدليل عليه لعسُر . فالناظر يرجع إلى ذوقه ، والمناظر يرجع إلى دينه وإنصافه" [١].

لذلك كله سيكون الفصل الأول من هذه الرسالة مختصًا بدراسة سياقات التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وسأجتهد في الوصول إلى دلالات السياقات في هذه الأحاديث مستفيدًا من أقوال العلماء وشرّاح الصحيحين ، ثم بالنظر والتأمل مستعينًا بذائقتي اللغوية ومعرفتي بدلائل الألفاظ وقواعد اللغة العربية .

ويمكن تقسيم الأحاديث النبوية التي ورد فيها التشبيه بالحيوان في الصحيحين إلى ثلاثة سياقات رئيسة :

أ- سياق الأمر بالعمل الصالح .
ب- سياق النهي عن العمل السيئ .
ج- سياق البيان والإيضاح والوصف والإخبار .

وهذه السياقات الثلاثة حوت كثيرًا من السياقات الفرعية أكثر خصوصية كسياق الأوامر الشرعية (الفروض) وهو ما يسميه علماء الشريعة (فرض العين) ، وسياق السنن والمندوبات ، وسياق المبشرات وهو التبشير بكرامات هذه الأمة ؛ لتكون محفزات للعمل الصالح . هذه هي السياقات الفرعية تحت سياق الأمر والحث على العمل الصالح .

أما سياق النهي والتنفير من العمل السيئ فيمكن تقسيمه إلى سياقين فرعيين هما : سياق النهي والتحريم ، وسياق الكراهية والتحذير .
وسياق البيان والإيضاح يمكن تقسيمه إلى : سياق البيان والإيضاح ، وسياق الوصف ويندرج تحت سياق الوصف سياق الذم والتحقير ، والمدح والتعظيم ، والمبالغة .

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، صفحة ٣٩١

المبحث الأول

سياق الأمر بالعمل الصالح

١- سياق الفرض والوجوب :

حينما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينبّه على أهمية التوحيد بقول : لا إله إلا الله مع تصديق القلب ووجود الخير فيه قال صلى الله عليه وسلم : " ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذرّة من خير " (١) إذا كان معنى الذرة النملة الصغيرة (٢) كما يرى بعض شرّاح الحديث نستطيع أن نقول إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين مقدار المشبه في مدى صغره مع عظيم نفعه حين شبه الخير والإيمان الموجود في القلب بوزن الذرة هذا المقدار الصغير من الإيمان الذي كان سببًا في إخراج صاحبه من النار .

وفي سياق الأمر بالاعتصام بكتاب الله والسنة يحذّر النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع الأمم السابقة وإن كان يؤكد حصول ذلك من بعض المنتسبين لأمته يقول : " لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه " (٣) حيث ختم النبي صلى الله عليه وسلم الحديث عن حرص المقلدين والمتبعين للأمم السابقة ، بتشبه رداءة وضيق طريق تلك الأمم السابقة برداءة وضيق جحر الضب ، ومع ذلك يحرص هؤلاء من أمة محمد على اتباع تلك الأمم ، وإن صعب عليهم ذلك الطريق .

ونلاحظ هنا مناسبة التشبيه للسياق فهو سياق نهي وذم فناسب أن يدعم ذلك السياق بهذه الصورة صورة جحر الضب وما يتصف به من ضيق وتعرجات ؛ لأن أصحاب هذا الطريق (وهم الأمم السابقة) ضلوا عن الطريق السليم صراط الله المستقيم فحرّفوا وبدّلوا في دين الله .

---

(١) صحيح البخاري ، حديث رقم (٤٤) صفحة ١٠

(٢) كما نقل ذلك الإمام ابن حجر في فتح الباري عن بعض العلماء في معنى الذرة ، راجع فتح الباري (ج١/١٢٩)

(٣) صحيح البخاري ، حديث رقم (٣٤٥٦) صفحة ٥٨٢

٢-سياق الحث على السنن والمندوبات :

هذا السياق يختلف عن السياق السابق من حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم يبين فيه أجر المؤدي لهذا العمل ولا يذكر عقاب تاركه كما كان في السياق السابق وهذا هو تعريف السنة أو المندوب في الشريعة (ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه)[١] وفي هذا السياق يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم أروع أساليب البيان معتمدًا في كثير من الأحيان على فن التشبيه ليشحذ همم المنتسبين إلى هذا الدين للمبادرة والحرص على فعل هذه السنن والمواظبة عليها ، ومن تلك الأحاديث :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في سياق الحث على إسباغ الوضوء والمحافظة على الطهارة : " إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل " [٢] حيث جعل علامة أمته التي يعرفهم بها بين الأمم يوم القيامة الغرّ والتحجيل وفي ذلك تشبيه لهم بالخيل الغرّ المحجّلة على طريق الاستعارة ؛ لأن هاتين الصفتين من صفات الخيل .

وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبين الفرس ، ثم استعملت في الجَمال والشهرة وطيب الذكر ، والتحجيل بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس ، والمراد بها هنا والله أعلم النور الكائن في وجوه أمته صلى الله عليه وسلم .

ونلاحظ مناسبة الصورة للسياق فالسياق سياق ترغيب وحث على الوضوء والطهارة فناسب أن يختار له تلك الصورة الجميلة المحفزة صورة الخيل التي يحبها العربي ويعتبرها من أثمن ما يمتلك في هذه الدنيا وكم تغنى بها في شعره ورجزه ، وهذا الخيل خيل مميزة حيث إنها لها غرّة بيضاء ومحجّلة فهي من أجمل الخيل وأثمنها .

وفي سياق الترغيب في قراءة القرآن ومعاهدته ومراجعته حتى لا يتعرض للنسيان أخرج لنا صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في صورة بيانية رائعة كان من شأنها أن تؤثر في نفس السامع وتوصل له المعنى المراد

---

(١) ينظر : شرح الكوكب المنير ، تأليف تقي الدين أبي البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز على الفتوحي المعروف بابن النجار ، تحقيق: محمد الزحيلي ، ونزيه حماد ، الطبعة الثانية لمكتبة العبيكان عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ج١/ص٤٠٢-٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٦) صفحة ٢٩

من أقصر طرقه وذلك بتشبيه سرعة نسيان القرآن وتفلّته من صدور الرجال بسرعة تفلّت الإبل في عقولها. يقول صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها " [١] فكما أن البعير إذا أُهمل شرد وصعُب إمساكه وترويضه ، فكذلك القرآن إذا أهمل المسلم قراءته ومراجعته وجد صعوبة في تذكره وحفظه .

ونلاحظ أن هذا المعنى في الحديث لم يتم التصريح به وإنما جيء به على سبيل التشبيه الضمني ، واختار للتشبه طريقة أفعل التفضيل مبالغةً ، فليس المعنى أن القرآن يتفلّت من صدور الناس كما تتفلت الإبل في عقولها ، بل تفلت القرآن أشد من ذلك وأسرع .

ويختار النبي صلى الله عليه وسلم مشهدًا يدور على أعين الناس باستمرار ليوصل لهم المعنى الذي يقصده ، كما نلاحظ دقة اختياره صلى الله عليه وسلم للصورة حيث اختار الإبل دون غيرها من الدواب ، فلم يختر الفيل مثلاً وهو من أضخم الحيوانات وأشدها بأسًا ؛ لأن الفيل لم يكن متوفرًا بكثرة في البيئة العربية ، ولم يكن للعرب معرفة بطرق ترويضه وتربيته ، ولم يشبه هذا التفصي بتفصي الخيل أو الغنم مثلاً ؛ لأنها أيسر في ترويضها وتربيتها وردها إذا نفرت من حظائرها . وإنما اختار لذلك ما يعرفه العرب وما يدركون صعوبة رده وإمساكه إذا تقصى أوتفلت .

وفي سياق الحث على التبكير في حضور صلاة الجمعة يبين لنا صلى الله عليه وسلم مقدار أجر المبكرين ومن بعدهم بتشبيه أجورهم بحيوانات ثمينة بالنسبة لهم يقول : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " [٢] ، نلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث شبه مقدار أجر المقبلين على هذه الشعيرة العظيمة بمجموعة من الحيوانات من الأعلى إلى الأدنى بحسب تبكيرهم إلى الصلاة ، فالذي راح في الساعة الأولى كان له من الأجر كالذي قدم بدنة ، والبدنة من أعظم وأثمن الأنعام عندهم ، أما الذي جاء في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، والبقرة أقل ثمنًا وقيمة من البدنة ، وكذلك ينقص الأجر بمقدار التأخر عن الصلاة حتى يصل إلى بيضة ، ثم تنصرف

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

الملائكة لتستمع الذكر بعد خروج الإمام ، ونفهم من ذلك أنهم لا يكترثون بمن يأتي بعد حضور الإمام ولا يسجلون له شيئًا من الأجر .

انظر إلى هذا المشهد الذي صوره لنا عليه الصلاة والسلام وقد جاء كل مسلم يسوق ما يتقرب به إلى الله ، فمنهم من جاء ببدنة ومنهم من جاء ببقرة ومنهم من جاء بكبشٍ أقرن . . . وما ذلك إلاّ ليبين لنا قيمة التبكير إلى صلاة الجمعة ، ثم انظر ما لهذا المشهد من أثر عجيب في نفوس المخاطبين من شأنه أن يحفزهم ويعلي همتهم في التنافس والتبكير لأداء هذه الشعيرة .

وفي سياق الترغيب في الصدقة قبل ألاّ يوجد من يقبلها يشبه النبي صلى الله عليه وسلم إخراج الأرض لكنوزها آخر الزمان بتقيؤ البعير حين يقول: " تقيء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا "[(١)] التصوير في هذا الحديث يحمل معاني غزيرة ومتعددة لعلني أستطيع هنا أن أكشف عن بعضها بإيجاز من خلال ربط التشبيه بالسياق ، ويكون تفصيل الصوّر والإسهاب في كشفها في الفصل الخاص بالجانب التصويري إن شاء الله.

لما جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في الصدقة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحث الناس على التعجّل في إخراجها قبل استغناء المحتاجين عنها ، وفي نفس الوقت أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس حقارة هذا المال في آخر الزمان ودناسته ليحرصوا على التخلص منه في وجوه الخير ، كما أراد أن يبين ندامة مقترفي الخطايا والجرائم في سبيل الحصول على المال وجمعه ، كل هذه المعاني جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز ، والهدف كما أوضحت تآزر هذه الصور في ترغيب الناس في الصدقة قبل فوات الأوان .

صوّر النبي صلى الله عليه وسلم صورة الأرض وكأنها بعير أصابته حالة تقيؤ وغثيان فهو يخرج ما في جوفه ، بل وَصَلَ به التقيؤ إلى أن نفد ما في بطنه فتقيأ قطعًا من كبده ولحمه لما نفد الطعام ، والعجيب أن أفلاذ الأرض ليست أكبادًا ولا لحمًا وإنما هي معادن الأرض الثمينة الذهب والفضة تخرج من جوفها بأحجام كبيرة كالأعمدة والسواري ، فيكثر المال وتقلّ رغبة الناس فيه حينها يندم من قتل وقطع وسرق لأجل المال فيقول القاتل : في هذا قَتلتُ ، ويقول القاطع : في هذا قَطعت رحمي ، ويقول السارق : في

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٣٤١) صفحة ٣٩٢

هذا قُطِعَت يدي .ثم يدعونه (أي المال) فلا يأخذوا منه شيئًا . بعد أن كان سببًا في وقوعهم في تلك الجرائم التي ارتكبوها ونفّذت بهم أحكام الله من أجلها . أيّ بشاعة للمال وأيّ ندامة يصورها لنا هذا الحديث ؟! من شأنها أن تنبّه المخاطب لخطورة المال وتحثّه على الصدقة في الوقت نفسه .

وفي سياق الحث على الصدقة ولو بالقليل يقول : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه ، حتى تكون مثل الجبل " [١] انظر إليه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز كيف سخّر التشبيه في خدمة السياق حيث بين فيه قيمة الصدقة من الكسب الطيب مهما قلّ حجمها وقيمتها الحسية بالنسبة للناس في الدنيا حين ساوى حجمها بحجم التمرة ، ثم بين قيمة هذه الصدقة عند الله وكيف أن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها ويكلؤها بالرعاية وينميها حتى تغدو كالجبل يوم القيامة . حينما أرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين اهتمام الله في تربية هذه الصدقة القليلة شبه تربيتها بتربية العربي لُمهره ، والعرب كما هو معروف تُعنى بالخيل عناية كبيرة حتى إنهم ليسقونها اللبن ولا يركبونها في الأسفار ولا في الحروب عند الذهاب ، بل يدّخرونها للمعارك والكر والفر . فحينما ينتقل الخَيَالُ من رؤية هذه الصدقة القليلة وهي التمرة إلى رؤية ما وصلت إليه من النماء حين أصبحت بحجم الجبل يقف المسلم على عظيم فضل الله على المتصدق ويبعثه ذلك على البذل والعطاء دون النظر إلى المقاييس الدنيوية في حجم هذه الصدقة ؛ لأنه يعلم أنه يتعامل مع ربه الرحمن الجواد الكريم . ولما كان السياق سياق حثٍ وترغيب ناسب أن يكون المشبه به مما يحبه الناس ويرغبون فيه ويهتمون به وبتربيته فكان اختياره صلى الله عليه وسلم للمهر مشبهًا به .

وفي سياق الحث على قراءة القرآن وبيان فضل سورتي البقرة وآل عمران يقول : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة وآل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحتجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " [٢] بعد أن أكّد صلى الله عليه وسلم شفاعة القرآن لقارئيه أراد أن يخصّ سورتي البقرة وآل عمران بالفضل والنفع يوم القيامة

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

فشبههما بثلاثة أشياء : كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان وهما متقاربان في المعنى أي كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، ونلاحظ هنا كيف صوّر لنا صلى الله عليه وسلم فائدة هاتين السورتين حينما تصبحان غطاءً لرأس قارئهما يوم القيامة ذلك اليوم الذي يكون الناس فيه في أمس الحاجة للظل حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق قدر ميل وتسّعر جهنم ، ولا شك أن في هذا التشبيه إغراء وتشجيعًا على قراءة القرآن والاهتمام بقراءة تلك السورتين .

وفي سياق الحث على التوبة يرسم لنا صلى الله عليه وسلم صورة رائعة يبين فيها فرح الله بتوبة العبد ويكشف فيها سعة رحمته بعباده حين يقول : " لله أشدّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن ، من رجل في أرض دوّية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشدّ فرحًا بتوتة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده" [(١)] وانظر في هذا الحديث كيف صوّر لنا صلى الله عليه وسلم فرح الله سبحانه وتعالى بتوبة عبده المؤمن حين ساق لنا هذه القصة القصيرة لتشد المستمع لهذا المعنى الجليل وتقرر الفكرة في ذهنه وقلبه ، فكرة الفرح العظيم الذي يصعب وصفه على أرباب الفصاحة والبلاغة كيف لا وقد جمع فيها صلى الله عليه وسلم بين اليأس في أعلى مراتبه في أولها ، ثم ختمها بأعلى درجات الفرح والسرور ؟ فالعبد المؤمن حينما يتذكر ذنوبه وسيئاته وتقصيره في جنب الله وهو يعلم أن ذلك لم يغب عن علمه سبحانه وتعالى ، ويتذكر عظمة من عصاه وقدرته عليه يشعر بالألم واليأس من توبة الله ومغفرته ، فإذا سمع هذا الحديث في شأن فرح الله بتوبة العبد وتقرير هذا المعنى في ذهنه بهذه الصورة البديعة ، عاد إليه أمله وعظم رجاؤه بمغفرة الله ، فالراحلة في الحديث - وهي مقصد دراستنا - تمثل الحياة بالنسبة لبطل القصة (الرجل) ، لاسيما وقد حمل عليها زاده من طعامٍ وشرابٍ ، وهنا نلاحظ كيف سخّر النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان في خدمة المعنى المسوق له الكلام ، واختار الراحلة لأنها أغلى ما يملك الإنسان في ذلك الوقت وهي الناقة النجيبة المختارة التي تتحمل مشاقّ السفر والركوب ، فكيف إذا كان في أرض فلاة وعليها طعامه وشرابه ؟! كل ذلك ليبين لنا صلى الله عليه وسلم قيمة هذه الراحلة بالنسبة للرجل في ذلك المأزق وفرحه بوجودها بعد فقدها ، وبذلك تتضح قيمة التوبة بالنسبة لله سبحانه وفرحه بها ، وكأنه

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٦٩٥٥) صفحة ١١٢٦

فقدها من العبد لما عصى وأذنب ففرح بها لما عادت إليه .

وفي سياق الأمر وإرادة الاستحباب يكشف لنا صلى الله عليه وسلم مدى حرصه ورحمته بالأمة حين يقول : " لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر ، وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد "[١] حيث أمر في آخر الحديث بالفرار من المجذوم وشبه ذلك الفرار بالفرار من الأسد مبالغةً في الحرص على التخلّص من هذا المرض ورغبة في النجاة منه ، وسواء كان الجذام مرضًا معديًا أو لا فإن الأمر في الحديث للوجوب والشفقة وهو يدل على رحمته صلى الله عليه وسلم لأنه كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأي وجه كان ، ويدلهم على كل ما فيه خير ، وبهذا التشبيه عبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظيم خوفه على أمته من الأوبئة والأمراض ، فما أعظم هذا النبي الذي يخشى على أمته من عذابي الدنيا والآخرة ! واختار الأسد في هذا التشبيه ؛ لأن الأسد من أعظم الحيوانات قوةً وبطشًا ولذلك هابه الناس والحيوانات فكان مناسبًا أن يشبه الفرار من المجذوم بالفرار من الأسد .

٣-سياق المبشرات :

فيه يعرض النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة - ويخصّ بعض أفرادها أحيانًا - ما يحفّزهم على العمل الصالح أو ما يعينهم على تحمل مشقة الدنيا ، وما يزهدهم عن مفاتنها الفانية ومن ذلك :

في سياق حديثه صلى الله عليه وسلم عن الآخرة وعن بعث النار الذي يأمر الله عز وجل به آدم أن يخرجه يستفسر آدمُ قائلاً : وما بعث النار ؟ فيجيبه الربّ سبحانه بقوله : " من كل ألف تسع مئة وتسع وتسعين " وفي هذا الموقف العصيب يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، يسأل الصحابة رضوان الله عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن سمعوا ذلك منه : وأينا ذلك الواحد ؟! فتأتيهم البشرى مصدّرة بقوله صلى الله عليه وسلم : " أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف " ، ثم تتدّرج البشريات متصاعدة برجائه صلى الله عليه وسلم بأن تكون أمته ربع أهل الجنة ، ثم ثلث أهل الجنة ، ثم يقول : " أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة " فأخذ الصحابة

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٧٠٧) صفحة ١٠٠٩

رضوان الله عليهم يكبرون فرحًا بهذه البشرى ، ثم يأتي البيان النبوي لِيُردِفَ تلك البشرى بالتمثيل ليوضح المعنى ولتزداد النفوس المؤمنة بهجةً وفرحًا حين قال : " ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود " [(١)] انظر ما في هذا التمثيل لنسبة المسلمين مقارنة بغيرهم من أهل الموقف كيف كشف فيه صلى الله عليه وسلم بطريقة محسوسة قلّة المسلمين إضافة إلى ظهورهم وتميزهم وسط الأمم ، فهم كرام والكرام قليل ، شعرة مغايرة لبقية الشعر اتفقت مع غيرها في الشكل واختلفت في اللون والمضمون ، فالمسلمون وإن كانوا مشابهين لبقية الأمم في البشرية فهم في المكانة والكرامة عند الله مميزون . تمثيل خَدَمَ السياق في تقريب البشرى والطمأنينة من قلوب المسلمين وإيحاء بالحث على العمل الصالح . وربما يكون اختار الثور دون بقية الحيوانات لكثرة شعره وكثافة فروه .

وفي موقف آخر من مواقف الآخرة التي هي محطّ أنظار المؤمنين وغاية رغبتهم يوظّف النبي صلى الله عليه وسلم فن التشبيه في سياق التبشير وذلك حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار حينئذٍ يُجاء بالموت كهيئة كبش أملح ليُذبح بين الجنة والنار بعد أن يسأل الله الفريقين عنه وعن معرفتهم به وقد رأوه من قبل فيعرفونه وذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾[(٢)] - وهؤلاء في غفلةٍ أهل الدنيا ، - وهم لا يؤمنون " [(٣)]

وهذا الذبح للموت الذي مُثّل لهم بصورة الكبش هو بشرى بالنسبة لأهل الجنة ؛ لأنه يمثل معنى خلودهم في الجنة ، وهو في الوقت نفسه حسرة وندامة لأهل النار ؛ لأنه يمثل معنى الخلود في عذاب جهنم أعاذنا الله منها !!

والموت كما هو معلوم أمر معنوي نؤمن به ولا نراه بمعنى أننا لا نحسُّ به أو نتنبأ بوقوعه ، فليس هو من

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٤٨) صفحة ٥٥٨

(٢) سورة مريم ، آية رقم ٣٩

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٣٠) صفحة ٨٢٣

المخلوقات المحسوسة ؛ لذلك والله أعلم أتي به على صورة محسوسة في ذلك اليوم فإذا ذبح اطمأنت قلوب المؤمنين واكتملت سعادتهم إذْ لا منغّص بعد ذلك اليوم يقطع عليهم بهجتهم ولذتهم بما أعد الله لهم في الجنة ، والفائدة من الإتيان بالموت على هذه الصورة صورة الكبش دون غيره إيحاءً بضعفه وسهولة ذبحه والله أعلم .

وفي سياق التبشير أيضًا يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين رؤية الحق سبحانه ، كما يبشرهم بسرعة مرورهم على الصراط بحسب أعمالهم في الدنيا . " . . . قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلّة ، فيه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسك ، تكون بنجد ، فيها شويكة ، يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب فناج مسلّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم . . . " [(١)] في هذا الحديث يشبه النبي صلى الله عليه وسلم سرعة مرور أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة على الصراط بسرعة طرف العين والبرق والريح والطير وأجاويد الخيل ، وكل هذه المشبهات بها أمور يعرفها الناس كما يعرفون مقدار سرعتها وبالتالي يكون هذا التشبيه محفّزًا لهم على المبادرة والإكثار من الأعمال الصالحة ؛ لتكون سببًا في زيادة سرعتهم على الصراط يوم القيامة ، وليتخلصوا — بإذن الله ورحمته — من الوقوع في نار جهنم ، واختار عليه الصلاة والسلام من الحيوانات الطير وأجاويد الخيل ؛ لِما عُرِفت به من السرعة الفائقة في ذلك الوقت ، لكنّها في الوقت نفسه تعتبر بطيئة إذا ما قِيست بسرعة ما ذُكر قبلها في الحديث من (طرف العين ، والبرق ، والريح) . وهنا نشعر بقيمة التشبيه في خدمة سياق التبشير والحث في الحديث النبوي .

وفي سياق وصف الجنة ونعيم أهلها يشبّه النبي صلى الله عليه وسلم قلوب أهل الإيمان الذين يخافون الله بقلوب الطير حيث يقول : " يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير " [(٢)] لما كانت الطيور من أكثر المخلوقات خوفًا وفزعًا شبه النبي صلى الله عليه وسلم قلوب المؤمنين الذين يدخلون الجنة بقلوب الطير ؛ وفي ذلك بيان لسبب دخولهم الجنة . فهم قوم خافوا عقاب الله في الدنيا فاتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ورحموا الناس والدواب في تعاملهم معهم في الدنيا فكان هذا جزاؤهم دخول الجنة ، ويؤكد ذلك قوله

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٥٤) صفحة ٩٧

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٧١٦٢) صفحة ١١٦٦

صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَضَعَّفٍ لو أقسم على الله لأبرَّه ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل جوَّاظٍ زَنيمٍ مستكبِّرٍ " .[١]

وربما يكون المراد بهذا التشبيه – والله أعلم – حالهم في الجنة بعد أن نُزِعَ من قلوبهم الغل والحسد ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[٢] فتهنأ حياتهم وتصفو ، وتنعدم المشاحنات التي كانت بينهم في الدنيا ، وذلك لعمري من تمام النعيم .

---

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٧١٨٩) صفحة ١١٧٠

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٧

المبحث الثاني

سياق النهي والتنفير من العمل السيئ

١- سياق النهي والتحريم :

في هذا السياق يدعم النبي صلى الله عليه وسلم المعنى المراد وهو التحريم بأبشع الصور ؛ ليزيد الناس كراهية له ، ولتتقزز النفوس السليمة منه فتترجر عنه وترتدع عن الوقوع فيه ومن ذلك :

في سياق تحريم الكبر والعجب وبيان عاقبته ينفي النبي صلى الله عليه وسلم دخول المتكبر الجنة ، ولو كان في قلبه مثقال ذرة من هذا الكبر ، وذلك في قوله : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كبرٍ " ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً ، قال : " إن الله جميلٌ يحب الجمال ، الكبر بطر الحقِّ ، وغَمْطُ الناس " .[1]

حيث شبه صلى الله عليه وسلم مقدار الكبر في القلب بمثقال الذرّة ؛ لبيان قلّته ، ومع ذلك كان هذا المقدار اليسير منه مانعًا لصاحبه من دخول الجنة ، وقيل إن المراد بالذّرّة : أصغر النمل ، وقيل : رأس نملة حمراء ، وقيل : اليسيرة من التراب ، وقيل : الخردلة . والمقصود بالكبر في الحديث رفض الحق وردَّه والتعالي على الناس واحتقارهم ، وليس التزيّن وإظهار الجمال من الكبر كما يظن بعض الناس وهذا ما دلّت عليه إجابة النبي صلى الله عليه سلم على الرجل الذي قال : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا أو نعله حسنة . والغرض من الوعيد هنا بنفي دخول المتكبر الجنة هو التنفير من هذه الصفة .

في سياق صفة الصلاة ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بسط اليدين في السجود ؛ لأن ذلك يشعر بالتهاون في الصلاة وقلة الاعتناء بها لذلك شبه من يبسط يديه في السجود بالكلب حيث يقول :
" اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [2] لما كان هذا الحديث في سياق النهي اختار صلى الله عليه وسلم صورة قبيحة ليشبه بها فاعل هذا الانبساط ، والكلب حيوان يضرب به المثل (في لؤم الأصل ، وخبث الطبع ، وسقوط القدر ، والخسّة ، ومهانة النفس) [3] فلما كانت صورة باسط اليدين في السجود تشبه صورة الكلب حين يبسط يديه اختارها النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٦٥) صفحة ٦١

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

(٣) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ ج١، ص ١٠٢

؛ لتبين الهيئة المنهي عنها في السجود ، ولينفّر السامع من السجود على هذه الهيأة المحرّمة في الوقت نفسه ، وهنا تتضح قيمة التشبيه في هذا السياق .

وفي سياق صفة الصلاة أيضًا ينهى النبي صلى الله عليه سلم عن رفع رأس المأموم قبل الإمام ، حتى رأى بعض الأئمة بطلان صلاة المأموم في هذه الحالة كابن عمر وذلك ما نقله ابن حجر (١)
ونص الحديث " أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ؟ أو يجعل الله صورته صورة حمار ؟ " .(٢)
جعل الله الإمام ليؤتمّ به في الصلاة يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا وإن صلى قائما فصلوا قيامًا " (٣) ، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن مخالفة الإمام في الصلاة والحديث الأول جاء ليؤكد هذا المعنى حينما شبه صلى الله عليه وسلم رأس من يرفع قبل الإمام برأس الحمار ، أو بصورة الحمار ، وفي هذا تقبيح لصورة مرتكب هذه المخالفة تنفر منها نفس المؤمن ؛ لأن المؤمن عزيز لا يرضى أن يهان أو يشبه بصور الحيوان القبيح الموصوف بالجهل والبلادة والغباوة ، وهنا تتناسب صورة المشبه به القبيحة بصورة التصرف القبيح ، ويخدم فن التشبيه سياق النهي والتنفير .

وفي سياق الحدود والديات ينهى النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب الاستفهام الإنكاري أن يعضّ أحدٌ أصبع أخيه وذلك في قصة يعلى بن منية لما قاتل رجلاً ، فعض أحدهما أصبع صاحبه ، فانتزع يده من فمه ، فترع ثنيّته ، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أردت أن تقضمه كما يقضم الفحل ؟ " (٤) ، وفي رواية أخرى " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له " (٥) .

---

(١) فتح الباري ، كتاب الأذان – باب من رفع رأسه قبل الإمام ج ٢ صفحة ٢١٥
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩١) صفحة ١١٣
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٣٧٨) صفحة ٦٧
(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧١) صفحة ٧١٠
(٥) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

لما كان هذا التصرف الشائن من عضّ أحد المتخاصمين أصبع أخيه أهدر النبي صلى الله عليه وسلم ديته ، و لم يجعل له قصاصًا ، بل وبّخه كما في رواية أخرى حين قال : " ما تأمرني ؟ تأمرني أن آمره أن يدع يده في فيك تقضمها ، كما يقضم الفحل ؟ ادفع يدك حتى يعضها ، ثم انتزعها " [١] ، كما استخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان ؛ ليزيد في تشويه صورة فاعل هذا الفعل ، ليترجر عنه غيره حين شبه قضمه بقضم الفحل ، واختار صلى الله عليه وسلم الفحل مشبهًا به لما عُرف عنه من القوة والجرأة ، قال العسكري : ومن الأمثال المستحسنة قولهم : (ذلك الفحل لا يُقْدَعُ أنفه) . . . وأصحاب الحديث يروونه : (الفحل لا يُقْرَعُ أنفه) بالراء [٢]. وانظر بلاغته عليه الصلاة والسلام حين اختار كلمة القضم وهو العضّ بأطراف الأسنان ؛ ليتناسب مع فعل العاضّ والمشبه به .

وفي سياق تحريم الزنا وتحقير فاعله يقول : " ألا كلمّا نفرنا غازين في سبيل الله ، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس ، يمنح أحدهم الكثبة ، أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه " [٣] ، حرّم الله الزنا وجعله من كبائر الذنوب لما فيه من أضرار على الفرد والمجتمع ؛ فهو سبب في انتشار الأمراض واختلاط الأنساب ، لذلك حذّر سبحانه وتعالى من كل شيء يمكن أن يوصل إليه فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [٤] وجاء هذا الحديث ليذمّ ويحقّر فاعله حين شبه صلى الله عليه وسلم صوت الزاني بصوت التيس عند السِّفاد ، وهذا التشبيه يتناسب مع سياق النهي والتنفير من هذا الفعل والوعيد لفاعله .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧٠) صفحة ٧٠٩

(٢) حياة الحيوان الكبرى ، ج٣/ ص٣٥٧

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٤٢٤) صفحة ٧١٩

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٣٢

وفي سياق الحديث عن الهبة والهدية ينهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجوع فيها بعد قبضها [١] ويصوّر العائد في هبته بصورة غاية في القبح والبشاعة لتنفر النفوس المؤمنة منه حين يقول : " العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه " [٢] ، وفي رواية أخرى يقول : " إنما مثل الذي يتصدق بصدقة ثم يعود في صدقته ، كمثل الكلب يقيء ثم يأكل قيأه " [٣] ، لمّا كان الرجوع في الهبة والصدقة فيه ما فيه من الخسّة ودناءة النفس شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم فاعله بالكلب ، وهذا الكلب له صورة مخصوصة كلب يقيئ ثم يعود في قيئه فيأكله ، يالها من صورة مقيتة مقززة !! تنفر منها النفوس السليمة ؛ لذلك جاء في رواية أخرى للحديث " ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه " [٤] ، حيث نفى صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن أمته صفات السوء والخسّة حين قال : (ليس لنا مثل السوء) ، ونلاحظ في هذا التشبيه دقة اختياره صلى الله عليه وسلم للمشبه به وهو الكلب قال الدميري عن الكلب : (وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات . والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض ؛ ويأكل العذرة ، ويرجع في قيئه) .[٥]

وفي سياق النهي والتحذير من منع الزكاة يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم عذاب مانع الزكاة وشدة ندامته وحسرته يوم القيامة في قوله : " ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بقاع قرقر ، تستن عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقر لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع

---

(١) في حكم الرجوع في الهبة خلاف بين العلماء بين الكراهية والتحريم والذي يظهر لي من خلال قراءتي في فتح الباري لابن حجر وشرح النووي على صحيح مسلم : تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض إلا ما وهبه لولده وإن سفل ، وكراهية شراء الإنسان ما تصدق به ممن دفعه إليه كما في حديث عمر حين أراد أن يشتري الفرس الذي تصدق به فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :
(لا تشتريه . وإن أُعطيته بدرهم . فإن العائد في صدقته ،كمثل الكلب يعود في قيئه) وقد علق عليه النووي بقوله : هذا نهي تنزيه لا تحريم . انتهى كلامه . راجع – صحيح مسلم بشرح النووي ، الطبعة الأولى لمؤسسة قرطبة ١٤١٢هـ ، مجلد ١١-١٢ كتاب الهبات صفحة ٨٩ – ٩٢

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٢٥٨٧) صفحة ٤١٨

(٣) صحيح مسلم (٤١٧٣/٦٧٦)

(٤) صحيح البخاري (٢٦٢٢/٤٢٤)

(٥) حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٣/ص٥٨٨

قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه ، إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع . يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه . سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل " [(١)] ، اشتمل هذا الحديث على صورتين تبين عذاب مانع الزكاة وحسرته يوم القيامة ، الصورة الأولى شبه فيها النبي صلى الله عليه وسلم الكنز وهو المال الذي يخبئه الإنسان ، ولا يؤدي زكاته بالشجاع الأقرع وهو الحية الذكر الذي تمعط شعر رأسه لجمعه السمّ فيه ، والصورة الثانية شبه صلى الله عليه وسلم صورة ندم مانع الزكاة وعضّه ليده بعضّ الفحل ، وكلتا الصورتين تهدف إلى بيان وجوب الزكاة والتخويف من منعها وبيان العقاب الذي أعده الله لتارك هذه الفريضة العظيمة التي قرنها الله في كثير من آي القرآن بالصلاة ، ولا شك أن هاتين الصورتين لعقاب مانع الزكاة قد أدّتا الغاية المنشودة في هذا السياق . كما نلاحظ حسن اختياره صلى الله عليه وسلم لهذين الحيوانيين ، فالمال الذي كان يجمعه مانع الزكاة في الدنيا ويحافظ عليه ويحميه – حتى من إخراج الزكاة – تحول إلى ثعبان مليء بالسم الزعاف عظيم الخطر ، فأصبح صاحبه يفرّ منه ويبتعد عنه بعد أن كان يقربه ويهتم به ؛ وذلك لما تبين له خطره وعظيم آفته . فلما كان المال الذي لا تُخْرَج زكاته خطير على صاحبه اختار له هذا الحيوان الخطير ، ولما أراد أن يعبّر عن عظمة ندامة مانع الزكاة اختار عضّ الفحل لقوة عضه وأثره .

وفي سياق النهي أيضًا ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإشارة باليد في الصلاة ورفعها عند السلام فيقول : " ما لي أراكم رافعي أيديكم ، كأنها أذناب خيل شُمس ؟ اسكنوا في الصلاة " [(٢)] ، وفي رواية أخرى للحديث يقول : " علام تومئون بأيديكم كأنها أذناب خيل شمس ؟ إنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه ، ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله " [(٣)] ، في هذا الحديث ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كثرة الحركة في الصلاة وتحريك اليدين عند السلام ، فشبه هذه المخالفة وهي تحريك اليدين عند التسليم في الصلاة بأذناب الخيل الشُمس ، وشَمَسَ شُمُوسًا وشِمَاسًا : امتنع وأبى ، وشمس الفرس :

---

(١) صحيح مسلم (٣٨٤/٢٢٩٦)

(٢) صحيح مسلم (١٨١/٩٦٨)

(٣) صحيح مسلم (١٨٢/٩٧٠)

كان لا يُمكِّن أحدًا من ركوبه أو إسراجه ولا يكاد يستقرّ [١] ، فوجه الشبه الاضطراب والتحرك وعدم الاستقرار المخل بالخشوع . وهنا نلاحظ مناسبة المشبه للمشبه به وكيف أن التشبيه خدم السياق الذي جاء فيه وهو سياق النهي فشبهت مخالفة المصلين بما هو مستقبح من صفات الخيل ؛ لينفر من فعلها المصلون .

وفي سياق النهي وتحريم الغلول من الغنيمة ، وتفضيل هذه الأمة على غيرها بإباحة الغنيمة ، وفرض الخمس لرسول الله يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم فن القصة وأخبار الأمم السابقة ؛ لبيان حكم هذا الفعل ، كما يستخدم فن التشبيه ليؤكد تحريم الغلول مهما كان مقداره وذلك في قوله : " غزا نبي من الأنبياء ، فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبني بها ولّما يبن بها ، ولا أحد بني بيوتا ولم يرفع سقوفها ، ولا أحد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر ولادها ، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم ، فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها فقال : إن فيكم غُلُولاً ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فلزقت يد رجل بيده فقال : فيكم الغلول ، فلتبايعني قبيلتك ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده ، فقال : فيكم الغلول ، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ، ثم أحل الله لنا الغنائم ، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا " [٢] ، في هذا الحديث شبه صلى الله عليه وسلم ما غلّه الرجلان أو الثلاثة من الغنيمة (والغلول السرقة من الغنيمة) برأس البقرة ، وهذا التشبيه يبين لنا مقدار الغلول الذي سرقه هؤلاء ،كما يشعرنا من طرفٍ خفي بقبح الفعل الذي ارتكبوه ، وقد دعم النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى (قبح الغلول وتحريمه) بأكثر من عبارة سبقت التشبيه منها قوله : (فجاءت - يعني النار - فلم تطعمها) وهذا دلالة على عدم قبول غزوهم ، (فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده ، فقال : فيكم الغلول) تشعر هذه الجملة بخطيئة هؤلاء ، كما أن فيها فضيحة لهم وكشفًا لما أسروه عن نبيهم وعن الناس . وبهذا نلاحظ كيف سخّر النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان في خدمة السياق الذي يتحدث فيه .

---

(١) راجع المنجد في اللغة والأعلام صفحة ٤٠١ مادة "شمس"

(٢) صحيح البخاري (٣١٢٤/٥١٧)

وفي سياق بيان عاقبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويقع فيه يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة من يصنع هذا الصنيع في الآخرة بصورة بشعة تبين بشاعة صنيعهم في الدنيا حين يقول: " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " [1] ، هذا الحديث تصوير وتفسير للمقت الذي ورد في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[2] فالحديث يصور لنا مشهدًا بشعًا لذلك الرجل حين يؤتى به يوم القيامة فيلقى في النار فإذا ألقي فيها خرجت أمعاؤه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، واختياره صلى الله عليه وسلم للحمار من بين أنواع الحيوان يتناسب مع تحقير هذا الرجل ؛ فالحمار مثل في البلادة والغفلة والغباوة وفيه معنى الإهانة ، كما أن في خروج أمعائه إيحاء بفساد داخله ومخالفته لظاهره ، كل هذا يتناسب مع الهدف من هذه الصورة وهو التنفير من هذا العمل المقيت ، والدلالة على تحريمه والكشف عن عذاب فاعله . وهذه الصورة غنية بالمعاني للمتأمل سأحاول الكشف عنها في الجانب التصويري إن شاء الله تعالى .

وفي سياق النهي أيضًا ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ضرب الرجل لامرأته ضربًا مبرحًا حين شبه ذلك الضرب بضرب الفحل حيث قال : " بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ، ثم لعله يعانقها " [3]
ونلاحظ حسن اختياره صلى الله عليه وسلم لصورة المشبه به حين شبه هذا الضرب بضرب الفحل ؛
ليبين قوة الضرب وعدم مبالاة الزوج الضارب بالشعور البدني للزوجة المضروبة ولا بالشعور النفسي لها حين يعانقها آخر النهار بعد أن ضربها وأهانها في أوله ، وكأنه يتعامل مع دابة من أكثر الدواب تحملاً للمشقة والصبر على الضرب ، وهي في الوقت نفسه لا تملك شعورًا نفسيًا ولا فهمًا لنفسيات من حولها كما يفهم الإنسان .

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٦٧/٥٤٤)

(٢) سورة الصف الآيتان ٢-٣

(٣) صحيح البخاري (٦٠٤٢/١٠٥٥)

٢- سياق الكراهية والتحذير والإنكار :

ومن أمثلة هذا السياق تحذّير النبي صلى الله عليه وسلم من زهرة الدنيا والتنافس فيها فيقول : " إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض " . قيل وما بركات الأرض ؟ قال " زهرة الدنيا " . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه و سلم حتى ظننت أنه يُنْزَل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : " أين السائل؟ " قال أنا ، قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك ، قال : " لا يأتي الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع " [(١)]

في الحديث مجموعة من الصور والتشبيهات تحدث عنها العلماء ، لكنني سأقصر الكلام عن التشبيه بالحيوان الوارد في الحديث .

قال صلى الله عليه وسلم : " وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر . . . " المناسبة واضحة بين موضوع الحديث والتمثيل الوارد فيه ، يقول العسكري معلقًا على الحديث : (وأول من تكلم به - النبي صلى الله عليه وسلم - وهذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفصحه لفظًا وألطفه معنًى ، وهو مثل ضربه لمن أُعطي من الدنيا حظًا ، فألهاه الانشغال به ، والاستكثار منه والحرص عليه ، عن صلاح دينه ، فيكون فيه هلاكه ، كما أن الماشية إذا لم تقتصر في مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت) [(٢)] فشبّه النبي صلى الله عليه وسلم المفرط الذي يجمع المال دون تثبت من مصادره أمنْ حلال أم من حرام ؟ ولا يؤدي حق الله فيه بالدابة التي لقيت الربيع (أفضل النبات) فاستكثرت منه وأكلت منه دون تنظيم حتى تجاوزت حد الاحتمال لما تأكله فانتفخت بطنها وانشقت أمعاؤها فهلكت ، هذا هو المثل الأول .

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٢٧/١١١٥)

(٢) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، طبع المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٩٦٤م /١/ص١٦ .

وأما المثل الثاني فهو قوله : " إلاّ آكلة الخضر . . . " فهو مثل لمن جمع مالاً من حلال ، وأدّى حق الله فيه من زكاة وصدقات وأعمال برّ فهو مثل الدابة التي تأكل الخضر (وهو ليس من أحرار النبات ، بل من النباتات التي تم يبسها والماشية لا تستكثر منه فلا تحبط) ، ومع ذلك يظهر حرصها في أنها إذا شبعت استقبلت الشمس فثلطت ما يؤذيها . . . ، فهذا حال من يجمع المال من طرق الحلال ويبتعد عن الشبهات ، ومع ذلك هو حريص يؤدي حق الله في هذا المال من زكاة وصدقة ، فهو ناجٍ من الهلاك في الآخرة بإذن الله كما نجت آكلة الخضر من الهلاك في الدنيا .

وفي سياق التحذير والشفقة على الأمة من المعاصي والفتن يقول : " إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَتزَعُهُنَّ ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها "[1] المتأمل لهذا التشبيه يرى أنه صورة فنيّة رائعة اعتمد فيها النبي صلى الله عليه وسلم على التشبيه بمشهد يراه الناس كل مساء لتتضح الفكرة وينجلي الغبار عنها ، حيث يريد الرسول أن يكشف لهم حرصه عليهم ودعوهم إلى الحق وهم يتفلّتون منه ، ونلاحظ أن هذه الفكرة منتزعة من أشياء متعددة لذلك عبّر عنها صلى الله عليه وسلم بالتشبيه التمثيلي ، وقد أحسن صلى الله عليه وسلم اختيار الصورة حيث اختار

(مشهدًا متكررًا في حياة القوم يرونه كل مساء ، وهو في عمقه فاق حد التصوير ، فالمعاصي ، والشرك ، ومخالفة أمر الله نار محرقة ، والمقبلون عليها فراش لا عقول لهم وجنادب لا تعي ، والرسول العظيم صلى الله عليه وسلم يدفع الناس ويشدّهم عن الوقوع في الهلاك وهم ماضون في تقحّم النار والوقوع فيها)[2] ، ونلاحظ اختيار الفراش والجنادب للعصاة المعرضين وما في هذه العناصر من الدلالة على الضعف والوهن وسرعة السقوط وعدم التحمّل وصعوبة الرّد ... وفي لفظ الفراش إيحاءات في كلام العرب ، فهم يتمثلون بها في الحمق والخفة فيقال : (أطيش من فراشة)[3]، (وأجهل من فراشة) .[4]

---

(١) صحيح البخاري (١١٢٤/٦٤٨٣)

(٢) الحديث النبوي مصطلحة وبلاغته وكتبه ، محمد لطفي الصباغ ، الطبعة الثامنة ١٤٢٤هـ ، المكتب الإسلامي بيروت .

(٣) مجمع الأمثال أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، الطبعة الرابعة ١٣٧٤هـ ، ج١ ص٤٣٨ .

(٤) المصدر السابق ج١ ص٤٢٧ .

وفي سياق التحذير من الغدر يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بست علامات من علامات الساعة حين يقول : " اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " [١]

نلاحظ في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بست علامات تنذر بقيام الساعة ، ذكر منها موتين وشبه أخذهما في الناس بقعاص الغنم (بضم العين المهملة وتخفيف القاف وآخره مهملة ، وهو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة . قال أبو عبيدة : ومنه أخذ الإقعاص وهو القتل مكانه . وقال ابن فارس : العقاص داء يأخذ في الصدر كأنه يكسر العنق . ويقال إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس) [٢] ، ومما سبق يتضح أن المقصود من تشبيهه صلى الله عليه وسلم للموتين بقعاص الغنم فجأة الموت وكثرته ، والمشبه به هنا مناسب من حيث بيان حال المشبه ومن حيث السياق الذي ورد فيه وهو التنفير من الغدر وفساد حال الدنيا آخر الزمان .

وفي سياق كراهية إدعاء العلم وعدم نسبته إلى الله يعاتب الله موسى عليه السلام في الحديث الطويل مستخدمًا التشبيه في بيان ضآلة العلم البشري قياسًا بعلم الله سبحانه ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[٣] حيث يقول صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث : " . . . فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر : يا موسى ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . . . " [٤] في هذه الجزئية من الحديث يبين عليه الصلاة والسلام سعة علم الله ، فقد شبه عليه الصلاة والسلام علم الخضر وعلم موسى – عليهما السلام – بجانب علم الله – سبحانه – بما أخذه العصفور من ماء البحر ، فعلم موسى والخضر مثل ما علق في منقار

---

(١) صحيح البخاري (٥٢٩/٣١٧٦)

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٦ / ص٣١٧٦

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٨٥

(٤) صحيح البخاري (٥٧٠/٣٤٠١)

العصفور وعلم الله بقية البحر .

وفي سياق التحذير من الرجوع عن أمر الدين ومخالفة النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " بينا أنا نائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ ، فقلت : أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : وما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ قلت : أين ؟ قال إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم " (١)
ختم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بتشبيه ؛ الهدف منه التحذير من مخالفة أمره ، وذلك حين شبه قلّة من يردون حوضه صلى الله عليه وسلم ممن دنوا منه من هؤلاء المخالفين بقلة الإبل الهمل (بفتحتين الإبل بلا راعٍ) بالنسبة لغيرها مما لها راعٍ ، ولاحظ مناسبة هذه الصورة للسياق فهؤلاء المخالفون لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبل لا راعي لها يرعاها ويؤمّن لها حاجاتها ويهتم بها ، فهم قوم مُهْمَلون لا قيمة لهم في ذلك اليوم ، وهم قلّة بالنسبة لمن يردون الحوض وبذلك تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا به من أوامره صلى الله عليه وسلم .

وفي سياق الذم والتحذير من بعض الصفات في اللباس والزينة يقرّب لنا النبي صلى الله عليه وسلم صورة صنفين من الناس في اللباس لم يرهما الناس في زمنه ، وهذا من علم الغيب الذي منّ الله به عليه ، يقول : " صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " (٢)
في هذا الحديث تشبيهان بالحيوان الأول : تشبيه السياط بأذناب البقر ، والثاني : تشبيه رؤوس النساء بأسنمة البخت المائلة ، وكلا التشبيهين يشعر بالذم والاحتقار والتنفير من هذه التصرفات ، ويوضح هذا المعنى بعض روايات الحديث ففي رواية أخرى يقول صلى الله عليه وسلم : " يوشك ، إن طالت بك مدة

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق (١١٣٩/٦٥٨٧)

(٢) صحيح مسلم (٩٠٦/٥٥٨٢)

، أن ترى قومًا في أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون في غضب الله ، ويروحون في سخط الله " [١] وفي رواية ثالثة يقول : " إن طالت بك مدة ، أوشكت أن ترى قومًا يغدون في سخط الله ، ويروحون في لعنته ، في أيديهم مثل أذناب البقر " [٢] فالنبي صلى الله عليه وسلم كشف عن حالهم في هذه الروايات فهم يغدون في سخطٍ من الله وغضب ، ويروحون في سخط منه ولعنة ، وما ذلك إلاّ لأن تلك السياط لم تكن لرفع الظلم ونشر الحق ، ولكنها كانت أدوات تعذيب فاستحقوا ذلك الوعيد والنار .

أما التشبيه الثاني فهو وصف لتلك النسوة اللواتي ترى أمثالهن كثيرًا هذه الأيام — والله المستعان — وقيل إن المقصود بالكاسيات العاريات : (معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها ، وقيل : معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارًا بحالها ونحوه ، وقيل : معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها ، وأما مائلات فقيل : معناه عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه ، مميلات أي يعلّمن غيرهن فعلهن المذموم ، وقيل : مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن ، وقيل : مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا . . .) [٣] فالمشبه هو رؤوس تلك النسوة ، والمشبه به أسنمة البخت وهي إبل ضخمة السنام ، ووجه الشبه الضخامة والميل إلى أحد الجانبين ، ويتضح الغرض من هذا التشبيه في نفي دخولهنّ الجنة فالغرض الوصف مع التحقير والتنفير من فعلهنّ .

---

(١) صحيح مسلم (١١٧١/٧١٩٥)

(٢) المصدر السابق (١١٧١/٧١٩٦)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٣-١٤ ص١٥٦

المبحث الثالث

سياق البيان والإيضاح والوصف والإخبار

في هذا السياق يعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيضاح والوصف والإخبار عن بعض الأمور التي لا يعرفها الناس ، إما لكونها أمورًا غيبية لا يرونها ولا يشعرون بها ، أو لكونها أمورًا يراها الناس ولا يستطيعون تفسيرها ، أو لكونها أمورًا لم تقع بعد فهي من الغيبيات المستقبلية .
وقد يُشْعِر حديث النبي صلى الله عليه وسلم تحت هذا السياق بذم واحتقار الموصوف ، أو مدحه واحترامه ، لكنه لا يشعر بحكم شرعي يؤجر عليه العبد أو يعاقب ؛ لذلك رأيت أن يكون هذا السياق مستقلاً عن السياقين السابقين ، ومن أمثلة هذا السياق التي أراد فيها النبي صلى الله عليه وسلم إيصال مراده بالتشبيه ما يلي :

في سياق وصفه صلى الله عليه وسلم لرحلة المعراج ولقائه بالأنبياء في الحديث الطويل يصف لنا تلك المشاهد الغيبية العجيبة التي رآها ، ومن تلك المشاهد الدابة التي ركبها في رحلته (البراق) وهي دابة لا يعرفها الناس فأراد أن يقرّب لهم صورة هذه الدابة فقال عنها : " . . . وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به ولنعم المجيء جاء . . . " [(١)] فشبهها النبي صلى الله عليه وسلم بالدواب التي يعرفها الناس ويستخدمونها في زمانهم تقريبًا لأذهانهم وإيضاحًا لمسمى غريب على أسماعهم ، وإن كان التشبيه في هذا الحديث غير صريح إلا أننا نشعر به في وصفه صلى الله عليه وسلم للبراق بالبياض والتوسط بين البغل والحمار ، والغرض من هذا التشبيه بيان حال المشبه . قال ابن حجر في الفتح معلقًا على قوله صلى الله عليه وسلم : (" دون البغل وفوق الحمار " كذا ذكر باعتبار كونه مركوبًا أو بالنظر للفظ البراق ، والحكمة لكونه بهذه الصفة الإشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف ، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراء الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة) ، (والبراق بضم الموحدة وتخفيف الراء مشتق من البريق ، فقد جاء في لونه أنه أبيض ، أو من البرق لأنه وصفه بسرعة السير) [(٢)]
وفي هذا الحديث تشبيه آخر بالحيوان وذلك في بيانه صلى الله عليه وسلم لمقدار حجم أوراق سدرة

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧/٥٣٥)

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ، ج٧ /ص ٢٤٦

المنتهى يقول : "... ثم رُفِعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قِلال هَجَرَ ، وإذا وَرَقُهَا مثل آذان الفيلة ..." [(١)] والغرض من التشبيه هنا أيضًا تقريب صورة المشبه واستحضارها ، فالسامع حينما يسمع آذان الفيلة يتبادر إلى ذهنه ضخامة هذه السدرة وكأنه يشاهد سدرة المنتهى ، كل ذلك إيضاح لهيأتها الغريبة وتقريب لصورتها من أذهان الناس .

ونلاحظ مناسبة التشبيه في كلا الصورتين للسياق الذي وردتا فيه فهو سياق الوصف والإخبار وكشف بعض الأمور الغيبية التي رآها صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج .

وفي سياق حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن فضائل المدينة المنورة شبه رجوع الإيمان إليها برجوع الحية إلى جحرها إذا خافت ، وذلك في قوله : " إن الإيمان ليَأْرِزُ إلى المدينة ، كما تَأْرِزُ الحيّة إلى جحرها "[(٢)] قال الشريف الرضي : (والمراد إن الإسلام ليأوي إلى المدينة كما تأوي الحية إلى جحرها ، وأصل ذلك مأخوذ من التقبض والاجتماع ، يقال : أرز أُروزًا إذا كان منه ذلك ، فجعل عليه الصلاة والسلام المدينة كالوِجار للإسلام يتقلص إليها وينضمّ إلى حماها لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه) [(٣)] انظر إلى مناسبة هذه الصورة للسياق الذي جاءت فيه وحسن اختياره صلى الله عليه وسلم للمشبه به (الحيّة) لتقريب المعنى إلى أذهان السامعين فهو أمر في غاية الوضوح والبيان ، فمن لا يعرف الحية والأفعى من المسلمين ؟!

وفي سياق إيضاح قضية العقيدة السليمة وأن كل مولود يولد متهيئًا للإسلام ، وبيان مدى تأثير الوالدين على أولادهم في اعتناق الأديان ، يشبه النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود في سلامة عقيدته بالبهيمة في سلامة أعضائها ثم يطرأ على العقيدة الانحراف بتربية الوالدين كما يطرأ الجدع والنقص على أعضاء البهيمة ، يقول صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " [(٤)] قال النووي

(١) صحيح البخاري (٦٥٣/٣٨٨٧)

(٢) صحيح البخاري (٣٠٢/١٨٧٦)

(٣) المجازات النبوية ، لأبي الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٩١هـ ، ص٨٥

(٤) صحيح البخاري (٢١٧/١٣٥٨)

: (ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها).[١] ونلاحظ هنا أيضًا مناسبة التشبيه للسياق الذي ورد فيه فالعرب يحبون البهائم ويعتنون بها أيما اعتناء لذلك يحرصون على سلامة أعضائها وتنقص قيمتها عندهم بنقص شيء من أعضائها ، فجاء التشبيه هنا مناسبًا للمقام وموضحًا للمعنى المراد من أقصر طرقه .

وحينما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين فساد أعمال أهل الكفر والشرك وعدم قبولها عند الله وأن هذه الأعمال وأصحابها لا تزن عند الله شيئًا استخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه ليحقّر أهل الكفر وأعمالهم فقال : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – وقال – : اقرؤوا : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾[٢] "[٣] البعوضة من أصغر مخلوقات الله تعالى حجمًا فناسب هنا تشبيه حقارة الكافر ولو كان عظيم الحجم سمين البدن بحقارة البعوضة بل لا يزن عند الله جناحها فضلاً عن أن يزن كامل جسمها . ولا شك أنّ في هذا التشبيه ما فيه من الذم والتحقير ؛ لأن الإيمان هو المقياس الحقيقي للناس عند الله لا بأجسامهم ولا بأشكالهم ولا بأوزانهم ، بل بمقدار ما تحمل قلوبهم من الإيمان وما بذلت أبدانهم من أعمال البر والخير .

وفي سياق الوصف يشبه النبي صلى الله عليه وسلم مشابهة أبناء عبد الرحمن بن الزبير القرظي بأبيهم بمشابهة الغراب للغراب ، والغرض من ذلك إنكاره صلى الله عليه وسلم على زوجة عبد الرحمن ما ادعته عليه من العنة وذلك في الحديث المشهور في باب الطلاق وباب اللباس في صحيح البخاري والحديث :
" أن رفاعة طلق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي ، قالت عائشة : وعليها خمار أخضر فشكت إليها وأرتها خضرة بجلدها ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم – والنساء ينصر بعضهن بعضًا – قالت عائشة : ما رأيت مثل ما يلقى المؤمنات ! لجلدها أشد خضرة من ثوبها ، قال : وسمع أنها قد أتت رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء ومعه ابنان له من غيرها ، قالت : والله ما لي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه ، وأخذت هدبةً من ثوبها ، فقال : كذبت والله يا رسول الله ، إني

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (ج١٥/ص٣٢٠)

(٢) سورة الكهف ، آية رقم ١٠٥

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٩/٨٢٢)

لأنفضها نفض الأديم ، ولكنها ناشز تريد رفاعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (فإن كان ذلك لم تحلي له ، أو لم تصلحي له ، حتى يذوق من عُسَيْلَتِكِ) ، قال : وأبصر معه ابنين له ، فقال : (بنوك هؤلاء ؟) ، قال : نعم ، قال : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين ، فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب) " [١] وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين) كناية عما ادعته عليه من العنة ، وأردف ذلك بتشبيه أبنائه له بشبه الغراب للغراب تأكيدًا منه صلى الله عليه وسلم وإنكارًا لما ادعته على زوجها ؛ لأن من لا يستطيع الجماع لا ينجب أو لا يولد له . والتشبيه هنا مناسب للسياق فالنبي صلى الله عليه وسلم يريد بيان شدة الشبه بين عبد الرحمن وأبنائه وليس أشبه من الغراب للغراب .

وفي سياق الوصف والإيضاح أيضًا ثبت في صحيح البخاري في باب التلاعن في المسجد من كتاب الطلاق أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً ، أيقتله أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله في شأنه ما ذكر في القرآن من أمر المتلاعنين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قد قضى الله فيك وفي امرأتك " ، قال : فتلاعنا في المسجد وأنا شاهد ، فلما فرغا قال : كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها ، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغا من التلاعن ، ففارقها عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كان ذلك تفريقًا بين كل متلاعنين .

قال ابن جريج قال ابن شهاب فكانت السنة بعدها أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملاً وكان ابنها يدعى لأمه ، قال : ثم جرت السنة في ميراثها أنها ترثه ويرث منها ما فرض الله له .

قال ابن جريج ، عن ابن شهاب ، عن سهل بن سعد الساعدي في هذا الحديث : أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " إن جاءت به أحمر قصيرًا كأنه وحرة فلا أراها إلا قد صدقت وكذب عليها ، وإن جاءت به أسود العين ذا أليتين فلا أراه إلا قد صدق عليها " . فجاءت به على المكروه من ذلك . [٢]

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٢٥/١٠٢٧)

(٢) صحيح البخاري (٥٣٠٩/٩٤٩)

ونلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر صفات المولود قبل أن يولد – وهذا من علم الغيب الذي علمه الله – وشبّهه بالوحرة وهي (دويبة تترامى على الطعام واللحم فتفسده ، وهي من نوع الوزغ).[١]

وأراد بذلك صلى الله عليه وسلم وصف هذا المولود ونسبته لأبيه بهذه الصفات ، كما يشعرنا هذا التشبيه من طرف خفي بالذم للزوج ؛ لأن الابن يشبه أباه عادةً فإذا جاء الابن بهذه الصفات ثبت كذب الزوج على زوجته وبرئت هي مما ادّعاه عليها وصدقت ، فناسب التشبيه السياق الذي ورد فيه .

وفي سياق وصف الكهّان واحتقارهم وبيان علاقتهم بالجن يقول صلى الله عليه وسلم حينما سئل عنهم : " ليسوا بشيء " ، قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " [٢] فشبه نقل الكلمة بصوت الجني إلى وليه بصوت قرقرة الدجاجة ، يقول الخطابي : (والمعنى أن الجني إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة فسمعها الدجاج فجاوبتها) [٣] وهذا التشبيه يحمل معنى التحقير ويعزز هذا المعنى خلطهم في الكلمة أكثر من مئة كذبه .

وعندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بيان ندرة أهل الخير والكرام من الناس شبههم بندرة الراحلة في الإبل المائة وذلك في قوله : " تجدون الناس كإبلٍ مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة ".[٤] (أراد أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة) .[٥] وانظر إلى حسن اختياره صلى الله عليه وسلم للمشبه به (الراحلة) تلك الدابة النجيبة في

---

(١) فتح الباري (ج٩/صفحة٣٦٣)

(٢) صحيح البخاري (٦٢١٣/١٠٨١)

(٣) فتح الباري (ج١٠/صفحة٢٣٠)

(٤) صحيح مسلم (٦٤٩٩/١٠٥٧)

(٥) لسان العرب (٥/١٧١)

الإبل والتي يحرص الناس على اختيارها واقتنائها وحمل الرحل عليها وما ذلك إلا لجودتها وندرتها كما هو الحال في ندرة ذلك الرجل المرضي عنه من الناس الكامل الأوصاف القوي على الأحمال والأسفار .

وفي سياق الوصف أيضًا انتزع النبي صلى الله عليه وسلم عنصر الإبل الغريبة لبيان معنى أن هناك أقوامًا يُصَدُّون ويُذادون ويمنعون من الورود على حوض النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة كما يُذاد البعير الغريب وذلك في قوله : (لأذودن عن حوضي رجالاً كما تذاد الغريبة من الإبل) [١]، ونلحظ في هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين سوء مآل هؤلاء الرجال ويكفيهم خزيًا أنهم يطردون ويمنعون من ورود الحوض النبوي ؛ وذلك لردتهم عن الإسلام أو تبديلهم وتغييرهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما نلاحظ مناسبة هذا التشبيه للسياق الذي ورد فيه فالمرتد والمبدل لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم يعتبر غريبًا عن الأمة كغرابة الإبل فلا يستحق الورود .

وفي سياق الوصف لحال الولاة في الجهاد وما يلقون من مُقاسات الأمور وإيثار الرعية على أنفسهم والشفقة عليهم والذب عنهم استخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه التمثيلي ؛ ليصوّر لنا الهمّ الذي يحمله هؤلاء الولاة ، وما يلقونه من تحمل المسؤولية تجاه إخوانهم ، وذلك في قصة خالد بن الوليد مع عوف بن مالك في غزوة مؤتة وقد ثبتت في صحيح مسلم : " قتل رجل من حمير ، رجلاً من العدو ، فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عوف ابن مالك ، فأخبره ، فقال لخالد : " ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ " قال : استكثرته ، يا رسول الله ! قال : " ادفعه إليه " فمر خالد بعوف ، فجرَّ بردائه ، ثم قال : هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغضب ، فقال : " لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم ، كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا ، فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضًا ، فشرعت فيه ، فشربت صفوه ، وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم " . [٢] فقد شبه عليه الصلاة والسلام حال الرعيّة مع أمرائها في تحمل المشقة بحال رجل استرعى إبلاً وغنمًا مع تحمل المشقة ، ووجه الشبه يفيد أن الرعية يأخذون صفو الأمور حيث

---

(١) صحيح مسلم (٥٩٩٣/٩٧٠)

(٢) صحيح مسلم (٤٥٧٠/٧٤٥)

تصلهم أعطياتهم بغير نكد ولا معاناة ، وفي المقابل يعاني الأمراء والولاة في حفظ حقوق بقية الناس فكل عقاب أو شكوى تتوجه للولاة .

وإن كان هذا تشبيهًا تمثيليًا حيث شبه صورة الولاة مع الرعية بصورة الرجل الذي استرعى الإبل والغنم ، إلاّ أننا نستطيع أن نقول أنه صلى الله عليه وسلم قابل صورة الرعية — هذه الجزئية من التشبيه التمثيلي — بصورة الغنم والإبل ، وهذا التشبيه له مغزى وهو أن هذه الرعية في راحة واطمئنان لا تحمل معاناة الاهتمام حتى بنفسها طالما لها راعٍ يرعاها ويقوم على مصالحها في طعامها وسقائها وحتى في حمايتها من كل ما يؤذيها أو يسيء إليها .

وانظر مناسبة هذه الصورة المتكاملة التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم للمقام الذي وردت فيه ، وكيف انتزع عناصرها من البيئة العربية المتأصلة في نفس العربي ؛ ليكون لها الأثر الأكبر في نفسه ولتتم الاستجابة المباشرة منه ومن كل من وصله هذا الحديث في احترام ولي الأمر أو الأمير ومعرفة حرمته .

وفي وصفه للمنافقين يبيّن صلى الله عليه وسلم تردد المنافق وجنوحه مرة إلى المسلمين ومرة إلى الكفار واضطرابه وعدم استقراره حين شبّهه بالشاة العائرة ، وهي الشاة المترددة الحائرة بين غنمين لا تدري لأيهما تتبع ، وذلك حين قال : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة " [(١)] انظر إلى دقة هذا التشبيه ومدى مناسبته في وصف حال المنافق ، حيث إنه مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فمثله كمثل هذه الشاة الضعيفة العائرة التي لا تحسن اختيار الطريق الصحيح لنفسها ، كما أنها خائفة وجلة تبحث عن الأمان والاستقرار النفسي فلا تعرف مسلكه ، فحالها محزن متخبطة تسلك سبيل هذا القطيع مرة ، ثم تهابه لأنها لا تعرف مصيرها ، فترجع إلى القطيع الآخر فلا تجد فيه إلا ما وجدت في سابقه ، فتبقى في حيرتها وترددها ، وهذا هو فعلاً حال المنافق يسلك طريق المسلمين تارةً ثم لا يجد الأمن لأنه لا يؤمن بهذا الدين حق الإيمان بل هو في شكٍ منه ، وما تبعه إلا خوفًا من المسلمين لما قويت شوكتهم ورغبةً في الغنائم والهبات التي كان صلى الله عليه وسلم يغدق بها على أصحابه ، ثم يعود إلى طريق الكفار ليناصرهم ويؤازرهم ظنًا منه أنه سيجد الأمن والراحة ، فلا يلبث أن يشعر بالخوف من أن يلقاه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيضربوا عنقه ، وقد أكثر القرآن في وصف أحوالهم ورسم أروع الصور في تبيين فساد عقيدتهم واضطرابهم .

---

(١) صحيح مسلم (١١٤٧/٧٠٤٣)

والتشبيه في الحديث مناسب للسياق الذي ورد فيه ، فهو يُشْعِر بالذم والاحتقار ، ويبين شدة الضعف وكثرة الأخطار التي يتعرض لها المنافق ، كما تتعرض لها الشاة العائرة .

وفي سياق الإخبار عن الدجال وصفته ، وما معه من فتن يذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض الغيبيات من أخباره ، ويستعين بالتشبيه لتقريب تلك الغيبيات والعجائب إلى عقول الناس ، وذلك في الحديث الطويل عن النواس بن سمعان ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال : " ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة ، فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : " غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالاً ، يا عباد الله ، فاثبتوا " قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : " أربعون يومًا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم " قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : " لا ، اقدروا له قدره " قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : " كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذُرًى ، وأسبغه ضروعًا ، وأمدّه خواصر ، ثم يأتي القوم ، فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عبادًا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل

حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه ، مرة ، ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النّغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه ، إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة " .[١]

حوى هذا الحديث مجموعة من الصور ، من تلك الصور وصفه صلى الله عليه وسلم اتباع كنوز الأرض للدجال فشبهها بيعاسيب النحل وذلك في قوله : " ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل " ، ويعاسيب النحل ذكور النحل ، قال القاضي : (المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها ؛ لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم)[٢] لاحظ كيف أحسن صلى الله عليه وسلم اختيار المشبه به في هذا المقام ليوضح مدى لزوم هذه الكنوز للدجال وشدة اتباعها له بعد أمره بخروجها ، وقد اختار صورة معروفة لدى كل عربي منتزعة من بيئته لتحقق الغاية من التشبيه في هذا المقام مقام الإيضاح والبيان .

والصورة الثانية في هذا الحديث : استخدم صلى الله عليه وسلم التشبيه حين أراد وصف ضخامة تلك الطير التي يرسلها الله بعد نزول عيسى لتحمل جثث قوم يأجوج ومأجوج في قوله : " فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله " ، وهنا أيضًا الغرض الذي سيق له التشبيه هو الإيضاح والبيان ، حيث أراد صلى الله عليه وسلم بيان ضخامة هذه الطير المأمورة بحمل جثثهم ، فشبهها

---

(١) صحيح مسلم (٧٣٧٣/١٢٠٠-١٢٠١)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٧/ص٨٩

بأعناق البخت ، والبخت الإبل الضخمة العظيمة ، فلما كانت جثث القوم كثيرة ومتفرقة احتاجت لوسائل نقل ضخمة تتناسب مع هذه المهمة الصعبة وتتحمل هذه المسؤولية الشاقة ، فكانت هذه الصفة المناسبة للطير التي تحملهم .

ثم يصف صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث شِرَار الناس الذين تقوم عليهم الساعة ، حين يجامع الرجال النساء بحضرة الناس ، حيث شبه فعلهم هذا وعدم اكتراثهم بالناس بفعل الحمير ، وذلك بقوله : " ويبقى شِرَار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة " ، وهذا التشبيه يحمل معنى الذم والتحقير لحقارة صنيعهم ؛ لذلك ناسب أن يشبههم بالحمير ، كما ناسب أن تقوم عليهم الساعة لأنهم شرار الناس . فالتشبيه هنا الغرض منه البيان والإيضاح مع الذم والتحقير .

وفي السياق نفسه ، وهو وصف خروج الدجال وذهاب أهل الإيمان وبقاء شرار الناس ، يشبه النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الأشرار في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد بطيران الطير ، وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا في أخلاق السباع حين يقول : " فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا " [١] ، ونلاحظ هنا أنه صلى الله عليه وسلم شبههم بحيوانات متباينة في صفاتها مختلفة في طباعها ، فالسباع حيوانات مختلفة في صفاتها تمام الاختلاف عن صفات الطير ، السباع حيوانات مفترسة مؤذية قوية غير أليفة ولا مستأنسة ، بينما الطيور حيوانات أليفة ضعيفة لطيفة غير مؤذية ، فكما أن هناك تناقضًا كبيرًا في صفات هذين الصنفين من الحيوانات ، كذلك هنالك تناقض كبير في الصفات التي يجمعها الشخص الواحد من أولئك الناس ، فهو يأخذ من الطير صفة السرعة والخفّة في الوصول إلى الشر والفساد والفواحش ، ويأخذ من السبع صفة العدوان والظلم للناس فهو في أخلاق السباع الجبارة العادية التي لا ترحم فرائسها .

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحسن الإفادة من المواقف التي تمر به وبأصحابه ؛ لتكون دروسًا حيّة يستفيد منها الناس ، ومن تلك المواقف : لما مرّ صلى الله عليه وسلم بالسوق ، داخلاً من بعض العالية ، والناس كنفته ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا :

---

(١) صحيح مسلم (١٢٠٣/٧٣٨١)

والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " [(١)] ، وأراد بالجملة الأخيرة التشبيه ، حيث اعتمد على أفعل التفضيل ومعلوم أن أفعل التفضيل من طرق التشبيه ، قال علي الجندي في كتابه فن التشبيه : (جعل الطيبي من أدوات التشبيه أفعل التفضيل ، مثل زيد أفضل من عمرو) [(٢)] ، ويدخل هذا النوع من التشبيه (في ضرب آخر من ضروب التشبيه الذي يسميه البلاغيون : التشبيه الضمني ، وهو ما لا يكون التعبير فيه نصًا في التشبيه ، وإنما بُنيت العبارة عليه ، وطوته وراء صياغتها ، فأنت تراه هناك مضمرًا مكتومًا كما تقول : هو أقطع من السيف ، وتلك المسألة أبين من الصبح . . . أو كما قال الفرزدق :

أبي أحمد الغيثين صعصعة الذي   متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

. . . وكذلك الفرزدق حين قال : (أبي أحمد الغيثين) ، يرتفع بالمعنى درجة فوق التشبيه ، وكأنّ هدف العبارة ليس بيان أن أباه يشبه الغيث في وفرة العطاء ، وإنما الغرض من الكلام أن يخبر عن فضل أبيه على الغيث) . [(٣)]

والغرض من التشبيه في الحديث بيان حقارة الدنيا وهوانها على الله ؛ لتزهد بها نفوس المؤمنين وتتوجه أبصارهم وآمالهم إلى الآخرة ، لذلك وضع الإمام مسلم في تصنيفه هذا الحديث ثاني أحاديث كتاب الزهد والرقائق .

ونلاحظ مناسبة التشبيه للسياق ، فالسياق سياق ذم واحتقار فناسب أن يختار هذا المشبه الحقير الذميم (الجدي الأسكّ) الذي لا يحب أحد أن يكون له ولو بدون ثمن . وبذلك أوصلنا صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحوار الذي دار بينه وبين الصحابة إلى هذه الحقيقة وهي حقارة الدنيا ، حين شبه هوان الدنيا وحقارتها على الله بهوان ذلك الجدي الأسكّ الميت وحقارته على النفس البشرية .

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٠/٧٤١٨)

(٢) ينظر : فن التشبيه لعلي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ ، ج٢٠٢/١ وما بعدها .

(٣) التصوير البياني ، محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ ص٩٠-٩١

الفصل الثاني

الجانب التركيبي
للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

١- المبحث الأول : أجزاء الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان .

٢- المبحث الثاني : سمات الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان .

٣- المبحث الثالث : سمات الجمل في أحاديث التشبيه بالحيوان .

أقصد بالجانب التركيبي دراسة ما يتعلق بأحوال اللفظ ، وبناء الجملة ، وعلاقة الجمل بعضها ببعض ، وقضية الاهتمام بالجانب التركيبي قضية ليست بالجديدة فقد أومأ إليها الجاحظ ونبّه وأشار إليها غيره من القدماء كالقاضي عبد الجبار ، وأفاض الإمام عبد القاهر في تجليتها حيث نوّه كثيرًا بشأن النظم ، وحدد مفهومه ، وذكر مرارًا أن الألفاظ المجرّدة لا مزية لها في ميدان الفصاحة والبلاغة وإنما مناط المزية هو النظم والمعاني الكامنة وراء التركيب.

يقول الشيخ عبد القاهر : (والألفاظ لا تفيد حتى تُؤلَّف ضربًا من التأليف ، ويُعْمَد بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب . فلو أنك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصل نثرٍ فعددت كلماته عدًا كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي بُني ، وفيه أُفرغ المعنى وأجرى ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد،نحو أن تقول في :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ * [(١)]

" منزل قفا ذكرى من نبك حبيب " ، أخرجته من كمال البيان ، إلى مجال الهذيان . نعم ، وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافةُ قائل ، ونسبٌ يختصّ بمتكلم . وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعرٍ أو فصل خطابٍ ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة . . . وعلى ذلك وُضِعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونة ، فقيل : من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن حق ما ههنا أن يقع هناك) [(٢)]

وسماه العلماء من بعد عبد القاهر (علم المعاني) حيث عرّفه السكاكي بقوله : (علم المعاني هو تتبع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان) [(٣)]

وقال عنه الخطيب القزويني : (علم المعاني : هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها

---

(١) مطلع معلقة امرئ القيس ، وتمامه : بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ، الطبعة الأولى لدار المدني عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، صفحة رقم ٤-٥

(٣) مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي للسكاكي ، تحقيق نعيم زرزور ، الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بيروت ، ج١ ص ٧٠ .

يطابق مقتضى الحال) [(١)]

وخلاصة القول أنني سأخصّص هذا الفصل من البحث لدراسة خصائص التراكيب في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وكيفية تناول الفكرة ، وكيف يثير البيان بعض جوانبها ويشير إلى البعض الآخر أو يوحي بها وحيًا ، ثم كيف يتصرّف صلى الله عليه وسلم في بناء العبارة ؟ وإلى أي مدى ينتقي فيها الكلمات ؟ وكيف تُنْفَضُ هذه الكلمات من بعض أحوالها ، فيزال عنها التعريف مثلاً ويرمى بها نكرة ؟ أو يفضّل الحذف هنا على الذكر ؟ أو يختار التعبير بالصلة بدل التعبير بالإشارة ؟ أو العكس إلى آخر هذا الباب .

ثم كيف أدار الكلمات فرتبها ثانية على أولى ، وثالثة على ثانية وهكذا ؟ وكيف ربط الجملة بالجملة ؟ وما علاقة هذه بتلك ؟ ولماذا آثر في العطف الواو دون الفاء ؟ أو لماذا ترك الجميع ووصل بلا وصل ؟ أو لم استأنف وأقام كلامه على القطع ؟ ولما قدّم النفي على الفعل ؟ وقدّم الفعل على النفي ؟ و لم نفى بهذا النفي دون ذاك ؟ و لم عبّر عن النهي بالأمر ؟ أو العكس و لم أنكر بالاستفهام و لم ينكر بحرف الإنكار ؟ و لم عبّر بالاسم دون الفعل ؟ أو العكس ؟ و لم أطلق هنا وقيد هناك ؟ لم أوجز القول هنا وأطنب هناك ؟ أو ما شابه ذلك مما هو داخل في فقه اللسان ودلالات التراكيب .

وسأبدأ هذا الفصل بدراسة أجزاء الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين من حيث الذكر أو الحذف ، والتعريف أو التنكير ، والإطلاق أو التقييد ، والتقديم أو التأخير .

ثم بعد ذلك أنطلق في دراسة سمات جملة التشبيه بالحيوان في الصحيحين من حيث التعبير بالجملة الاسمية أو الجملة الفعلية ، والأساليب الإنشائية بنواعها ، والقصر والتأكيد .

بعد ذلك أختم هذا الفصل بدراسة الجمل في هذه الأحاديث النبوية وعلاقتها ببعضها من حيث الفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب .

ولما كان اللفظ هو اللبنة الأولى التي تُبنى بها الجملة بأنواعها رأيت أن أبدأ هذا الفصل الخاص بالجانب التركيبي بدراسة الألفاظ التي بنى بها النبي صلى الله عليه وسلم جملة التشبيه

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة تأليف الخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، تاريخ الطبعة غير مدون صفحة رقم ١٥ .

بالحيوان في الصحيحين ، وحتى تكون الدراسة علمية وعلى أسس صحيحة نبدأ بتعريف اللفظ عند النحويين واللغويين ثم عند البلاغيين ، ثم بعد ذلك نحاول أن نضع أيدينا على سمات اللفظ الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم ليبني به جملة التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وما مدى ملاءمته للجملة والسياق والغرض الذي بنيت له الجملة .

اللفظ : (في أصل اللغة مصدر بمعنى الرمي وهو بمعنى المفعول فيتناول ما لم يكن صوتا وحرفا وما هو حرف واحد وأكثر مهملاً أو مستعملاً صادرًا من الفم أو لا لكن خصّ في عرف اللغة بما صدر من الفم من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدًا أو أكثر مهملاً أو مستعملاً) [١]

ويرى محمد عيد أن اللفظ هو : (النطق المشتمل على بعض الحروف سواء أكان له معنى أم لم يكن) [٢]

من هذا نعلم أن اللفظ المفرد أساس قوي في تكون الجملة وبناء الأسلوب ، ذلك أن اللفظ المفرد ركن أساس فيهما فلا مسند دون مسند إليه ، ولا خبر دون مبتدأ ، ولا فاعل دون فعل ، ومن اللفظ يبنى الأسلوب .

وكل لفظ له دلالته التي وضع لها في اللغة يشترك صوت هذه اللفظة ومخارج حروفها في الدلالة على معناها ، وتتكوّن دلالتها الدقيقة حينما تُؤلّف ضربًا خاصًا من التأليف .

ولا يعني ما قلناه إن المزيه في الكلام راجعة للفظ وحده دون أن يكون لبنة في بناء الجملة وهذا ما نبّه عليه العلماء منذ القديم ، (الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ ، وأن الفضيلة وخلافها ، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، ما أشبه ذلك ، مما لا تعلّق له بصريح اللفظ) [٣]

---

(١) الكليات ، لأبى البقاء الكفومى ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تأليف : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، تحقيق : عدنان درويش - محمد المصري .

(٢) النحو المصفى ، لمحمد عيد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، عام١٩٧٥م ، ص٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ، صفحة رقم ٤٦

المبحث الأول

أجزاء الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

١_ الذكر والحذف .

٢_ التعريف والتنكير .

٣_ الإطلاق والتقييد .

٤_ التقديم .

مدخل :

إذا نظرنا إلى الألفاظ والكلمات في حديثه صلى الله عليه وسلم رأينا (الوضوح والجزالة) هي الطابع العام لأحاديثه ، وهذا الصفة هي أولى خصائص أسلوبه يقول محمد لطفي الصباغ : (وأولى خصائص أسلوب الحديث جمعه بين الجزالة في المفردات والديباجة ، والوضوح في الدلالة ، وإذا اقترن الوضوح بالجزالة في الكلام كان قطعة رائعة من البيان الساحر ، وأضحى صالحًا لأن يلقى على جماهير الناس . . . وضوح لا تحجبه مفردات غريبة ، ولا أساليب معقدة ، وجزالة لا يفارقها الوضوح والبيان ، ولا تنافسها جزالة في متانة التركيب ، وفخامة الإيقاع ، وعدم الابتذال .

وكان يكره التقعر والإغراب في الحديث كراهية شديدة ، ويُؤثر الوضوح والسهولة في التعبير ، حتى يكون كلامه مفهومًا من السامعين) [(١)]

١ _ الذكر والحذف :

يدلّ الذكر (في اللغة) على عدّة معان منها: الحفظ والاستحضار، وجري الكلام على اللسان، وغيرها من المعاني.[(٢)]

أمّا الحذف فهو – في دلالته اللغوية — الإسقاط ، والرمي ، والقطع، والطرح .[(٣)]

---

(١) الحديث النبوي (مصطلحة ، بلاغته ، كتبه) — تأليف محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي الطبعة الثامنة عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، صفحة رقم ٧١-٧٢

(٢) ينظر: القاموس المحيط، ٥١/٢، باب الراء فصل الذال، مادة (ذكر)، ومختار الصحاح، ٢٢٢-٢٢٣، مادة (ذكر)، والمعجم الوسيط، ٣١٣، مادة (ذكر).

(٣) ينظر: القاموس المحيط، ١٨٦/٣، باب الفاء فصل الحاء، مادّة (حذف)، ومختار الصحاح، ١٢٧، مادة (حذف)، والمعجم الوسيط، ١٦٢، مادة (حذف)، والحذف والتعويض في اللهجات العربية، ١٠٥-١٠٦، د/ سلمان سالم السحيمي، مكتبة الغرباء الأثريّة (المدينة النبويّة)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

وأحد هذين المصطلحين في عرف أهل البلاغة نقيض للآخر، فالذكر إيراد المتكلّم للشيء في الكلام سواء كان جملة أو جزءا من الجملة ، وسواء كان ذلك الجزء مسندًا ، أو مسندا إليه ، أو أحد متعلّقات الفعل. أمّا الحذف فهو (إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام) .[١]

١- الذكر وأسراره البلاغية :

ونقصد بالذكر هنا ذكر بعض الكلام مع قيام الدليل عليه لو حذف ، ذلك لأنّ ترك شيء من الكلام مع عدم قيام القرينة على المحذوف يؤدّي إلى الغموض وعدم معرفة المراد ، وهذا يتعارض مع البيان ويخلّ ببلاغة الكلام . فالمتكلّم الذي يتوجّه بالخطاب إلى خالي الذهن مريدًا إعلامه بوجود زيد في حالة قراءته في المكتبة مثلاً يجب عليه أن يقول : (زيد يقرأ في المكتبة) ، فـ(زيد) مسند إليه، و(يقرأ) مسند ، و(في المكتبة) متعلّقان . وهذه الأطراف الثلاثة واجبة الذكر ؛ لأنّ حذف شيء منها يُغمِض الكلام على المخاطب . وأمّا إذا سبق سؤال من المتلقّي بأن قال (أين زيدٌ ؟) فقد أصبح المتكلم في الحلّ بين أن يجيب بقوله : (زيد يقرأ في المكتبة) ، وبين أن يقول (يقرأ في المكتبة). وإن كان اختياره الأوّل فقد ذكر المسند إليه ، وإن كان جوابه بالثاني ، فقد حذف المسند إليه لدلالة قرينة السؤال عليه .

أغراض الذكر في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

ولعل من أهم أغراض الذكر التي ذكرها علماء البلاغة زيادة الإيضاح والتقرير ، والاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، وإظهار التعظيم للمذكور والتبرك به والاستلذاذ بذكره [٢] ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن (مطبوعة ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن")ص ٧٦ لأبي الحسن عليّ بن عيسى الروماني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ .

(٢) ينظر كتاب الإيضاح ص ٣٩،٤٠

ونحو ذلك مما يستدعيه السياق ومقتضى الحال ، وإليك بعض الأمثلة :

المثال الأول : يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ – وهؤلاء في غفلةٍ أهل الدنيا ، – وهم لا يؤمنون " [(١)]

في هذا الحديث يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم موقفًا عظيمًا من مواقف الآخر حين يشبه الموت بالكبش الذي يُؤتى به ليذبح بين الجنة والنار وعلى مرأى من الفريقين ، وهذا الذبح للموت الذي مُثّل لهم بصورة الكبش هو بشرى بالنسبة لأهل الجنة ؛ لأنه يمثل معنى خلودهم في الجنة ، وهو في الوقت نفسه حسرة وندامة لأهل النار ؛ لأنه يمثل معنى الخلود في عذاب جهنم أعاذنا الله منها !!

والشاهد في الحديث أن أهل الجنة وأهل النار أعادوا ذكر لفظ الموت في جوابهم عن السؤال ، ولو اكتفوا بقولهم : (نعم) لعُرف من دلالة السؤال أنهم عرفوا الموت وهو على صورة الكبش ، لكنهم أضافوا وقالوا : (نعم . هذا الموت) وهذه الجملة الأخيرة كان يمكن الاستغناء عنها (بنعم) لكنهم ذكروا الموت في إجابتهم لتعظيم أمر الموت حيث كان أخوف ما يخافونه على أنفسهم في الدنيا وكانوا يتقونه ويفرّون منه بكل ما يملكون ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] ففي ذكر الموت في جوابهم تعظيمًا له بالنسبة لهم سواءً أهل الجنة أو أهل النار ؛ لأنه يمثل لهم معنى الخلود بعد ذبحه ، وتصويره بصورة الكبش من قبل الرّب سبحانه احتقارًا له وإيحاءً بضعفه وفي ذبحه تأكيدٌ لضعفه وعدم قدرته فهو مخلوق من مخلوقات الله التي يخوّف بها عباده . ولا نغفل في هذا المقام استخدام النبي صلى الله عليه وسلم للفعل المضارع (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٣٠) صفحة ٨٢٣

(٢) سورة الجمعة آية رقم ٨

فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح . . .) كل هذه الأفعال تذكر بصيغة المضارع مبالغة في إضفاء الواقعية حتى تبدو أحداثها وكأنها تجري الآن أمام ناظري المخاطب .

كما أن في الحديث حوارًا يزيد من الحيوية في النص . وفيه استشهاد بالقرآن ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة . . . ﴾ .

وانظر إلى عظمة هذا البيان النبوي حينما يجمع في مثل هذا الحديث بين دلالات العظمة لدى الناس بذكر ما يمكن الاستغناء عنه في الجملة وهو الموت ، وعلامات الاحتقار لذات الأمر المعظم لدى الرّب بتصويره الموت بصورة الكبش هذا الحيوان الضعيف العاجز عن دفع الذبح عن نفسه .

ومثال آخر للذكر في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين حديث الحث على التبكير في حضور صلاة الجمعة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر"(١) انظر إلى هذا المشهد الذي صوره لنا عليه الصلاة والسلام وقد جاء كل مسلم يسوق قربانه ، فمنهم من جاء ببدنة ومنهم من جاء ببقرة ومنهم من جاء بكبشٍ أقرن . . . وما ذلك إلاّ ليبين لنا قيمة التبكير إلى صلاة الجمعة ، ثم انظر ما لهذا المشهد من أثر عجيب في نفوس المخاطبين من شأنه أن يحفزهم ويعلي همتهم في التنافس والتبكير لأداء هذه الشعيرة .

والشاهد في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بتصوير قيمة الأجر بحسب التبكير ليبين قيمة الوقت الذي يروح فيه المصلى للمسجد لأداء صلاة الجمعة ، بل حرص على دعم هذه الفكرة بذكر الأمر المراد الإشارة إليه والتنبيه عليه وذلك بتكرار كلمة (الساعة) حين قال : ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن راح في الساعة

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة ... ومن راح في الساعة الخامسة ... وكان يمكن أن يكتفي بذكر لفظ (الساعة) مرة واحدة في بداية الحديث بأن يقول مثلاً : من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الرابعة فكأنما قرب دجاجة ... دون تكرار ذكر الساعة ؛ لكنه صلى الله عليه وسلم قصد بذلك – والله أعلم – تعظيم قيمة الوقت وبيان أهميته في تحصيل الأجر في حضور صلاة الجمعة .

ومثال آخر للذكر في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين يقول صلى الله عليه وسلم : " إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَتزَعُهُنَّ ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها " [1] هذا الحديث صورة فنيّة رائعة اعتمد فيها النبي صلى الله عليه وسلم على التشبيه بمشهد يراه الناس كل مساء لتتضح الفكرة وينجلي الغبار عنها ، حيث يتجلى فيه حرصه صلى الله عليه وسلم وشفقته على أمته ودعوتهم إلى الحق وتحذيرهم من المعاصي والفتن وإن كان ظاهرها مشرقًا وبراقًا . كما يشير هذا الحديث إلى جهل كثير من الناس وانخداعهم بالفتن وإقبالهم عليها مع تحذير النبي صلى الله عليه وسلم منها ومحاولة منعهم من الوقوع فيها .

والشاهد في الحديث أنه ذكر لفظ (الرجل) في قوله : فجعل الرجل ، مع أنه سبق ذكره في أول الحديث وكان يمكن الاستغناء عنه بالضمير المستتر في هذه الجملة كأن يقول : إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل يَتزَعُهُنَّ ويغلبنه ... وفي ذكر لفظ الرجل هنا فائدة وهي تعظيم لهذا الرجل الذي يمثل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المثل ورحمته بالأمة وأثره في الدفاع عنها والشفقة عليها من الوقوع في النار .

(١) صحيح البخاري (٦٤٨٣/١١٢٤)

والأمثلة على الذكر في أحاديث التشبيه بالحيوان أكثر من أن تحصى في مثل هذا المبحث الصغير ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق وكان هدفنا بيان كيف وظّف النبي صلى الله عليه وسلم ذكر المسند أو المسند إليه أو متعلقات الفعل وما تفيده من أغراض في دعم صورة التشبيه بالحيوان حتى يفهم المراد ويتم التأكيد على أهميته وعظمته أو غير ذلك مما يفيده الذكر.

٢- الحذف وأسراره البلاغية :

الأصل في كلّ ما يراد الإعلام به من أجزاء الجملة أن يُذكر ، لأنّ ذكره دليل على إرادة الإعلام به ، أمّا حذفه فيخالف البيان في ظاهره ، لكن لا بدّ أن نعرف أن الحذف يكون أحيانًا أبلغ من الذكر ، والصمت أبلغ من الكلام ، وذلك إذا كان في الكلام ما يستنبط منه الدلالة على المحذوف ، أو يكون المحذوف ممّا يسهل إدراكه وإن لم يوجد في الكلام لفظ خاصّ يدلّ عليه ، واقرأ ما قاله الشيخ عبد القاهر عن دقّة فنّ الحذف وروعة بلاغته : (هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنّك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمّ ما يكون بيانا إذا لم تُبن) [(١)].

(فما من اسمٍ أو فعلٍ تجده قد حُذف ، ثمّ أصيب موضعه ، وحُذف في حالٍ ينبغي أن يحذف فيها ، إلاّ وأنت تجدُ حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النّطق به) [(٢)]

(فمن الحذف ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[(٣)]، ومنه ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ [(٤)] ، ومنه ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ [(٥)] ، ومنه ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ [(٦)] ، ومنه حذف الأجوبة ، وهو

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٢- ١٥٣

(٣) سورة يوسف آية ٨٢

(٤) سورة البقرة آية ١٨٩

(٥) سورة التوبة آية ١

(٦) سورة محمد آية ٢١

أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ (١) كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (٢) كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير . وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قولك : لو رأيت عليًّا بين الصفين ، أبلغ من الذكر لما بيّناه) (٣)

مما سبق من أقوال المتقدمين نفهم أن بلاغة الحذف تكمن في الإيجاز ثم في المبالغة وتوسيع دائرة التوقع وتعتمد على ذكاء السامع وفطنته وسعة أفق خياله و (أصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع ، وتعول على إثارة حسّه ، وبعث خياله ، وتنشيط نفسه ، حتّى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير).(٤) ولا يكون الحذف إلاّ فيما يمكن تقديره من قبل المخاطب بوجود القرائن الدالة على المحذوف وإلاّ كان ذلك تعقيدًا وتلبيسًا يخالف أصل البيان .

ويقع الحذف في العربية للمبتدأ ، والخبر ، والفاعل، والمفعول به ، وأداة الاستفهام ، والمضاف ، والشرط ، وجوابه ، وغيرها ، وأغلب ما ذكرت قد ورد في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين التي سنعرض بعضها فيما يلي إن شاء الله تعالى .

أولاً : حذف المسند إليه :

المسند إليه ركن في الجملة ، بل هو الركن المهم ؛ لذلك كان وجوده محتمًا في الجملة ، وإنما يحذف إذا دلت قرينة على حذفه وكان هناك أسرار بلاغية وراء حذفه ، ولولا القرينة لكان حذفه نقصًا وعيبًا ، وأمثلة حذف المسند إليه في أحاديث التشبيه بالحيوان كثيرة :

---

(١) سورة الرعد آية ٣١

(٢) سورة الزمر آية ٧٣

(٣) النكت في إعجاز القرآن ص ٧٦-٧٧

(٤) خصائص التراكيب ، د/ محمّد محمّد أبو موسى ، مكتبة وهبة (مصر) ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٥هـ-١٩٩٦م ، صفحة رقم ١٥٣.

منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه ، حتى تكون مثل الجبل " .[١] في هذا الحديث يبين صلى الله عليه وسلم قيمة الصدقة من الكسب الطيب مهما قلّ حجمها وقيمتها الحسية بالنسبة للناس في الدنيا حين ساوى حجمها بحجم التمرة ، ثم بين قيمة هذه الصدقة عند الله وكيف أن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها ويكلؤها بالرعاية وينميها حتى تغدو كالجبل يوم القيامة . فالهدف من هذا الحديث بيان قيمة الصدقة وعظمتها عند الله مهما كان نوعها وحجمها وقيمتها عند الناس ، وشاهد الحذف في هذا الحديث في الجملة الأخيرة حين قال : (حتى تكون مثلَ الجبلِ) حيث حذف المسند إليه ، وتقدير الكلام (حتى تكون التمرةُ مثلَ الجبلِ) ، والقرينة الدالة على الحذف هنا قرينة لفظية حيث سبق ذكر لفظ التمرة في أول الحديث . وللحذف في هذا الموضع فوائد وأغراض لعل من أهمها الإيجاز لأن المخاطب قد أدرك المحذوف من خلال ما تقدم من الحديث فلا داعي لتكرار اللفظ ، كما أن في هذا الحذف تشويقًا للسامع لمتابعة الكلام ، وهناك فائدة أخرى تخدم السياق هي توسيع أصناف الصدقة وعدم حصرها في التمر ، وكأنه قال : حتى تكون الصدقة أو ما هو بحجم التمرة من الصدقة مثل الجبل ، وهنا يذهب السامع بنوع الصدقة ومقدارها كل مذهب فلا تنحصر بصنفٍ معين من الأطعمة ولا بحجم معين ولا بوزن معين طالما أخلص النية لله وكانت صدقته من كسب طيب لأن التعامل هنا مع الجواد الكريم سبحانه .

ومن حذف المسند إليه في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين وصف النبي صلى الله عليه وسلم لبعض المشاهد الغريبة التي رآها في رحلة المعراج ، ومن ذلك وصفه لتلك الدابة العجيبة التي ركبها في رحلته (البراق) وهي دابة لا يعرفها الناس فأراد أن يقرّب لهم صورها فقال عنها : " . . . وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

ولنعم المجيء جاء . . . " [١]

حيث نلاحظ أنّ في الحديث حذفًا وذلك في قوله : (دون البغل وفوق الحمار البراق) ، وتقدير الكلام دون البغل وفوق الحمار هو البراق أو اسمه البراق على تقدير الجملة الاسمية حيث حذف المسند إليه وهو المبتدأ ، وأظن أن الغرض من ذلك والله أعلم هو التشويق وثقة بأن السامع قادر على فهم المحذوف وتقديره فالنبي صلى الله عليه وسلم يتحدث عن دابة غريبة واسمها غريب فكان اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث منصبًا على بيان وصفها والإخبار باسمها دون غيره في هذا السياق .

ومن حذف المسند إليه ما جاء في تصوير النبي صلى الله عليه وسلم لمانع الزكاة وشدة ندامته وحسرته يوم القيامة وذلك في قوله : " ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بقاع قرقر ، تستن عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقر لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه ، إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع . يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه . سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل ".[٢]

اشتمل هذا الحديث على صورتين تبين عذاب مانع الزكاة وحسرته يوم القيامة ، الصورة الأولى شبه فيها النبي صلى الله عليه وسلم الكنز وهو المال الذي يخبئه الإنسان ، ولا يؤدي زكاته بالشجاع الأقرع وهو الحية الذكر الذي تمعط شعر رأسه لجمعه السمّ فيه ، والصورة الثانية شبه صلى الله عليه وسلم صورة ندم مانع الزكاة وعضّه ليده بعضّ الفحل ، وكلتا الصورتين تهدف إلى بيان وجوب الزكاة والتخويف من منعها وبيان العقاب الذي أعده الله لتارك هذه الفريضة العظيمة .

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥/٣٢٠٧)

(٢) صحيح مسلم (٣٨٤/٢٢٩٦)

وشاهد الحذف في هذا الحديث قوله : (فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذي خبأته) ، حيث حذف الفاعل في أكثر من جملة ، وتقدير الكلام فإذا أتاه الشجاعُ فرّ صاحبُ الكنز منه ، فيناديه الشجاعُ ، والغرض من الحذف هنا الإيجاز وتشويق المتلقي لمتابعة الكلام والله أعلم .

ومن شواهد حذف المسند إليه في أحاديث التشبيه بالحيوان قوله صلى الله عليه وسلم : " إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض " قيل وما بركات الأرض؟ قال " زهرة الدنيا " . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه و سلم حتى ظننت أنه يُنْزَل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : " أين السائل؟ " قال أنا ، قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك ، قال : " لا يأتي الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع " (١) .

جاء هذا الحديث في سياق التحذير من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، وشاهد الحذف فيه قوله : (قيل وما بركات الأرض ؟ قال " زهرة الدنيا ") ، حيث حذف المسند إليه وهو المبتدأ في إجابته عن سؤال السائل ، وتقدير الكلام (بركات الأرض زهرة الدنيا) ، والغرض من الحذف هنا الإيجاز وتعجيل المسرَّة ، إذ لا فائدة في ذكر المسند إليه في هذا المقام ؛ لأنه إجابة عن سؤال سبق وذُكِر فيه المسند إليه فلا حاجة لإعادة ذكره .

ثانيًا : حذف المسند :

المسند هو الركن الثاني في الجملة وبه تتم الفائدة المرجوة من الكلام ، ولا يحسن حذفه إلا إذا دلت القرينة عليه ، وقد يكون المسند اسمًا ، وقد يكون فعلاً بحسب نوع الجملة فعلية أو اسمية ، وفي أحاديث التشبيه بالحيوان شواهد على حذف المسند وفيما يلي ذكر بعضها :

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٢٧/١١١٥)

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ ، فقلت : أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : وما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ قلت : أين ؟ قال إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم " [١]

جاء هذا الحديث سياق التحذير من مخالفة أمر النبي صلى الله عليه سلم ، وذلك حين شبه صلى الله عليه وسلم قلّة من يردون حوضه ممن دنوا منه من هؤلاء المخالفين بقلة الإبل الهمل بالنسبة لغيرها مما لها راعٍ ، فهؤلاء المخالفون لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبل لا راعي لها يرعاها ويؤمّن لها حاجاتها ويهتم بها ، فهم قوم مُهْمَلون لا قيمة لهم في ذلك اليوم ، وهم قلّة بالنسبة لمن يردون الحوض وبذلك تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا به من أوامره صلى الله عليه وسلم .

أما بالنسبة للحذف فقد ورد في الحديث شاهدان على حذف المسند ، الأول في قوله : (بينا أنا نائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم . . .) ، حيث حذف المسند (وهو الخبر) بعد (إذا) الفجائية[٢] ، وتقدير الكلام (بينما أنا نائم إذا زمرة قائمة أو ماثلة أو أمامي) ، وغرض الحذف هنا الإيجاز وثقة بأن السامع قادر على تقدير ما حُذِف .

والشاهد الثاني على حذف المسند في الحديث قوله : (حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ ، فقلت : أين ؟ قال : إلى النار والله . . .) ، حيث حذف الخبر من الجملة الاستفهامية ، وتقدير الكلام (فقلت : أين تؤديهم أو أين تأخذهم أو أين مآلهم ، فجاء جواب الملك ، قال إلى النار والله) ، وغرض الحذف هنا – الله تعالى أعلم – الإيجاز وتشويق السامع للإنصات ومتابعة الحديث .

وشاهد آخر على الحذف قوله صلى الله عليه وسلم : " . . . وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٨٧/١١٣٩)

(٢) عند من عدّها حرفًا ، أما إن عُدت اسمًا فلا حذف .

أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به ولنعم المجيء جاء . . . " [١]

جاء هذا الحديث في سياق وصفه صلى الله عليه وسلم لرحلة المعراج ولقائه بالأنبياء وفيه يصف لنا تلك المشاهد الغيبية العجيبة التي رآها . وفي الحديث شاهدان : أولهما على حذف المسند إليه وذلك في قوله : (قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل) وتقدير الكلام (قيل هذا جبريل) فحذف المبتدأ وهو المسند إليه إذ لا داعي لذكره لدلالة السياق عليه ، والشاهد الثاني على حذف المسند – وهو ما يهمنا هنا – في قوله في الجملة التالية : (قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد) ، حيث حذف الخبر ، وتقدير الكلام (محمد معي) ، إذ هو أيضًا جواب عن سؤال سبق فلا داعي لذكره .

ثالثًا : حذف المفعول به :

يكثر حذف المفعول به في الكلام ، والهدف من ذلك إثارة المتلقّي للبحث عنه ، أو تجربة ذكائه ، أو تنبيهه لمتابعة الكلام ، إلى غير ذلك من الأغراض التي يأتي من أجلها الحذف . واعلم أن لطائف الحذف كثيرة ، يقول الشيخ عبد القاهر وهو يتحدث عن حذف المفعول : (فإن الحاجة إليه أمس ، وهو بما نحن بصدده أخص ، و اللطائف كأنها فيه أكثر ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أنجب وأظهر) .[٢]

ولقد ورد حذف المفعول في بعض أحاديث التشبيه بالحيوان لأسرار بلاغية منها :

١– الإيجاز :

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل " [٣]

جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في الوضوء والطهارة لذلك اختار له تلك الصورة الجميلة المحفزة صورة الخيل التي يحبها العربي ويعتبرها من أثمن ما يمتلك في الدنيا وكم تغنى بها في شعره

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧/٥٣٥)

(٢) دلائل الإعجاز ص١٥٣

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٦) صفحة ٢٩

ورجزه ، وهذا الخيل خيل مميزة حيث إنها لها غرّة بيضاء ومحجّلة فهي من أجمل الخيل وأثمنها .
والشاهد في الحديث في قوله : (فليفعل) ، حيث حذف المفعول به ، وتقدير الكلام فليفعله ، أو فليفعل ذلك أي إطالة الغرّة ، والحذف هنا للإيجاز إذ سبق ذكر ما يدل عليه صراحة وهو الأمر بإطالة الغرّة ، ولا داعي لتكراره .

وعليه جاء قوله صلى الله عليه وسلم : " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له " [١]
وذلك في سياق الحدود والديات حيث ينهى النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب الاستفهام الإنكاري أن يعضّ أحد أخاه أو أن يؤذيه بأي حال .
والشاهد في الحديث قوله : (أيعضّ أحدكم كما يعض الفحل) ، حيث حذف المفعول به من الجملة ، وتقدير الكلام : أيعض أحدكم أخاه . . .) ، وذلك للإيجاز ولدلالة السياق عليه فلا حاجة لذكره .

٢- الإشارة إلى كونه معلومًا :

وقد يكون الغرض من حذف المفعول كونه معلومًا وعليه جاء قوله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة وآل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحتجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " [٢]
جاء هذا الحديث في سياق الحث والتشجيع على قراءة القرآن والاهتمام بقراءة تلك السورتين البقرة وآل عمران حيث صورهما بالغمامتان والغيايتان والفرقان من الطير ، وقصد بذلك كل ما يمكن أن يستظل به الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما فتكون وقاء له من حرارة شمس ذلك اليوم .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

والشاهد في الحديث قوله : (أو فرقان من طير صواف) ، حيث حذف مفعول اسم الفاعل (صواف) ، وتقدير الكلام صواف أجنحتها ، ومسوّغ الحذف هنا كون المحذوف معلومًا بدلالة الحال ، فالطير لا تبسط حين طيرانها إلا أجنحتها ، والله يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا إِلى الطيرِ فَوْقَهُم صَافَاتٍ وَيَقْبِضن ما يُمْسِكهنَّ إلاَّ الرحمنُ إنه بكلِ شيءٍ بصير ﴾.[1]

٣- إثبات الفعل للفاعل دون النظر إلى المفعول :

وقد يكون حذف المفعول لتوجيه النفوس إلى الفاعل وعليه جاء قوله صلى الله عليه وسلم في قصة خالد بن الوليد رضي الله عنه مع عوف بن مالك في غزوة مؤتة : " قتل رجل من حمير ، رجلاً من العدو ، فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عوف ابن مالك ، فأخبره ، فقال لخالد : " ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ " قال : استكثرته ، يا رسول الله ! قال : " ادفعه إليه " فمر خالد بعوف ، فجرَّ بردائه ، ثم قال : هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغضب ، فقال : " لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم ، كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا ، فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضًا ، فشرعت فيه ، فشربت صفوه ، وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم " .[2]

والشاهد فيه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد) ، حيث حذف المفعول الثاني للفعل (أعطى) في الجملتين ، وتقدير الكلام (لا تعطه سلبه يا خالد) ، ومسوّغ ذلك كون المحذوف معلومًا إذ سبق ما يدلّ عليه ، والغرض من الحذف هنا - والله تعالى أعلم - توجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل وعدم الانشغال بالمفعول ، وذلك لأن الغرض من منع النبي صلى الله عليه وسلم لخالد أن يعطيه سلبه التوبيخ والعقاب ، أما السلب في ذاته فخارج عن غرض الكلام الرئيس ، وإن كان منع السلب هو العقوبة .

---

(١) سورة الملك ، آية ١٩

(٢) صحيح مسلم (٧٤٥/٤٥٧٠)

رابعًا : حذف الصفة :

الصفة فضلة وليست عمدة في الجملة والكلام ، لكن حذفها فيه ما فيه من إثارة النفس واستشرافها في الكشف عنها ولمتابعة الكلام ، وقد وردت بعض الأمثلة على حذف الصفة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لأغراض منها :

١- المبالغة في الصفة :

وذلك في قوله النبي صلى الله عليه وسلم في وصفه لرحلة المعراج والدابة التي ركبها في رحلته (البراق) وهي دابة لا يعرفها الناس فأراد أن يقرّب لهم صورة هذه الدابة حين قال : " . . . وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به ولنعم المجيء جاء . . . " [١]

فشبه النبي صلى الله عليه وسلم البراق بالدواب التي يعرفها الناس ويستخدموها في زمنه تقريبًا لأذهانهم وإيضاحًا لمسمى غريب على أسماعهم فوصف البراق بالبياض من حيث اللون وبالتوسط بين البغل والحمار من حيث الحجم والارتفاع ، ويلاحظ المتأمل لجملة (وأتيت بدابة أبيض) أن فيها حذفًا ، وتقدير الكلام (وأتيت بدابة لونها أبيض) ، حيث حذف الصفة ، والغرض من ذلك الإيجاز ، كما أن هناك غرضًا آخر يبدو لي والله أعلم هو المبالغة في وصف هذه الدابة ومدحها فالبياض في الوصف عند العرب يحمل معانٍ عديدة منها : الصدق والإخلاص والصفاء والنقاء والنظافة والنور والإضاءة ، فكل هذه المعاني واردة في ذهن السامع لهذه الجملة وذلك بخلاف لو قال : وأتيت بدابة لونها أبيض لكان بذلك قد حصر الوصف وقصره على اللون دون غيره من تلك المعاني المتعددة .

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧/٥٣٥) .

٢- التوبيخ :

وقد يكون الغرض من الحذف التوبيخ ومن ذلك ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم في سياق الحدود والديات : " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له "[(١)] ، حيث نهى صلى الله عليه وسلم بأسلوب الاستفهام الإنكاري أن يعضّ أحدٌ أصبع أخيه ، وذلك في قصة يعلى بن منية لما قاتل رجلاً ، فعض أحدهما أصبع صاحبه ، فانتزع يده من فمه ، فنزع ثنّيته ، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم بينهما بأن أهدر ديّة العاضّ ، ولم يجعل له قصاصًا ، بل وبّخه كما في رواية أخرى حين قال : " ما تأمرني ؟ تأمرني أن آمره أن يدع يده في فيك تقضمها ، كما يقضم الفحل ؟ ادفع يدك حتى يعضها ، ثم انتزعها " [(٢)]

والشاهد في الحديث الأول قوله : (لا دية له) ، حيث حذف الصفة ، وتقدير الكلام (لا ديّة مفروضة له ، أو لا ديّة يستحقها) ، فحذف الصفة وذلك إيجازًا لدلالة السياق عليها ، كما أن في حذف الصفة هنا إيحاء بالتوبيخ من حيث أن الداعي ليس له حق في دعواه فلا يستحق أن يطال في الكلام معه في إصدار الحكم .

خامسًا : حذف الظرف والجار والمجرور :

كذلك مما تكرر حذفه في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين الظرف والجار والمجرور وقد جمعتهما تحت عنوان واحد لأنهما متشابهان من حيث أن كل منهما يعتبر شبه جملة كما أنه يمكن أن يقدر أحدهما مكان الآخر ، وقد كثر حذفها في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين ومن أغراض حذف الظرف :

١- الإيجاز :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في سياق الندب إلى الصلاة إلى سترة والنهي عن المرور بين يدي المصلي : " إذا وضع أحدكم بين يديه مثل مؤخرة الرحل ، فليصل ، ولا يبالي من مرّ وراء

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧٠) صفحة ٧٠٩

ذلك " [١] . أوجز النبي صلى الله عليه وسلم الحديث حينما استخدم فن التشبيه لبيان مراده بالسترة وحجمها ، وقطع كل تساؤل عن هذه السترة بعد أن شبهها بمؤخرة الرحل وهو أمر محسوس ومتوفر في البيئة العربية .

والشاهد في الحديث قوله : (فليصل) حيث حذف ظرف المكان وتقدير الكلام فليصل خلفها أو فليصل وراءها ، والمحذوف هنا يمكن الاستغناء عنه بما تقدّم من الحديث في قوله : (إذا وضع أحدكم بين يديه) أي أمامه فالغاية من الحذف هنا الإيجاز وبعث الفكر وتنشيط خيال السامع ، وإثارة انتباهه ؛ ليقع على مراد الكلام ، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال .

وعليه جاء قوله صلى الله عليه وسلم : " لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر ، وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد " [٢] . في هذا الحديث يحث صلى الله عليه وسلم أمته على الإيمان بقضاء الله وقدره حين نفى عن نفسه وعن أمته العدوى والطيرة ، كما عبّر فيه عن عظيم خوفه وشفقته على أمته من الأوبئة والأمراض حين أمر بالفرار من المجذوم ، وبذلك يربيهم على الأخذ بالأسباب الذي لا يتعارض مع الإيمان بقضاء الله .

والشاهد في الحديث قوله في أوّله (لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر) ، إذ يشعر القارئ للحديث بحذف جزء من الكلام ، ويبدو لي أن تقديره – والله أعلم – : لا عدوى عندنا ولا طيرة عندنا ، فحذف ظرف المكان إيجازًا وليزيد بعد هذه العادات الجاهلية عنه وعن أمته .

من أغراض حذف الجار والمجرور في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

١ – العناية والاهتمام :

وعليه جاء قوله صلى الله عليه وسلم : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه ، حتى تكون مثل الجبل " .[٣]

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (١١١١) صفحة ٢٠٢

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٥٧٠٧) صفحة ١٠٠٩

(٣) المصدر السابق حديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

جاء هذا الحديث في سياق الحث على الصدقة ولو بالقليل حيث بين فيه صلى الله عليه وسلم قيمة الصدقة من الكسب الطيب مهما قلّ حجمها وقيمتها الحسية بالنسبة للناس في الدنيا حين ساوى حجمها بحجم التمرة ، ثم بين قيمة هذه الصدقة عند الله وكيف أن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها ويكلؤها بالرعاية وينميها حتى تغدو كالجبل يوم القيامة .

أما شاهدنا في الحديث فهو في قوله : (ثمّ يربيها . . .) ، وتقدير الكلام : ثم يربيها له أو لصاحبها ، فحذف الجار والمجرور إيجازًا ولعلم المخاطب به من سياق الكلام السابق ، وربما يكون في تصوير اهتمام الرب سبحانه بالصدقة بصورة اهتمام الناس بتربية الفلّو ما يغني عن ذكر الجار والمجرور هنا وكأنه يربيها لنفسه فهو أكثر حرصًا عليها من صاحبها .

٢- الإيجاز :

وقد يكون الغرض من حذف الجار والمجرور الإيجاز وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر ". [(١)]

جاء هذا الحديث في سياق الحث على غسل يوم الجمعة والتبكير في حضور الصلاة ، حيث بيّن صلى الله عليه وسلم مقدار أجر المبكرين ومن بعدهم بتشبيه أجورهم بحيوانات ثمينة بالنسبة لهم .

والشاهد فيه قوله : (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة . . .) وتقدير الكلام : ثمّ راح إلى المسجد أو إلى الصلاة ، وقد تكرر حذف الجار والمجرور في بقية الجملة التالية لها والتقدير فيها جميعًا (إلى الصلاة أو إلى المسجد) ، والغرض كما هو واضح الإيجاز لمعرفة المخاطب بالمحذوف من السياق إذ سبقت جملة (من اغتسل يوم الجمعة) وفيها دلالة على أن الحديث يتعلق بصلاة الجمعة والتبكير إليها.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

٣- التعريف والتنكير :

التعريف هو الإعلام [١] وهو ضد التنكير وهما بابان واسعان من أبواب علم النحو و ظـــاهرة من ظواهر العربية شديدة التشعب والتداخل والتعقيد ، لكن لهما دور لا يستهان به في صحة كثير من التراكيب العربية ، وإدراك وظائف العناصر اللغوية فيها ودقة التعبير والوصـــول إلى الغايات من الكلام .

وقد تحدّث النحاة عن المعارف وأقسامها ، وهي : الضمير ، والعلم ، واسم الإشـــارة ، والاسم الموصول ، والمعرّف بالألف واللام ، والمضاف إلى واحد ممّا سبق .[٢]

ولن أتقيد بالترتيب السابق لأقسام المعارف وإنما سأُعنى في دراستي في هذا المبحث بما يتصل بالناحية البلاغية التي يمكن أن يلحظها دارس الأساليب لاسيّما ما يدعم صورة التشبيه بالحيوان في أحاديث الصحيحين .

١- التعريف بالاسم الموصول :

بدأت بالتعريف بالاسم الموصول لأنه دقيق المسلك ، يحتاج منك إلى غوص ، ويتطلب إعمال فكر [٣] ، ولأنه المهم في أنواع التعريف ، حيث تكثر إشاراته [٤] والأغراض التي يؤتى من أجلها بالاسم الموصول كثيرة ، تدرك بالقريحة الجيدة ، والحس المرهف .

---

(١) مختار الصحاح مادة (عرف) ص ١٩١

(٢) اعتمدت المشهور في أقسام المعارف حين عددتها ستّة ، وإلاّ فسيبويه لم يذكر منها إلاّ خمسة ، وذلك حيث لم يعتدّ منها الاسم الموصول . وبعض المتأخّرين قد عدّوا منها النكرة المقصودة في باب المنادى ، وأصبحت عندهم سبعة . ينظر: الكتاب، ٢/٥-٦، وأوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك ٧٧/١ ، جمال الدين ابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية (صيدا بيروت)، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، وشرح قطر الندى وبل الصدى ، جمال الدين ابن هشام الأنصاري ، تحقيق عرفان مطرجي ، الطبعة الثانية مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨م .

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، للدكتور فضل حسن عباس دار الفرقان الطبعة العاشرة عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، ص٣٢٠

(٤) ينظر كتاب خصائص التراكيب ص٢٢٩

من أغراض التعريف بالموصول في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : التعظيم :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها " [(١)] جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في قراءة القرآن معاهدته ومراجعته حتى لا يتعرض للنسيان حيث أخرج لنا صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في صورة بيانية رائعة كان من شأنها أن تؤثر في نفس السامع وتوصل له المعنى المراد من أقصر طرقه وذلك بتشبيه سرعة نسيان القرآن وتفلّته من صدور الرجال بسرعة تفلّت الإبل في عقولها .

والشاهد في الحديث قوله : (فوالذي نفسي بيده ...) حيث عرّف ذات الله في القسم بالاسم الموصول والغرض من ذلك تعظيم ذات الله ، وكان يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم بقوله : (والله) مثلاً وهو قسم موجز ويؤدي الغرض وهو التأكيد ، لكنه تجاوز ذلك إلى تعريف ذات الله بالاسم الموصول ؛ لأن في ذلك تعظيم لذات الله أولاً ثم دعوة إلى توحيده حيث إن حياة كل نفس بيده ، ثمّ تعظيمًا للأمر المقسم عليه وهو تأكيد تفلت القرآن والدعوة إلى تعاهده ومراجعته .

ثانيًا : الإيجاز والتفخيم :

وقد يكون الغرض من التعريف بالموصول الإيجاز والتفخيم ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين ، فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب) " [(٢)]، وذلك في قصة زوجة عبد الرحمن بن الزبير القرظي عندما ادعته عليه من العنة وذلك في الحديث المشهور في باب الطلاق وباب اللباس في صحيح البخاري والحديث طويل لكن الشاهد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين) حيث عرّف المسند بالاسم الموصول قاصدًا بذلك الإيجاز واستهجان ذكر ما زعمت من أن زوجها غير قادر على إتيانها وأن ذلك سبب طلبها الخلع منه .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

(٢) صحيح البخاري (١٠٢٧/٥٨٢٥)

ثالثًا : التفخيم والتهويل :

والتفخيم والتهويل من الأغراض المهمة للتعريف بالموصول ، وشاهد ذلك في نفس جملة الحديث السابق (هذا الذي تزعمين ما تزعمين) فـ(ما) هنا اسم موصول بمعنى الذي وقصد بالتعريف به هنا تفخيم أمر زعمها وتمويله ؛ لما فيه من سوء الأدب والغيبة والافتراء على زوجها حيث أفاد التعريف بالصلة هنا مالا يفده التصريح بالظاهر ولا بشيء آخر من أنواع التعريف ، وكأنه قال : تزعمين شيئًا لا يمكن وصفه لشدته وعظمته .

رابعًا : التقليل والتحقير :

ومن أغراض التعريف بالموصول أيضًا التقليل ومثاله الحديث الذي يقصّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا من خبر موسى مع الخضر حيث يقول في آخره : "... فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر : يا موسى ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر ..."[١] في هذه الجزئية من الحديث يبين عليه الصلاة والسلام سعة علم الله ، فقد شبه عليه الصلاة والسلام علم الخضر وعلم موسى – عليهما السلام – بجانب علم الله – سبحانه – بما أخذه العصفور من ماء البحر ، فعلم موسى والخضر مثل ما علق في منقار العصفور وعلم الله بقية البحر .

والشاهد في الحديث قوله : (إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر) ، حيث عرّف بالصلة (ما) وهي بمعنى الذي والغرض من التعريف بها هنا – والله أعلم – التحقير والتقليل حيث أراد أن يبين قلّة مقدار ما ينقصه منقار العصفور من ماء البحر إذا نقر في البحر لصغر حجم منقاره ، كل ذلك ليؤكد حقارة علم الناس بالنسبة لعلم الله سبحانه ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[٢] ، وبهذا الاستخدام للاسم الموصول دعم للتشبيه في الحديث .

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٠١/٥٧٠)

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٨٥

٢- التعريف باسم الإشارة :

اسم الإشارة ما دلّ على مسمى وإشارة إليه [(١)] والأصل في أسماء الإشارة أن تكون لمحسوس ، وقد يترل غير المحسوس مترلة المحسوس .

وللتعريف باسم الإشارة دواع وأهداف بيانية يمكن أن تتلمس في الكلام الجيد ، وأن تستنتج من السياق . [(٢)]

وللتعريف باسم الإشارة أغراض كثيرة منها :

أولاً : تمييز المسند :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تقيء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا " [(٣)]

لما جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في الصدقة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحث الناس على التعجّل في إخراجها قبل استغناء المحتاجين عنها ، وفي نفس الوقت أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس حقارة المال في آخر الزمان ودناسته ليحرصوا على التخلص منه في وجوه الخير ، كما أراد أن يبين ندامة مقترفي الخطايا والجرائم في سبيل الحصول على المال وجمعه ، كل هذه المعاني جمعاها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز ، والهدف اتحاد هذه الصور لترغيب الناس في الصدقة قبل فوات الأوان .

والشاهد في الحديث قوله : (فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي) حيث عرف المسند هنا باسم الإشارة والغرض من ذلك كما يظهر تمييز المتحدث عنه – وهو المال – تمييزًا ظاهرًا وكاشفًا لوصفه بأنه السبب في قتله كما أنه السبب في قطع الرحم وقطع اليد ، وألمحُ في ذلك أيضًا فائدة أخرى من التعريف باسم الإشارة هنا وهي تحقير المال الذي كان الناس يقتتلون

---

(١) ينظر شرح قطر الندى وبلّ الصدى ، ص ١٤٩ ، حاشية رقم ١

(٢) البلاغة فنوها وأفنالها ص٣١٥

(٣) صحيح مسلم الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، حديث رقم (٢٣٤١) صفحة ٣٩٢

عليه وتقطع رحمهم بسببه وأيديهم في سرقته فهو الآن أحقر ما تراه عين إنسان بدليل أنهم تركوه وأهملوه بعد أن كثُر و لم يأخذوا منه شيئًا (ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا) .

ونلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم قد استخدم اسم الإشارة (هذا) المستخدم للإشارة إلى القريب وذلك لبيان قرب المال من قلوب الناس وحبهم الشديد له ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾[1]

ثانيًا : الإيجاز والتحقير :

وقد يكون الغرض من تعريف المسند إليه باسم الإشارة الإيجاز والتحقير ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور في باب الطلاق وباب اللباس في صحيح البخاري مخاطبًا ومعاتبًا امرأة عبد الرحمن بن الزبير القرظي لمّا ادعت عليه من العنة : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين ، فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب) [2]

حيث عرّف المسند إليه باسم الإشارة ويبدو لي أن في ذلك فائدتين الأولى الإيجاز والتركيز حيث وفّر اسم الإشارة هنا كلامًا كثيرًا تفادى به النبي صلى الله عليه وسلم التكرار الذي يترهل به الأسلوب ولولا اسم الإشارة لاحتاج النبي صلى الله عليه وسلم إعادة القصة وما ادعته المرأة على زوجها ، يقول الدكتور محمد أبو موسى : (ومن المزايا البارزة لأسماء الإشارة أنها تعين المتكلم على التركيز والإيجاز وتفادي التكرار الذي يترهل به الأساليب ويتثاقل به وثوبها إلى القلب) [3] هذا هو الغرض الأول للتعريف باسم الإشارة هنا .

والغرض الثاني تحقير هذا الادعاء من المرأة على زوجها بالعنة كما أن فيه توبيخًا لها وبيان أن ما ادعته كذبًا وافتراءً بدليل وجود أبناء عبد الرحمن معه وشبههم الشديد به . وانظر هنا إلى براعة النبي صلى الله عليه وسلم في استخدام هذه الأساليب البلاغية في أفضل صورها وأعلى مستوياتها لتؤدي وظائفها البيانية المرادة وتوضيحها بدقة متناهية تخدم السياق وتشد انتباه المخاطبين .

---

(١) سورة العاديات آية رقم ٨

(٢) صحيح البخاري (٥٨٢٥/١٠٢٧)

(٣) خصائص التراكيب ص ٢٤٣-٢٤٤

ثالثًا : التمييز والتحقير :

وقد يكون الغرض من تعريف المسند إليه بالإشارة التمييز والتحقير ، ومثال لما مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بالسوق ، داخلاً من بعض العالية ، والناس كنفته ، مر بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " [(١)]

وفيه شاهدان للتعريف باسم الإشارة الأول قوله : (أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟) ، والثاني قوله : (فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم) والغرض فيهما واحد وهو تمييز المتحدث عنه (الجدي) ووصفه بالأسك ، كما أنه يحمل معنى التحقير والهوان وقلة القيمة وهذا هو المعنى العام للحديث ، وقد دعمه النبي صلى الله عليه وسلم بالصورة حين شبه هوان الدنيا عند الله بهوان الجدي الأسك الميت عند الناس .

٣- التعريف بالإضافة :

الإضافة : نسبة بين اسمين على تقدير حرف الجرّ توجب جرّ الثاني دائمًا ويسمى الأول مضافًا والثاني مضافًا إليه .[(٢)]

والمعرَّف بالإضافة ما اكتسب التعريف من إضافته إلى معرفة من المعارف الخمس السابقة ، ويرى البلاغيون أنّه يؤتى بهذا النوع من التعريف إذا لم يكن للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع أخصر منه ، أو أن ينوي به المتكلم نوع تعظيم أو تحقير ، أو إذا كانت الإضافة تغني عن تفصيل إلى غير ذلك من الأغراض التي تدلّ عليها القرائن .[(٣)]

وقد أكثر النبي صلى الله عليه وسلم استخدام التعريف بالإضافة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين وذلك لأن هذا النوع من أنواع المعارف يساعد على إحضار المتحدث

---

(١) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)

(٢) الكامل في النحو والصرف والإعراب ، أحمد قبّش ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٤م ، ص ١٨١

(٣) ينظر : الإيضاح ص ٥٠ ، والبلاغة فنونها وأفنانها ص ٣٣٢

عنه في ذهن السامع من أخصر طريق ، كما أنه يوحي في كثير من الأحيان بالتعظيم ، أو التحقير بحسب المعنى الذي يدل عليه لفظ المضاف إليه ، فنلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على هذا النوع من التعريف لأنه يفيد الإيجاز في الدلالة على المراد كما أنه يعين السامع على فهم المراد من التشبيه أو التصوير في هذه الأحاديث .

ومن أغراض التعريف بالإضافة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : استحضار المنهي عنه في ذهن السامع :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم " اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [(١)] في هذا الحديث ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صفة معينة للسجود وهي انبساط اليدين على الأرض لأن ذلك يشعر بالتهاون في الصلاة وقلّة الاعتناء بها لذلك شبه من يبسط يديه في السجود بالكلب حيث اختار صلى الله عليه وسلم صورة قبيحة ليشبه بها فاعل هذا الانبساط .

والشاهد في الحديث قوله : (انبساط الكلب) حيث أضاف الانبساط وهو مدّ الذراعين على الأرض إلى الكلب وفي ذلك فائدتان والله أعلم الأولى : الإيجاز في إحضار صورة الانبساط المنهي عنه في ذهن السامع وبيان الهيئة المحرّمة في السجود . الثانية : تحقير هذا الصنيع والهيئة في السجود بإضافتها للكلب ؛ لأنها تشعر بالتهاون في الصلاة ، وبذلك تنفر نفوس المؤمنين منها وتنتهي عنها لقبح صورة المضاف إليه .

ونلاحظ هنا كيف سخّر النبي صلى الله عليه وسلم التعريف بالإضافة في خدمة الصورة القبيحة المراد النهي عنها .

ثانيًا : التعظيم والإكرام والتشريف :

ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل " [(٢)] هذا الحديث فيه حث وترغيب

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٦) صفحة ٢٩

على الوضوء والطهارة لذلك شبه النبي صلى الله عليه وسلم علامة أمته التي يعرفهم بها يوم

القيامة بعلامة معروفة ومميزة في الخيل وهي الغرّ والتحجيل وهما بياض في ناصية الخيل وقوائمها والمراد بها هنا والله أعلم النور الكائن في وجوه أمته صلى الله عليه وسلم من أثر الوضوء .

وفي الحديث شواهد على التعريف بالإضافة أولها قوله : (أمتي) حيث أضاف كلمة (أمة) إلى ضمير المتكلم (الياء) العائد على النبي صلى الله عليه وسلم ، والغرض من التعريف بالإضافة هنا تعظيم هذه الأمة وإكرامها حينما نسبها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ؛ لأنه أعظم نبي وأكرم نبي وفي ذلك تشريف للأمة المنتسبة إليه . وفي الحديث شاهدٌ آخر قوله : (يدعون يوم القيامة) حيث عرّف اليوم بإضافته للقيامة وذلك لأنه أخصر طريق إلى إحضاره في ذهن السامع ، كما أنه يتضمن تعظيمًا لشأن المضاف وهو ذلك اليوم الذي يقوم الناس فيه لربّ العالمين . وفيه شاهدٌ ثالث وهو قوله : (من آثار الوضوء) حيث عّرف آثار بإضافتها للوضوء وفي ذلك اختصار وتعظيم .

التنكير :

والتنكير ضدّ التعريف ، والنكرة كما يقولون – ما شاع في جنسه دون أن يدلّ على معين ، فإذا قلت : جاءني رجل . وهذا كتاب . فإنهما يصلحان لكل رجل وكتاب ، ولا يدلان على رجل معين ، أو كتاب معين . وللتنكير أغراضٌ كثيرة تستدعيها البلاغة ، ويحتمها المقال. [1] لعل من أبرزها : إرادة عدم الحصر والعهد ، أو التنبيه على تعظيم المنّكر أو تحقيره ، أو إرادة معنى التكثير أو التقليل .

وقد النبي صلى الله عليه وسلم استخدام التنكير عندما احتاج إليه كما استخدام نقيضه وهو التعريف فيما سبق .

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ص ٣٤٢

وقد جاء التنكير في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لأغراض بلاغية منها :

أولاً : التعظيم والشمول :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا "(١)

يصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم صنفين من الناس متوعدين بدخول النار يوم القيامة لم يرهما النبي صلى الله عليه وسلم ولا الناس في عصره ، لكنه صلى الله عليه وسلم وصفهما لنا في هذا الحديث للتحذير من الوقوع في صفاقم ، والذي يهمنا في هذا المبحث التنكير الذي استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم ليخدم به الصورة والسياق في الحديث .

صدّر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بالتنكير حين قال : (صنفان من أهل النار) ونلاحظ هنا حاجة السياق لهذا التنكير فقد نكّر النبي صلى الله عليه وسلم كلمة (صنفان) ليعظّم شأنها لدى المتلقين ، وبالتالي يتطلّعون لسماعها . وهذه النكرة بما فيها من دلالة الشمول والتعظيم باعثة للسامع على الإصغاء حتى يتلقّى ما يسند إليها ، حتى إذا حكم عليهما بأنهما من أهل النار زاد حرص السامعين على معرفة سبب ذلك ليتقوه ويحذروه .

وفي الحديث شاهد آخر هو قوله : (قوم معهم سياط كأذناب البقر) حيث نكّر كلمتي (قوم وسياط) والغرض من هذا التنكير والله أعلم تحديد النوع أو الجنس والإيحاء بالتكثير .

ثانيًا : التحقير والتنفير :

وقد يكون الغرض من التنكير التحقير والتنفير ففي الحديث السابق قوله : (نساء كاسيات عاريات) حيث نكّر كلمة (نساء) ثم وصفها بوصف غريب جمع فيه بين العري والكسوة وهما متناقضان وذلك للدلالة على أن ما يلبسنه هؤلاء النسوة لباس ضيق أو شفاف

---

(١) صحيح مسلم (٩٠٦/٥٥٨٢)

يرى من خلاله جسدهن أو لون بشرتهن وهو لباس غير ساتر ، والغرض من تنكير كلمة نساء والله أعلم تحقير هؤلاء النساء وبيان خطئهنّ وعقوبتهنّ .

ثالثًا : التمييز :

وقد يكون الغرض من التنكير التمييز وبيان النوع ، ومثاله في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين قول النبي صلى الله عليه وسلم في وصفه لرحلة المعراج ولقاء الأنبياء في الحديث الطويل : " ... وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به ولنعم المجيء جاء ... " (١)

في هذا الحديث يصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض العجائب التي رآها في رحلة المعراج ومن تلك العجائب الدابة التي أُسْرِيَ بالنبي عليها وهي البراق ، لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم وصف هذه الدابة قال : (وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق) ، والغرض من التنكير هنا والله أعلم تعظيم هذه الدابة المميزة التي تشبه في شكلها ولونها البغل والحمار لكنّها تتميز بالسرعة الفائقة والعجيبة التي نقلت النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماء في وقت قصير وجزء من الليل .

رابعًا : التكثير :

وقد يكون الغرض من التنكير التكثير ، ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تجدون الناس كإبلٍ مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة ".(٢) (أراد أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة) .(٣)

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧/٥٣٥)

(٢) صحيح مسلم (٦٤٩٩/١٠٥٧)

(٣) لسان العرب (٥/١٧١)

والشاهد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : (كإبل) حيث نكّر ولم يقل تجدون الناس كالإبل المائة ، والغرض من التنكير هنا والله أعلم إرادة التكثير .

خامسًا : التقليل :

وقد يكون الغرض من التنكير التقليل ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق : (لا يجد الرجل فيها راحلة) حيث نكّر كلمة (راحلة) والغرض من التنكير هنا إرادة التقليل أو الندرة في الوجود .

وهنا نلاحظ كيف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الصورة البيانية وهي تشبيه الكثير من الناس بالإبل وتشبيه الكامل في الخير والزهد منهم بالراحلة وبين التنكير لتتضافر هاتين الصورتين مع التنكير في الدلالة على الكثرة في التشبيه بالإبل ، وإرادة القلة في التشبيه بالراحلة.

٣- الإطلاق والتقييد :

الإطلاق نقيض التقييد ، وهو في اللغة يعني التخلية والإرسال ، يقال: أطلقته إطلاقا ، إذا خُلِّيَ سبيله .[١]

وفي الاصطلاح : هو (أن يذكر الشيء باسمه ولا يقرن به صفة ولا شرط ولا عدد ولا زمان ولا شيء يشبه ذلك)[٢].

وعلماء البلاغة لا يسترسلون في الكلام عن الإطلاق وبلاغته ، لأنّ ما يمكن أن يصدق عليه يتناولونه في الحديث عن أحوال المسند إليه والمسند .

أمّا التقييد فهو مصدر (قيّد ، يقيّد) إذا وضع له القيد . والقيد (لغة) المنع ، والضّمّ ، والضبط ، وكلّ شيء أُسِر بعضه إلى بعض.[٣]

والقيد – عند علماء المعاني – :" ما ليس مسندًا ، ولا مسندًا إليه ، ولا مضافًا إليه ، ولا صلة"[٤] .

ويقول ابن فارس : " والقيد أن يذكر بقرين من بعض ما ذكرناه ، فيكون ذلك القرين زائدًا في المعنى . من ذلك قول القائل : (زيدٌ ليثٌ) ، فهذا إنما شبّهه بليث في شجاعته ، فإذا قال : (هو كالليث الحَرِبِ) فقد زاد (الحرب) وهو الغضبان الذي حُرِبَ فريسته ، أي سُلِبها .فإذا كان كذا كان أدهى له "[٥] ، ومن هذا نرى أن التقييد هو وضع القيد أو الحدّ أو الضبط لشيءٍ سواءً كان هذا الشيء مسندًا أو مسندًا إليه ، وهذا القيد يضيف معنى جديدًا إلى معنى أحد ركني الإسناد .

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ٣/٤٢٠، باب الطاء واللام وما يثلّثهما، مادة (طلق).

(٢) الصاحبي ، ١٤٦ ، أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ، تعليق أحمد حسن بسج ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م .

(٣) ينظر: لسان العرب، ١١/٣٦٨-٣٦٩، مادة (قيد).

(٤) معجم البلاغة العربية ، ٥٦٢، د/ بدوي طبانة ، دار المنارة (جدّة) ودار الرفاعي (الرياض) ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٥) الصاحبي لابن فارس ص ١٤٦

ويقيّد المسند إليه بالتوابع والضمير ، بينما يقيّد المسند بأدوات الشرط والمفاعيل على اختلاف أنواعها . وهذه القيود التي تلحق المسند والفعل خاصةً يكون الغرض منها تربية الفائدة " وأما تقييد الفعل بمفعول ونحوه فلتربية الفائدة كقولك : ضربت ضربًا شديدًا ، وضربت زيدًا ، وضربت يوم الجمعة ، وضربت أمامك ، وضربت تأديبًا ، وضربت بالسوط ، وجلست والسارية ، وجاء زيد راكبًا ، وطاب زيد نفسًا ، وما ضرب إلا زيدٌ ، وما ضربت إلا زيدا " [1] "معنى ذلك أنّك إذا قلت : ضربت ، فقد أفدت فائدة ، فإذا قلت : ضربت زيداً ، كانت الفائدة أكثر ، فإذا قلت : ضربت زيداً يوم الجمعة ، زادت عن سابقتها ، وهكذا كلّما زاد الحكم قيداً زاد فائدة ، ألا ترى أنك في المثال الأول أفدت وقوع الضرب منك فقط ، وفي الثاني أفدت وقوع الضرب منك على زيد ، وفي الثالث أفدت وقوع الضرب منك على زيد يوم الجمعة ، وهكذا كلّ مثال كان أكثر فائدة مما قبله باعتبار ما قد أضيف إليه . وتربية الفائدة تعني أيضًا تقرير المعنى وتأكيده "[2]

من أسرار التقييد في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

١- تفصيل الحكم :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ؟ أو يجعل الله صورته صورة حمار ؟ " .[3]

ورد هذا الحديث في صفة الصلاة وظاهر الحديث يقتضي تحريم رفع رأس المأموم قبل الإمام لكونه توعد عليه بالمسخ وهو أشد العقوبات .[4]

ويتضح معنى النهي والتحريم من خلال تقبيح صورة من رفع رأسه قبل الإمام حيث توعده بأن يجعل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار [5].

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ص ١٤٠

(٢) ينظر خصائص التراكيب لأبي موسى ص ٣٥٣ - ٣٥٤

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩١) صفحة ١١٣

(٤) ينظر كتاب فتح الباري ، ج٢، ص ٢١٥

(٥) ظاهر هذا الحديث يقتضي تحريم رفع رأس المأموم قبل الإمام لكونه توعد عليه بالمسخ وهو أشد العقوبات .

والذي يعنينا في هذا المبحث القيود التي قيّد بها النبي صلى الله عليه وسلم الحكم في هذا الحديث ولعل أول ما يواجهنا فيه جملة الشرط وهي قوله : (إذا رفع رأسه قبل) حيث قيّد الفعل بأداة الشرط (إذا) الدالة على غلبة الظن في وقوع الفعل – مع تحريمه – كما قيد هذا الفعل وهو رفع الرأس بظرف الزمان (قبل) لتحديد زمن الرفع المحرم ؛ لأن الرفع من السجود أو الركوع كفعل في الصلاة ليس محرمًا في ذاته بل هو واجب بعد الإمام لأنه من المعلوم أن إتباع الإمام واجب في الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم : " إنما جُعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا صلى جالسًا فصلوا جلوسًا "[1] لكن التحريم في الرفع خاص بزمن محدد هو قبل الإمام ، وانظر إلى التقييد في هذا الحديث كيف فصّل الحكم وفرّق بين الرفع الواجب والرفع المحرم في الصلاة .

٢- **تحديد حدوث الفعل :**

هذا واضح في قوله النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَتَرَعُهُنَّ ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها " [2]

الحديث يصور لنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في دعوتهم إلى الحق وتحذيرهم من الوقوع في المحرمات التي تودي بهم إلى النار ، كما يصور لنا موقف الناس من هذه الدعوة وصدّ الكثير منهم عنها واقتحامهم النار .

نلاحظ في الحديث السابق أنه صلى الله عليه وسلم قيد فعل (استوقد) بمفعول به حيث قال : إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا ، وذلك لتربية الفائدة بزيادة عناصر الجملة لدى المتلقي ، كما في هذا التقييد للفعل بالمفعول تحديد واضح لحدث الفعل وزيادة التخصيص له بالمفعول .

---

(١) فتح الباري ، ج١ ، ص ٢٠٤

(٢) صحيح البخاري (١١٢٤/٦٤٨٣)

٣- القطع بوقوع الحدث :

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق : (فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها) وهي جملة شرطية قيد من الشرط على جزائه ؛ لأن (لما) بمعنى حين للظرف من الزمان ، والفعل في زمن المضي بفعله وجزائه ، وذلك للقطع بوقوعه ، فمثل بعثت النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته للناس مع عدم استجابة بعضهم لهذه الدعوة وهلاكهم بسبب مخالفتهم لما أمر به صلى لله عليه وسلم أمر حاصل ومقطوع به ، كمثل ما هو حاصل من سقوط الفراش وهذه الدواب في النار حين إيقادها في الليل .

٤- تحديد مكان الحدث :

وذلك في جملة (يقعن فيها) من الحديث السابق حيث قيد فعل الفراش بالجار والمجرور لتحديد مكان الوقوع أي في لنار .

٥- تحديد زمن الفعل :

ومثاله قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " [(١)]

وذلك حين قيد الاغتسال بظرف الزمان يوم الجمعة ، ثمّ خصّ الغسل بالمفعول المطلق (غسل الجنابة ، ثم راح) ؛ ليحدد بذلك كله زمن الغسل وهو يوم الجمعة وصفته وهو غسل الجنابة ، وما يتبعه من عمل معين (ثم راح) أي إلى صلاة الجمعة أو إلى المسجد .

٦- الحث على المبادرة :

وذلك أيضًا في الحديث السابق حين قيّد فعل الاغتسال باسم الشرط (من) في قوله : من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، حيث قيّد فعل الاغتسال بشرط

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

وجزاء واستخدم أداة الشرط (من) الدالة على العاقل لأن المخاطب هنا هم المسلمون ، وجزاءه من الأجر كالذي قرّب بدنة وهي من أفضل الأنعام وأثمنها والجزاء من جنس العمل ، وفي ذلك ما فيه من الحث على المبادرة إلى الصلاة .

وعليه أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم : (فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر) وهي جملة شرطية مصدّرة بأداة الشرط (إذا) الدالة على جزم الوقوع لتؤدي فائدة تدعم الفكرة العامة للحديث وهي التبكير إلى الصلاة حيث أن خروج الإمام المقطوع بحصوله يكون سببًا في حضور الملائكة لسماع الذكر وانشغالهم بذلك عن الحاضرين من الناس بعد خروج الإمام ، ونفهم من ذلك أنهم لا يكترثون بمن يأتي بعد حضور الإمام ولا يسجلون له شيئًا من الأجر . وفي هذه الجملة الأخيرة (فإذا خرج الإمام ...) تقييد وقت انتهاء تسجيل الملائكة للحاضرين من الناس كما أن فيها حثًا على التعجيل إلى الصلاة والحرص على سماع الخطبة .

٤- التقديم :

التقديم : مصدر قدّمه ، يقدّمه ، إذا جعله قُدَّامًا ، أو مُقدَّمة . والمقدَّم من كلّ شيءٍ أوّله .[١]

، وأما التأخير فهو نقيض التقديم ، وهو جعل الشيء في النهاية من الخلف ، أو جعله بعد موضعه اللائق به .[٢]ومقدّمة الجيش بكسر الدّال أوّله . وقدّامٌ ضدُّ وراءٍ .[٣]

والتقديم والتأخير وإن كانا في وضع اللغة كلمتان متضادتان ، فهما في العرف البلاغي مرتبطتان ارتباطًا وثيقا حتّى كأنّهما مصطلح واحد ، والمراد به " جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصليّة ، أو بعدها ؛ لعارض اختصاص ، أو أهميّة ، أو ضرورة " [٤].

والتقديم من المباحث المهمة في علم المعاني ، التي تبحث في بناء الجمل ، وصياغة العبارات ، وتأمل التراكيب ، لكي يبرز ما يكمن وراءها من أسرار ومزايا بلاغية ، ولذا يقول عنه عبد القاهر : " هو باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثمّ تنظر فتجد السبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء ، وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان " [٥]

ويقول الهاشمي في ترتيب الألفاظ : " معلوم أن الألفاظ قوالب المعاني . فيجب أن يكـــون ترتيبها الوضعي حسب ترتيبها الطبعي . ومن البيّن أن رتبة المسند إليه التقديم لأنه المحكوم عليه ، ورتبة المسند التأخير إذ هو المحكوم به ، وما عداهما فهو متعلقات وتوابع تأتي تالية لهمـــا في الرتبة ، ولكن قد يعرض لبعض الكلم من المزايا والاعتبارات ما يدعو إلى تقديمها وإن كان من حقها التأخير فيكون من الحسن إذًا تغيير هذا الأصل ، واتباع هذا النظام ليكون المقدَّم مشيرًا

---

(١) ينظر : المعجم الوسيط ، ٧٢٠ ، مادة (قدم).

(٢) المرجع السابق ، ٨-٩ ، مادة (أخر).

(٣) ينظر : مختار الصحاح ٢٣٢ ، مادة (قدم) .

(٤) الإكسير في علم التفسير ، ١٥٤، سليمان بن عبد القويّ الطوفي البغدادي ، تحقيق عبد القادر حسين ، المكتبة النموذجيّة (الجماميز) ، بدون تاريخ .

(٥) دلائل الإعجاز ص١٠٦

إلى الغرض الذي يؤدي إليه ومترجمًا عما يريد " [١]

وعندما ننظر في أجزاء الجملة ، ونتأمل الجزء المقدّم فيها ، فسنرى أنه الجزء المهم ، ولم يقّدم إلا لكونه الأهم ، وموضع عناية المتحدث واهتمامه ، فالعناية والاهتمام أصل في كل تقديم ، إلا أنه ينبغي أن يمتد تأملنا في سرِّ التقديم إلى أبعد من ذلك ، فنعرف سبب العناية ونقف على دواعي الأهمية ، لذلك حذّر الشيخ عبد القاهر البلاغيَّ من أن يقف عند حدّ العناية والاهتمام دون أن ينقِّب عن دواعي الاهتمام ، ويفتش عن أسباب العناية وفي ذلك يقول : " وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم ، من غير أن يُذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك ، قد صَغُرَ أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوَّنوا الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبُّعه والنظر فيه ضربًا من التكلُّف . ولم ترَ ظنًّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه " [٢]

ومن أغراض التقديم المهمة تمكين الخبر في ذهن السامع وتقوية الحكم ، والتشويق ، وإفادة التخصيص ، والتنبيه على الخبرية ، والتفاؤل .

من أغراض التقديم في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : تقديم الخبر على المبتدأ إذا كان الخبر شبه جملة :

ومثال ذلك في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين قول النبي صلى الله عليه سلم : " ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه " [٣] ، ورد هذا الحديث في سياق النهي عن الرجوع في الصدقة والهبة بعد قبضها ، حيث صوّر لنا العائد في هبته بصورة الكلب الذي يتقيأ ثم يأكل قيأه ، وهي صورة غاية في القبح والبشاعة تنفر منها النفوس المؤمنة.

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تأليف السيد أحمد الهاشمي ، ضبط وتدقيق وتوثيق د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ، عام ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ ، ص ١٢٣

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص١٠٨

(٣) صحيح البخاري (٢٦٢٢/٤٢٤)

والشاهد في الحديث قوله : (ليس لنا مثل السوء . . .) ، وأصل الكلام (ليس مثل السوء لنا . . .) ، فقدم الجار والمجرور وهو الخبر على المبتدأ وذلك لغرض بلاغي هو تخصيص نفي مثل السوء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أمته .

ثانيًا : تقديم المبتدأ والخبر فعل :

ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم :" إن الإيمان ليَأْرِزُ إلى المدينة ، كما تَأْرِزُ الحيّة إلى جحرها "[١] ، جاء هذا الحديث في سياق بيان فضائل المدينة المنورة حيث شبه صلى الله عليه وسلم رجوع الإيمان إليها برجوع الحية إلى جحرها إذا خافت .

والشاهد فيه قوله : (إنّ الإيمان ليأرز ...) ، حيث قدّم المبتدأ وهو (الإيمان) ، على الخبر الذي هو الجملة الفعلية (ليأرز) ، وأصل الكلام (يأرز الإيمان إلى المدينة) ، والغرض من ذلك - والله تعالى أعلم - الاهتمام بالمقدم وهو الإيمان ، ثمّ تشويق المخاطب لما سيحكم به النبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، لاسيما وقد صدر الكلام بالتوكيد بإنّ فتشتاق النفس لمعرفة المحكوم به على الإيمان .

ثالثًا : تقديم المفعول به :

ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يدخل الجنة أقوام أفئدهم مثل أفئدة الطير "[٢] جاء هذا الحديث في سياق وصف الجنة ونعيم أهلها وفيه يشبّه النبي صلى الله عليه وسلم قلوب أهل الإيمان الذين يخافون الله بقلوب الطير ، فهم قوم خافوا عقاب الله في الدنيا فاتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ورحموا الناس والدواب في تعاملهم معهم في الدنيا فكان هذا جزاؤهم دخول الجنة .

وشاهدنا في هذا الحديث قوله : (يدخل الجنةَ أقوامٌ) حيث قدّم المفعول به (الجنة) على الفاعل (أقوام) ، فوضع المفعول به في رتبة غير رتبته الأصلية ، وهذا التقديم للمفعول به على

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٢/١٨٧٦)

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٧١٦٢) صفحة ١١٦٦

الفاعل من شأنه تشويق المتلقي للفاعل المتأخر عن مترلته المعهودة به ، فوجود المفعول به المنصوب دليل على وجود الفاعل المرفوع ، وهذا الفاعل الذي سبقه المفعول قد أُثير السامع له ؛ لأن المتلقي إذا سمع المفعول به (الجنة) استبشر وتفاءل وتعلق قلبه وتشوقت نفسه لمعرفة من هم الذين يدخلون الجنة وما صفاقم التي سيذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا سمع الفاعل المؤخر (أقوام) وما وصفوا به أعجب به وتمكن من نفسه ولقي بغيته فتمثل به وحرص على الاتصاف به ليكون من أهل الجنة .

رابعًا : تقديم الجار والمجرور على العامل :

وقد يكون تقديم الجار والمجرور لإفادة التخصيص ، وعليه جاء وصف النبي صلى الله عليه وسلم للدجال وأفعاله في الأرض وما يكون منه آخر الزمان ، عن النواس بن سمعان ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال : " ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة ، فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : " غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . . . " والشاهد في آخر الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة " .[1]

يصف صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث شِرَار الناس الذين تقوم عليهم الساعة ، حين يجامع الرجال النساء بحضرة الناس ، حيث شبه فعلهم هذا وعدم اكتراثهم بالناس بفعل الحمير ، ولما كان هؤلاء القوم الشرار هم المخصوصين بقيام الساعة عليهم قدّم النبي صلى الله عليه وسلم الجار والمجرور على الفعل والفاعل فقال : (فعليهم تقوم الساعة) فالغرض من تقديم الجار والمجرور – والله أعلم – هو تخصيص قيام الساعة عليهم أي على شرار الناس وتعلقه بهم دون غيرهم من الناس ؛ لأن المؤمنين تقبض أرواحهم قبل قيام الساعة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في نفس الحديث : (فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً ، فتأخذهم تحت

(١) صحيح مسلم (٧٣٧٣/١٢٠٠)

آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم) .

وعليه جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تقيء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا " (١)

في هذا الحديث يحث النبي صلى الله عليه وسلم الناس على التعجّل في إخراج الصدقة قبل استغناء المحتاجين عنها ، وفي نفس الوقت أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس حقارة هذا المال في آخر الزمان ودناسته ليحرصوا على التخلص منه في وجوه الخير ، كما أراد أن يبين ندامة مقترفي الخطايا والجرائم في سبيل الحصول على المال وجمعه ، كل هذه المعاني جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز .

والشاهد في هذا الحديث قوله : (في هذا قتلتُ) ، (في هذا قُطعت رحمي) ، (في هذا قُطعت يدي) حيث قدّم الجار والمجرور المتعلق بفعل (قتلتُ ، وقُطعت) على الفعل والفاعل في الجملة الأولى وعلى نائب الفاعل في الجملتين التي بعدها ، وأصل الكلام (قُتلتُ في هذا ، وقُطعت رحمي في هذا ، وقُطعت يدي في هذا) ، والغرض من تقديم الجار والمجرور هنا والله أعلم التخصيص ، وكأنه قال : (في هذا المال قتلت لا في غيره من الفتن) ، كما أن في بقية الحديث قصر قطع الرحم على سبب واحد هو المال ، وكذلك قُطعت يد السارق في سرقة المال لا في غيره .

كما نلاحظ أنه بنى الفعل للمجهول في الجمل الثالث التي قدّم بها الجار والمجرور ؛ ليبين أن المهم أن قطع اليد قد حصل وتحقق في الدنيا وكل ذلك كان بسبب واحد لا ثاني له هو المال وفتنته بغض النظر عن فاعل القطع ؛ لأن المهم هنا إبراز السبب دون الاهتمام بالفاعل ؛ وذلك لينصبّ اهتمام المتلقي على سبب هذه الجرائم وهو حب المال ليحذر منه وليعلم أنه السبب الرئيس في أكثر الجرائم والخصومات بين الناس في هذه الدنيا ، وليعلم أنه في آخر الزمان لن يكون لهذا المال القيمة التي له اليوم لكثرته في آخر الزمان واستغناء الناس عنه (ثمّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا) .

---

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٣٤١) صفحة ٣٩٢

المبحث الثاني

سمات الجملة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين

١_ التعبير بالجملة الاسمية أو الجملة الفعلية .

٢_ الأساليب الإنشائية .

٣_ التوكيد والقصر.

١_ التعبير بالجملة الاسمية أو الجملة الفعلية .

الكلام العربي لا يخرج عن أن يكون جملة اسمية أو فعلية ، والمتكلم يعبّر بالجملة الاسمية أو الجملة الفعلية أو يزاوج بينهما بحسب ما يستدعيه المقام .

ونقصد بالجملة الاسمية الجملة التي تبدأ باسم ويسمى مبتدأ وما بعده خبر كـ(زيدٍ قائمٍ) ، والجملة الفعلية التي تبدأ بفعل وما بعده فاعل كقام زيدٌ .

وعلماء البلاغة حينما يقسمون هذا التقسيم ، لا يقفون عند هذه الناحية اللفظية ، فيكتفون بالقول بأن هذه جملة اسمية وهذه جملة فعلية ، وإنما يذكرون هذا توطئة لما بعده مما يقصد البلاغيون ، فلكل من الجملة الاسمية والفعلية أغراضها البيانية ، ومميزاتها البلاغية .

قال الشيخ عبد القاهر : (موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء . وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت شيئًا بعد شيء . فإذا قلت : " زيدٌ منطلق " ، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك " زيد طويل " ، و" عمرو قصير " : فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تعرض في قولك : " زيد منطلق " لأكثر من إثباته لزيد . وأما الفعل ، فإنه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت : " زيدٌ هاهو ذا ينطلق " ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا،وجعلته يزاوله ويزجّيه).[١]

وخلاصة رأي البلاغيين عن الجملة بنوعيها كالآتي :

أولاً : الجملة الاسمية تدل على ثبوت شيء لشيء ، وربما تفيد الدوم والاستمرار بقرينة ، فإذا كان الخبر فيها اسماً مفردًا أو جملة اسمية فهي تفيد الثبوت ، ويأتي الدوام بالقرائن . وإذا كان الخبر فيها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد .

ثانيًا : الجملة الفعلية تدل على الحدوث والاستمرار بمعونة القرائن .[٢]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٤

(٢) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، ص٩٤

من بلاغة التعبير بالجملة الاسمية والجملة الفعلية في أحاديث التشبيه بالحيوان في لصحيحين :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة " (١)

في هذا الحديث وصف دقيق لحال المنافق يبيّن صلى الله عليه وسلم تردد المنافق وجنوحه مرة إلى المسلمين ومرة إلى الكفار واضطرابه وعدم استقراره حين شبّهه بالشاة العائرة ، وهي الشاة المترددة الحائرة بين غنمين لا تدري لأيهما تتبع .

بنى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث من جملتين أولاهما جملة اسمية (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين) ، دلت هذه الجملة الاسمية على الثبوت ، فهذه الصفة وهي صفة الاضطراب والتخبط صفة ثابتة للمنافق ؛ لذلك جاء بها صلى الله عليه وسلم اسمية ليثبت هذه الصفة للمنافق .

أما الجملة الثانية (تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة) ، فهي جملة فعلية قصد بها الدلالة على التجدد والحدوث ، وذلك لأنّ تخبط المنافق وتأرجحه بين المؤمنين والمنافقين صفة مستمرة ومتجددة فيه فهو يسلك طريق المؤمنين تارة ثم لا يجد الأمن لأنه لا يؤمن بهذا الدين حق الإيمان بل هو في شكٍ منه ، وما تبعه إلا خوفًا من المسلمين لما قويت شوكتهم ورغبةً بالغنائم والهبات التي كان صلى الله عليه وسلم يغدق بها على أصحابه ، ثم يعود إلى طريق الكفار ليناصرهم ويؤازرهم ظنًا منه أنه سيجد الأمن والراحة ، فلا يلبث أن يشعر بالخوف من أن يلقاه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيضربوا عنقه ، وهذه الحالة التي عليها المنافق من التأرجح والاضطراب حالة متجددة فيه .

ومما جاء التعبير فيه بالجملة الفعلية قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه " (٢)

عبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن معنى اتباع أمته للأمم السابقة (اليهود والنصارى) بالجملة

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٤٣/١١٤٧)

(٢) صحيح البخاري ، حديث رقم (٣٤٥٦) صفحة ٥٨٢

الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، وقوام هذا الحديث على جملتين فعليتين الأولى (لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرًا بشر وذراعًا بذراع) نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم الجملة الفعلية واختار الفعل المضارع لزيادة الدلالة على التجدد والاستمرار في هذا الاتباع بل أكّد الفعل باللام ونون التوكيد الثقيلة حين قال : (لتتبعنّ) .
والجملة الثانية جيء بها لتؤكد هذه الفكرة وهي اتباع أمته صلى الله عليه وسلم للأمم السابقة حيث قال : (حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه) وهي أيضًا جملة فعلية فعلها ماضٍ مسبوقة بأداة الشرط (لو) وجوابها مؤكد باللام (لسلكتموه) ليثبت حرص هؤلاء المتبعين من أمته لتلك الأمم مع علمهم بخطأ هؤلاء السابقين في طريقهم ؛ لأنهم أمّا ضالون أو مغضوب عليهم ، ونلاحظ هنا مدى مناسبة هاتين الجملتين الفعليتين الدالتين على التأكيد والإصرار على هذا الاتباع .

ومما جاء التعبير فيه بالجملة الفعلية أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " .[١]

نلاحظ أن أغلب جمل هذا الحديث جمل فعلية ما عدا جملة واحدة اسمية هي قوله : (يا فلان ما شأنك ؟) . ولعل اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على الجمل الفعلية له سببان : الأول إرادة الحدوث والتجدد ، والثاني : نقل صورة هذا الموقف من مواقف الآخرة ليعيش المتلقي ذلك الموقف فيكون له أعظم واعظ ، لاسيما وقد استخدم الفعل المضارع المشعر بالحركة والتجدد والحدوث .
نعم لقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم ببلاغته ومعرفته بأساليب العربية أن ينقل لنا في هذا الحديث صورة حية ومتحركة لموقف يراه الناس يوم القيامة ، موقف ذلك الرجل الذي يجاء به يوم القيامة فيلقى في النار ، نلاحظ أن هذه الجملة جملة فعلية بُني فعلها للمجهول للعناية بالحدث الخطير الذي يعرضه الحديث ، كما نلاحظ أن هذه الجملة الفعلية مقيدة بزمن

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٤/٣٢٦٧)

وهو يوم القيامة ليعلم أن هذا الموقف وهذا المشهد منتزع من مواقف الآخرة .
(فتندلق أقتابه في النار) وانظر إلى هذه الجملة الفعلية المتجددة كيف نقلت لنا هذه الصورة البشعة لذلك الرجل وقد خرجت أمعاؤه في نار جهنم ويدور كما يدور الحمار برحاه وهنا يضيف النبي صلى الله عليه وسلم إلى بشاعة الموقف قبح صورة هذا الرجل حين شبه صورته بصورة الحمار الذي يدور برحاه .
(فيجتمع أهل النار عليه) أيضًا جملة فعلية دالة على التجدد فأهل النار يتعجبون من حال هذا الرجل فيجتمعون عليه ليقولوا له : (يا فلان ما شأنك ؟) وهذه هي الجملة الاسمية الوحيدة في هذا الحديث مصدرة بأداة النداء (يا) لنداء البعيد ، واستُخدِمت هنا لنداء القريب لسر بلاغي لعله التفجّع من حال هذا الرجل ، يليها المنادى وهو نكرة مقصودة (فلان) والمقصود ذلك الرجل الذي كان من حالة أن يلقى في النار فتندلق أقتابه فيجتمع عليه الناس ، حيث يسأله أهل النار بجملة استفهامية (ما شأنك؟) .
استفهام تعجبي من الحال التي هو عليها في النار ، والذي يزيد تعجبهم منه معرفتهم بحاله الذي كان عليه في الدنيا ويوضح ذلك السؤال التالي من أهل النار حيث قالوا له : (أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟) ، فمن كان هذا حاله في الدنيا يُظن به الظن الحسن ، ويتُوقع أن يكون في أهل الجنة فضلاً عن أن يكون على هذه الحالة في النار ، فتأتي الإجابة المؤلمة الكاشفة لهذا الغموض ، والمبينة لسبب ذلك المصير له حيث قال : (كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) جملتان فعليتان مصدرتان بالفعل المضارع لتفيد معنى التجدد والحدوث على هذه الحال في الدنيا حتى آل إلى هذا المآل والمصير في الآخرة ، حيث كان من حاله النفاق ، ونلاحظ فائدة استخدامه صلى الله عليه وسلم للجملة الفعلية لتدل على التجدد والاستمرار ففعل الأمر بالمعروف منه كان مستمرًا مع إصراره على عدم إتيانه ، ونهيه عن المنكر مستمر مع إصراره على الوقوع فيه ، وليس أعظم جرمًا من أن تعرف المنكر والحرام وتبلغ بعلمك ويقينك بحرمته أن تنكر على الناس فعله ثمّ تقع فيه بعد ذلك .

٢_ الأساليب الإنشائية :

سأتناول في هذا المبحث دراسة الأساليب الإنشائية في أحاديـث التشـبيه بـالحيوان في الصحيحين ، وهذه الأساليب هي : الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والقسم ، ولـن أتطرّق لبقية أساليب الإنشاء لعدم توفر الأمثلة عليهـا في أحاديـث التشـبيه بـالحيوان في الصحيحين .

أولاً : الأساليب الإنشائية الطلبية :

(١) الاستفهام

مادة (الاستفهام) مأخوذة من الفهم ، يقال : فَهِمَ الشيء فَهْمًا وفَهَامَةً أي عَلِمَـه ، واستفهمه الشيء فأفهمه ، وتفهّم الكلام فهمه شيئًا بعد شيء .[١] والهمزة والسين والتاء فيها تفيد معنى الطلب ، والمطلوب هنا هو الفهم .

وهو في الاصطلاح – من حيث الأصل – " طلب حصول صورة الشيء في الذهن بأدوات مخصوصة كالهمزة وغيرها " [٢]

وإن كان مدلول الاستفهام في الأصل طلب العلم بشيء لم يكن معلوما عند المستفهم بأداة خاصة ، فقد يخرج عن هذه الدلالة الأصلية إلى معان أخرى يقصدها المتكلم البليغ . والكيّس الفطن هو الذي يتأتى له مراعاة الاعتبارات الدقيقة ، وإفادة اللطائف الطريفة ، فيخبّئ من وراء السؤال عن حقيقة أمر أو عمل مقاصد أخرى لا يتعذّر على من يعرف خبايا الكلام وأفانينه أن يضع يده عليها . ومقاصد المتكلم الفرعية يستنبطها الحاذق ممّا يناسب المقام بحسب معونة القرائن فيحمل الاستفهام عليه .

---

(١) ينظر مختار الصحاح ، ٢٢٧ ، مادة (فهم) .

(٢) بغية الإيضاح ، ٣٠/٢.

وقد فطن القدماء إلى هذه المعاني الخبيئة المتولدة عن الاستفهام فتكلّم عبد القاهر عن الاستفهام الإنكاري ، وأفاض في الحديث عن بلاغته حيث يقول : (واعلم أنّنا وإن كنّا نفسّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى أنّه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجلَ ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : (فافعل) فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله فإذا ثبت على تجويزه وُبِّخ على تعنّته وقيل له : (فأرناه في موضع وفي حال، وأقم شاهدا على أنّه كان في وقت) "[١].

ثمّ جاء السكاكي وفصّل في هذه المعاني الفرعية أكثر ، فذكر فيما ذكر العرض ، والإنكار ، والزجر ، والتوبيخ ، والوعيد ، والاستبطاء ، والتخصيص ، والتعجب ، والتعجيب ، والتقرير ، وساق على كلّ منها أمثلة ، وقد ارتضى الخطيب هذا المنهج ، فاتّبع السكاكي في الاعتناء بهذه المعاني الفرعية ، وزاد على ما أورده سلفه ودعم هذه المعاني بشواهد من الكلام الفصيح[٢].

يقول الدكتور محمد أبو موسى معلقًا على سعة دلالات أدوات الاستفهام : " ما تشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدقّ من أن نحدّده تحديدا تامّا ، وأن المعاني التي يشير إليها خفيّة وهاربة لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة ، وهذا ليس بعيدًا عن طبيعة اللغة إذ إنها مهما تروّى المتكلم في كلماتها وراجع الاختيار وصقّل العبارة فلن تكون هذه العبارة مبيّنة إبانة كاملة عمّا أراد أن يبين عنه بها ، وخاصة في المواقف الحية التي هي بين أعيننا ونحن نتكلّم هذا الكلام" [٣].

وأسلوب الاستفهام من الأساليب البيانية التي يستعان بها في شدّ المتلقي إلى المعنى وتهيئته لتلقّيه ، حيث إن الاستفهام عادة ما يثير النفس ويحرّك المشاعر ويدعو العقل إلى التفكير في الجواب ؛ لذلك كان من الطبعي أن يرد في الحديث الشريف كثيرًا ، لما في هذا الأسلوب من

---

(١) دلائل الإعجاز ، ١١٩-١٢٠

(٢) الإيضاح، ٢ / ١٤١- ١٤٧ .

(٣) دلالات التراكيب ، ٢١٨ .

الحوار وإشراك المتلقي . فأسلوب الحوار محبّب إلى النفس ، فهو يضفي الحيوية على النص الأدبي الجميل ، ويدفع الملل والشرود ، ويشد انتباه السامع، ويستميل القلوب إلى الكلام المقول ، ويجعل الإصغاء لمتابعة النص أتمّ وأكمل ، ويصيّر الذهن أكثر تفتّحا وتجاوبًا.

من المعاني البلاغية للاستفهام في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : التقرير :

قال صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ – وهؤلاء في غفلةٍ أهل الدنيا ، – وهم لا يؤمنون " (١)

حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار حينئذٍ يُجاء بالموت كهيئة كبش أملح ليُذبح بين الجنة والنار بعد أن يسأل الله الفريقين عنه وعن معرفتهم به وقد رأوه من قبل فيعرفونه ، وشاهدنا هنا قوله : (هل تعرفون هذا ؟) حيث وُجّه هذا الاستفهام للفريقين أهل الجنّة وأهل النار ، ولهذا الاستفهام في الحديث أثر عجيب في نفس المتلقي ؛ لأن سؤالهم عن شيءٍ قد رأوه دليل على أن هذا الاستفهام يرمي إلى معانٍ بلاغية تفهم من السياق .

وإن كانت صورة الموت على هيئة كبش إلاّ أنهم قد عرفوه بمجرد أن نظروا إليه حيث إنهم لم يكتفوا بقولهم : (نعم) حين سُئلوا عنه ، بل زادوا على ذلك قولهم : (هذا الموت) تأكيدًا لمعرفتهم به ، والغرض من الاستفهام هنا والله أعلم هو التقرير .

والذبح للموت الذي مُثّل لهم بصورة الكبش هو بشرى بالنسبة لأهل الجنة ؛ لأنه يمثل معنى خلودهم في الجنة ، وهو في الوقت نفسه حسرة وندامة لأهل النار ؛ لأنه يمثل معنى الخلود في عذاب جهنم أعاذنا الله منها !!

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٣٠) صفحة ٨٢٣

ثانيًا : الإنكار :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ؟ أو يجعل الله صورته صورة حمار ؟ " .[١]

نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن مخالفة الإمام في الصلاة وهذا الحديث يؤكد هذا المعنى حيث شبه صلى الله عليه وسلم رأس من يرفع قبل الإمام برأس الحمار ، أو بصورة الحمار ، وفي هذا تقبيح لصورة مرتكب هذه المخالفة وإنكار عليه .

والشاهد في هذا الحديث قوله : (أما يخشى أحدكم . . .) ، حيث قصد بالاستفهام الإنكار والتحريم ، بدليل الوعيد بتحويل صورة مرتكب هذه المخالفة بصور الحمار عقابًا له .

والأمثلة على الاستفهام الإنكاري في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين كثيرة ولعل منها على سبيل الإيجاز قوله صلى الله عليه وسلم : " أردت أن تقضمه كما يقضم الفحل ؟ " [٢] ، وفي رواية أخرى " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له " [٣] وهو استفهام إنكاري بدليل تشبيه فاعل العض بالفحل تحقيرًا له وتنفيرًا من فعله .

ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري قوله صلى الله عليه وسلم " ما لي أراكم رافعي أيديكم ، كأنها أذناب خيل شُمس ؟ اسكنوا في الصلاة " [٤] ، فالاستفهام هنا أيضًا الغرض منه الإنكار بدليل الأمر بالسكون في الصلاة .

ومنه أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم : " بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ، ثم لعله يعانقها " [٥] .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩١) صفحة ١١٣

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧١) صفحة ٧١٠

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

(٤) صحيح مسلم (١٨١/٩٦٨)

(٥) صحيح البخاري (١٠٥٥/٦٠٤٢)

ثالثًا : التعجُّب :

يقول صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " [١]

يصور لنا هذا الحديث مشهدًا بشعًا لذلك الرجل حين يؤتى به يوم القيامة فيلقى في النار فإذا ألقي فيها خرجت أمعاؤه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، و في خروج أمعائه إيحاء بفساد داخله ومخالفته لظاهره .

وشاهدنا في الحديث قوله : (يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟) ، لما رأى أهل النار هذا المنظر العجيب حُقّ لهم أن يتعجبوا منه ، فكان سببًا في طرحهم لهذا السؤال (يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟) فهو استفهام تعجبي من حاله في النار مقارنةً بحاله الذي كان عليه في الدنيا ، لأن حاله في النار مخالف لما كان يتوقعه الناس ، فقد كان في الدنيا رجلاً آمرًا بالمعروف ناهياً عن المنكر .

وفي هذا الاستفهام ما فيه من التوبيخ والتحسير وزيادة في العذاب النفسي على العذاب البدني ، لما خالف ظاهره باطنه في الدنيا وخُدع به الناس استحق أن يكون هذا المصير مصيره ، وهذا الحديث تصوير وتفسير للمقت الذي ورد في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [٢]

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٤/٣٢٦٧)

(٢) سورة الصف الآيتان ٢-٣

(٢) الأمـــــــــر

أَمَرَ أَمْرًا وآمِرَةً وإمَارًا : طلب منه فعل شيء إنشاءَه فهو آمِرٌ وذلك مأمور ، والأَمْر : طلب إحداث الشيء ، و" فعل الأمر " صيغة بها يطلب فعل شيء . [١]

وأمّا في الاصطلاح فقد تعدّدت في تعريفه عبارات البلاغيين ، فيؤخذ من مجموعها أنه طلب الفعل غير الكفّ على جهة الاستعلاء مع الإلزام سواء أكان الآمر عاليًا أو مدعيًا العلو.[٢]

صيغ الأمر :

وللأمر صيغ أربع :

١- فعل الأمر : كما في قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضًا حسنًا ﴾ .[٣]

٢- المصدر النائب عن الفعل : وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : " صبرًا آل ياسر ؛ فموعدكم الجنة " .[٤] وقول عبد الله بن رواحه في "سيرة ابن هشام" :

ركضًـــــا إلى الله بغـــــير زادِ   غير التُقـــى وعمـــل المعـــادِ [٥]

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام ، مادة (أَمَرَ) ص ١٧

(٢) ينظر: مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، ٢/ ٣٠٨-٣٠٩، ومعجم البلاغة العربية، ٤٧ ، وبغية الإيضاح ، ٢/ ٤٦، وعلم المعاني ، ٣٦، البلاغة فنونها وأفنانها ١٥٣.

(٣) سورة المزمل ، آية رقم ٢٠

(٤) أخرجه الحاكم في "المستدرك" وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ١٤٠) ؛ عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي . وفي سنده انقطاع .

(٥) ينظر : السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ، لعَلي محمد محمد الصَّلاَّبي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ، الطبعة: السابعة ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م ، ص٤٠٧

٣- المضارع المقترن بلام الأمر : مثل قوله سبحانه ﴿ لينفق ذو سعةٍ من سعته ﴾[١]، وقولك: لتتق الله . ليقم كل بواجبه .

٤- اسم فعل الأمر : مثل : مه ! لا تقولن إحداكن فعلت كذا وكذا . صه ! لا تتكلم إلاّ بخير .[٢]

وقد يفيد الأمر معانٍ أخرى غير طلب الفعل على جهة الاستعلاء تدل عليها القرائن ، وتُفْهَم من الأحوال . وقد تحدّث البلاغيون عن هذه المعاني وفصّلوا القول فيها ، ومن تلك المعاني :

الدعاء ، والالتماس ، والتمني ، والتسوية ، والإرشاد ، والتهديد ، والإباحة ، والتحقير ... إلى غير ذلك من المعاني التي فصّلت شواهدها في كتبهم[٣].

من المعاني البلاغية للأمر في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : الإرشاد :

يقول صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها " [٤] جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في قراءة القرآن ومعاهدته ومراجعته حتى لا يتعرض للنسيان حيث أخرج لنا صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في صورة بيانية رائعة كان من شأنها أن تؤثر في نفس السامع وتوصل له المعنى المراد من أقصر طرقه وذلك بتشبيه سرعة نسيان القرآن وتفلّته من صدور الرجال بسرعة تفلّت الإبل في عقولها .

والشاهد هنا قوله : (تعاهدوا القرآن) حيث بدأ الحديث بفعل الأمر ، والمقصود بالأمر هنا والله تعالى أعلم الإرشاد والندب ؛ لأن قراءة القرآن في غير الصلاة من النوافل ، وليست من الواجبات قال تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون

---

(١) سورة الطلاق ، آية رقم ٧

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها ، ص ١٥٣ بتصرف .

(٣) ينظر : شروح التلخيص ، ٢/ ٣٠٩-٣١١ ، وبغية الإيضاح ، ٢/ ٤٧-٤٨ .

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه . . . ﴾[١]

والغرض من الحث على قراءته وتعاهده هو عدم إضاعته ونسيانه وتفلته من صدور المسلمين بدليل تشبيه تفلته من الصدور بتفلّت الإبل في عقولها .

ثانيًا : التهديد :

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : " ما تأمرني ؟ تأمرني أن آمره أن يدع يده في فيك تقضمها ، كما يقضم الفحل ؟ ادفع يدك حتى يعضها ، ثم انتزعها " [٢] ، وذلك في قصة يعلى بن منية لما قاتل رجلاً ، فعض أحدهما أصبع صاحبه ، فانتزع يده من فمه ، فترع ثنّيته ، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أردت أن تقضمه كما يقضم الفحل ؟ " [٣] ، وفي رواية أخرى " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له " [٤] .

والشاهد في الحديث الأول قوله : (ادفع يدك حتى يعضها ، ثم انتزعها) ، حيث أمره صلى الله عليه وسلم أن يعطيه يده ليعضها ، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم بذلك أن يهدده ويبين له سوء فعله وردّ دعوته على أخيه ، كما يحمل هذا الأمر معنى الإنكار بدليل تشبيه العاضّ بالفحل تحقيرًا لفعله وإنكارًا له .

ثالثًا : الدوام :

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا

---

(١) سورة المزمل ، آية رقم ٢٠

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧٠) صفحة ٧٠٩

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧١) صفحة ٧١٠

(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ – وهؤلاء في غفلةٍ أهل الدنيا ، – وهم لا يؤمنون " [١] ، ينقل لنا صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مشهدًا من مشاهد الآخرة التي هي محطّ أنظار المؤمنين وغاية رغبتهم وقد وظّف النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد فن التشبيه في سياق التبشير وذلك حين يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار حينئذٍ يُجاء بالموت كهيئة كبش أملح ليُذبح بين الجنة والنار بعد أن يسأل الله الفريقين عنه وعن معرفتهم به وقد رأوه من قبل فيعرفونه .

وشاهدنا في هذا الحديث قوله : (خلود فلا موت) حيث عبّر عن فعل الأمر بصيغة المصدر النائب عن الفعل (خلود) والغرض من ذلك والله أعلم الدوام أي دوام الحياة لأهل الجنة في النعيم كما نلاحظ فيه معنى الامتنان بالنسبة لأهل الجنة ، ودوام الحياة في العذاب بالنسبة لأهل النار نسأل الله العافية والسلامة .

وفي تشبيه الموت بصورة الكبش كناية عن ضعفه تتناسب مع معنى الخلود المراد والوصول إليه بعد ذبحه ؛ ولتكتمل سعادة أهل الجنة ، وتتم حسرة وندامة أهل النار .

رابعًا : التشويق :

مثاله قوله صلى الله عليه وسلم : " اعدد ستًا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " [٢]

في هذا الحديث إخبار بست علامات من علامات الساعة يخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه .

لما علم صلى الله عليه وسلم مدى خطورة هذه العلامات حيث أنها تنذر بقيام الساعة بدأ الحديث بفعل الأمر (اعدد) والغرض من الأمر هنا والله أعلم التنبيه والتشويق ليشد به انتباه الصحابة أو المخاطبين ويعلي هممهم في الصبر على مواجهة هذه الفتن العظيمة .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٣٠) صفحة ٨٢٣

(٢) صحيح البخاري (٥٢٩/٣١٧٦)

(٣) النَّهْيُ

النَّهْيُ في اللغة : خلاف الأمر وضدّه ، يقال: نهاه ينهاه نهيا : إذا كَفَّهُ . وإذا أسند الفعل إلى ضمير الفاعل جاز أن تتحوّل الهمزة واواً أو ياء تقول : نَهَوْتُه ونَهَيْتُه[١].

وفي الاصطلاح : هو طلب الكفّ عن فعل على جهة الاستعلاء[٢]. والحرف المستعمل له هو (لا) الجازمة في قولك: (لا تفعل) [٣].

والنهي من أنواع الإنشاء الطلبي ، وقد تخرج صيغة النهي عن مدلولها الرئيس- وهو طلب الكف- إلى معانٍ تعرف بالقرائن ، وتستفاد من السياق ومنها : الإرشاد ، والتهديد ، والتيئيس ،والتوبيخ ، والتسلية والتصبير ، والتحقير ، والتمني ، ويمكن أن يكون هناك معاني أخرى تُدرك بالذوق .[٤]

من المعاني البلاغية للنهي في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : التحقير :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [٥] ، ينهى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن بسط الذراعين عند السجود . ويبدو أن الغرض من النهي هو التحقير بدليل أنّه شبه قبح بسط الذراعين في السجود بقبح انبساط الكلب ؛ لأن ذلك يشعر بالتهاون في الصلاة وقلّة الاعتناء بها وهذا لا شك أنه من الأفعال القبيحة لأن فيه تهاونًا بشعيرة عظيمة هي عمود الدين وأول ما يحاسب

---

(١) لسان العرب، ١٤/ ٣١٢، مادة (نهي)، التعريفات، ٢٤٨، معجم مقاييس اللغة، ٥/ ٣٥٩، باب النون والهاء وما يثلّثهما.

(٢) ينظر كتاب بغية الإيضاح ٤٩/٢، والبلاغة فنونها وأفنانها ١٨٥ .

(٣) بغية الإيضاح، ٢/ ٤٩.

(٤) ينظر البلاغة فنونها وأفنانها ١٥٨، ١٥٩.

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

عليه العبد يوم القيامة ، والنور الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي قبل ذلك صلة بين العبد وربه ، فالمتوقع من العبد أن يهتم بها ويقبل عليها بقلبه وعقله علّ الله أن يقبلها منه فتكون سببًا في فلاحه في الدنيا والآخرة .

ثانيًا : التحذير :

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : " إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم " [1] ، في هذا الحديث يحذّر صلى الله عليه وسلم الرماة في غزوة أحد من النزول إلى أرض المعركة في أي حالة كانت سواء انتصر جيش المسلمين أو هُزم ؛ لأن النبي قد وضع الرماة على جبل خلف جيش المسلمين ليحموا ظهورهم ، ونلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم كرّر النهي في جملتين تنبيهًا منه وتحذيرًا من مخالفة أمره ، وبالغ في الوصف حين قال : (وإن رأيتمونا تخطفنا الطير) حيث شبه أخذ الأعداء للمسلمين بخطف الطير مبالغة في وصف القتل بالمسلمين .

والغرض من النهي في الحديث والله أعلم هو التحذير والتهديد ؛ لأن في نزول الرماة مضرّة عظيمة بجيش المسلمين ، وهذا ما حصل فعلاً لّما لم يكف الرماة عن نهي النبي صلى الله عليه وسلم وكانت مخالفة الرماة لنهي النبي صلى الله عليه وسلم سببًا في هزيمة المسلمين يوم أحد حتى أنه خَلُص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المعركة وقتل فيها كثير من الصحابة رضوان الله عليهم .

ثالثًا : التوبيخ :

وشاهده في قصة خالد بن الوليد مع عوف بن مالك في غزوة مؤتة وقد ثبتت في صحيح مسلم : " قتل رجل من حمير ، رجلاً من العدو ، فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عوف بن مالك ، فأخبره ، فقال لخالد : " ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ " قال : استكثرته ، يا رسول الله ! قال : " ادفعه

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٩/٥٠١)

إليه " فمر خالد بعوف ، فجرَّ بردائه ، ثم قال : هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغضب ، فقال : " لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم ، كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا ، فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضًا ، فشرعت فيه ، فشربت صفوه ، وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم " . [١]

في هذا الحديث الشريف وصف لحال الولاة في الجهاد وما يلقون من مُقاسات الأمور وإيثار الرعية على أنفسهم والشفقة عليهم والذب عنهم ، كما يصوّر لنا الهمّ الذي يحمله هؤلاء الولاة ، وما يلقونه من تحمل المسؤولية تجاه إخوانهم ، وقد ختم النبي صلى الله عليه وسلم الحديث بصورة جميلة توضح لنا تلك المسؤولية التي يقوم بها الولاة حين شبه صورة الولاة مع الرعية بصورة الرجل الذي استرعى الإبل والغنم ، والمغزى من التشبيه هو أن هذه الرعية في راحة واطمئنان لا تحمل معاناة الاهتمام حتى بنفسها طالما لها راعٍ يرعاها ويقوم على مصالحها في طعامها وسقائها وحتى في حمايتها من كل ما يؤذها أو يسيء إليها .

والشاهد في هذه القصة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد) ، حيث نهى النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يعطي الرجل سلبه ، وكرر جملة النهي تأكيدًا للنهي .

والغرض من النهي في هذا الشاهد والله أعلم هو التوبيخ حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم استغضب كما ذُكر في الحديث من صنيع عوف بن مالك وقوله حين قال : هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وحينها نهى صلى الله عليه وسلم خالدًا من أن يعطيه سلبه توبيخًا له وتأديبًا . [٢]

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٥/٤٥٧٠)

(٢) من خلال استقصائي لصور النهي في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لم أجد أغراضًا سوى التي ذكرت .

(٤) النـــــداء

النداء : بكسر النون ممدودًا ، وقد تضم — أصله رفع الصوت ، من قولهم (ندي الصوت يندى — من باب فرح) إذا ارتفع وعلا،وقد استعمل النداء في الدعاء بلفظ أي لفظ كان .[١]
وفي الاصطلاح: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو وهو "يا" أو إحدى أخواتها.[٢]

وأما حروفه فـــثمانية، وهي: أَ ، وأَيْ ، وآي ، ويا ، وآ ، وأَيـــا ، وهيـــا ، ووَا.[٣]
فالأولان منها يستعملان في نداء القريب ، والباقية منها موضوعة لنداء البعيد ، غير أنه قد يعكس الأمر فيستعمل ما هو موضوع للقريب ، كما يوضع ما هو أصل في نداء البعيد للقريب لبعض دواع لم يغفلها النحاة واهتم بها البلاغيون وذلك لأسباب من أهمها : الدلالة على أن المنادى رفيع القدر ، عظيم الشأن ، أو للإشارة إلى أنه وضيع منحط الدرجة ، أو للإشارة بأن السامع غافل لاه .

و(النداء يصحب الأمر والنهي غالبًا وكأنه إعداد النفس لهما ، وأن الأكثر أن يتقدم عليهما مثل يا زيد افعل أو لا تفعل وهو في القرآن كثير جدًا ، وقد يتأخر كقولك افعل يا زيد ومنه ﴿ وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون ﴾[٤])[٥]

ولما كان النداء من المظاهر الكلامية الطبيعية التي لا يستغني عنها أحد في محادثاته اليوميّة ، بل ممّا تقتضي متطلَّبات الحياة الاحتياج إليه حتمًا على الإنسان ، لذلك ورد في الحديث النبوي الذي يحمل التشبيه بالحيوان في مواضع ليست بالكثيرة .

---

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزء ٤ ، ص٥ ، حاشية رقم ١ باب النداء .

(٢) بغية الإيضاح ٥١/٢ حاشية رقم ١

(٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزء ٤ ، ص٦-٩

(٤) سورة النور ، آية رقم ٣١

(٥) دلالات التراكيب ، ص٢٦٣

من بلاغة النداء في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أولاً : التشويق :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم مصوّرًا موقفًا من مواقف الآخرة : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة ﴾ – وهؤلاء في غفلةٍ أهل الدنيا ، – وهم لا يؤمنون " [١]

لما كانت الآخرة محطّ أنظار المؤمنين وغاية رغبتهم كان للحديث عنها الشوق الكبير في نفوسهم والأثر الأعظم في ضمائرهم ، لاسيما الحديث عن الجنة والنار وما أعدّ الله لأصحابهما من نعيم مقيم وعذاب عظيم ، وهذا الحديث يصف لنا بشرى لأهل الإيمان وندامة أهل الكفر والنفاق ، فحينما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار حينئذٍ يُجاء بالموت كهيئة كبش أملح ليُذبح بين الجنة والنار بعد أن يسأل الله الفريقين عنه وعن معرفتهم به .

وشاهدنا في هذا الحديث قوله : (فينادي منادٍ : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح) ، حيث نادى هذا المنادي المجهول أهل الجنة ثمّ أهل النار ، ونلاحظ أولاً أن هذا المنادي لم يسم في الحديث لكن يظهر أنه معظّم من خلال عدم ذكر اسمه ، ومن خلال ندائه للفرقين وحكمه عليهما بالخلود ، كما نلاحظ أنه استخدم حرف النداء (يا) لنداء البعيد في نداء الفريقين وفي هذا إشعار بعدل الله سبحانه فكلا الفرقين عباده وخلق من خلقه لم يفرّق بينهم إلاّ بالجزاء وما أعده لكل منها من نعيم أو عذاب في هذا الموقف ، والغرض من النداء هنا والله أعلم هو التشويق وإثارة اهتمام المخاطبين إذ هو من أهم أغراض النداء ويدل على فائدة هذا الغرض هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف حال الفرقين بعد النداء

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٣٠) صفحة ٨٢٣

مباشرة فقال واصفًا حالهما : (فيشرئبون وينظرون) حيث استشرفت نفوسهم للغرض من النداء ومعرفة حكم الله فيهم ، وفي قوله : (يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت) ، الحكم الصادر الذي التهبت نفوسهم لتلقيه ومعرفته بعد النداء الأول ، والغرض من النداء في الجملة الأخيرة والله أعلم التبشير لأهل الجنة بالخلود في النعيم ، واليأس والقنوط لأهل النار في خلودهم في عذاب جهنّم .

ثانيًا : التعجب :

وشاهده في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانُ ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " [(١)] ، جاء هذا الحديث في بيان عاقبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويقع فيه ، حيث يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة من يصنع هذا الصنيع في الآخرة بصورة بشعة تبيين بشاعة صنيعهم في الدنيا .

وهذا الحديث تصوير وتفسير للمقت الذي ورد في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [(٢)] فالحديث يصور لنا مشهدًا بشعًا لذلك الرجل حين يؤتى به يوم القيامة فيلقى في النار فإذا ألقي فيها خرجت أمعاؤه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه .

ونلاحظ هنا روعة البلاغة النبوية حيث بدأ الحديث بتصوير هذا المشهد بأسلوب الخبر ويستمر في وصف أحداث هذا الخبر الغريب والمشوّق حتى يصل بالمخاطب بعد ذلك إلى تعليل تلك الأحداث ويكشف له سرّ هذا العذاب وهذه الإهانة الواقعة على ذلك الرجل بعد أن ملأ قلبه الشوق ليعلم أنها عاقبة من كان يأمر الناس بالمعروف ولا يفعله ، وينهى الناس عن المنكر ويقع فيه ليتمكن الخبر من قلب كل مخاطب ويبطل العجب بعد أن عُرِف السبب .

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٤/٣٢٦٧)

(٢) سورة الصف الآيتان ٢-٣

والشاهد في هذا الحديث قوله : (يا فلان ما شأنك ؟) ، حيث صدر من أهل النار نداءً موجهًا لذلك الرجل ، وهو نداء أُرِيد به التنبيه مع التعجّب من حاله بدليل أنهم أردفوا النداء بسؤال عن شأنه وسبب الحال الذي هو عليه في النار وذلك أن حاله في النار كان مخالفًا لتوقعاتهم لأنهم عرفوه في الدنيا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن النكر فتوقعوا له حالاً منعّمًا في الجنة .

ثالثًا : التخصيص :

ومثاله في قصة خالد بن الوليد مع عوف بن مالك في غزوة مؤتة وقد ثبتت في صحيح مسلم : " قتل رجل من حمير ، رجلاً من العدو ، فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عوف ابن مالك ، فأخبره ، فقال لخالد : " ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ " قال : استكثرته ، يا رسول الله ! قال : " ادفعه إليه " فمر خالد بعوف ، فجرَّ بردائه ، ثم قال : هل أنجزتُ لك ما ذكرتُ لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغضب ، فقال : " لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم ، كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنمًا ، فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضًا ، فشرعت فيه ، فشربت صفوه ، وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم " .[١]

في هذا الحديث إيضاح لحال الولاة في الجهاد وما يلقون من مُقاسات الأمور وإيثار الرعية على أنفسهم والشفقة عليهم والذب عنهم ، وفيه تصوير للهمّ الذي يحمله هؤلاء الولاة ، وما يلقونه من تحمل المسؤولية تجاه إخوانهم .

وشاهدنا في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تعطه ، يا خالد ، لا تعطه ، يا خالد) ، حيث نهى النبي صلى الله عليه وسلم خالدًا أن يعطي ذلك الرجل سلبه بعدما تمرّد وأساء الأدب مع الوالي ، وما ذلك إلا تأديب له ولغيره في التعامل مع الولاة وحفظ لحق الولاة الذين يلقون ألوان الهمّ في تولي المسؤولية ، والغرض البلاغي للنداء هنا والله أعلم التخصيص حيث خصّ تنفيذ النهي بخالد ، وفي ذلك بيان لقدر الولاة إذ هم الأداة التي بها يطبّق النظام .

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٥/٤٥٧٠)

كما نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قدّم النهي على النداء فقال : (لا تعطه يا خالد) وفي ذلك إشعار بحرص النبي صلى الله عليه وسلم على سرعة إصدار الحكم وتنفيذه والذي ينصّ على حرمان الرجل من سلبه تأديبًا له ولأمثاله من المتمردين على الولاة .

ومما يجدر التنبيه عليه في مبحث بلاغة النداء أنه من خلال استقصائي لأحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لم أجد أداة للنداء استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم غير (يا) ، وربما يكون ذلك لأن (يا) تدل على زيادة البيان والإيضاح ، أو لأنها تتضمن معنى التنبيه والتهيئة ، أولأنه اشتُهِر استعمالها للبعيد ومن هو في مترلته من نائم أو ساه ، أو لحرص المنادي عليه .

(٥) القـــسم

القسم من الإنشاء غير الطلبي وتعريفه (لغة): اليمين والإيلاء والحلف.[١]، وأقْسَمَ حَلَفَ وأصله من (القسامة) وهي الأيمان تُقْسَم على الأولياء في الدم . و(القَسَمُ) بفتحتين اليمين .[٢] وفي الاصطلاح "هو الحلف على المراد بما يكون فيه تعظيم المقسم أو غير ذلك بما يناسبه "[٣]. وقد عرّفه بعض المعاصرين بأنه " يمين يقسم بها الحالف ليؤكّد بها شيئا يخبر عنه من إيجاب أو جحد، وهو جملة يؤكّد بها جملة أخرى" [٤].

أركان القسم وأدواته:

وللقسم ثلاثة أركان هي : الجملة المؤكَّدة أو المقسَم عليه ، الجملة المؤكِّدة أو القسم (وهي جملة مفتقرة إلى غيرها إذ لا يصحّ السكوت عليها) ، الاسم المقسَم به .

ومثال ذلك قولنا : أقسمُ باللهِ إنّ العلمَ نورٌ . فقولي (إن العلم نور) هو الجملة المؤكَّدة (المقسم عليها) ، وقولي (أقسم بالله) هو الجملة المؤكِّدة (القسم) ، أمّا المقسم به هو لفظ الجلالة من المثال .

وللقسم حروف واسمان تُستعمل أدوات له ، أما الحروف فهي : الواو ، والباء ، والتاء ، واللام ، وقد اقتصر سيبويه على هذه الأربعة . و استدرك عليه المتأخّرون حرفًا خامسًا هو : مُن ، ومثاله : مُن ربّي لأفعلنّ.[٥] وأما الاسمان فهما : أَيْمُنُ ، وأَيْمُ .

---

(١) ينظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، ٢٣٤، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق د/ محمّد حسن عواد، دار الجيل (بيروت) ودار عمّار (عمّان)، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٢) مختار الصحاح ٢٣٦ مادة (قسم) .

(٣) عروس الأفراح (شروح التلخيص)، ٤٦٩/٤.

(٤) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د/ عودة خليل أبو عودة ، دار البشير للنشر والتوزيع (الرياض) ، ص٤٨٩

(٥) قال ابن يعيش: "ومن العرب من يقول: مُنْ ربّي -بضم الميم- ولا يستعملون من بضم الميم إلاّ في القسم، وذلك أنّهم جعلوا ضمها دلالة على القسم كما جعلوا الواو مكان الباء دلالة على القسم، ومنهم من يجعل (مُنْ) من قولك: (مُن ربّي لأفعلنّ) مخفّفة من (أَيْمُنُ) ". شرح المفصّل ، ٣٥/٨.

أسلوب القسم فيه قوّة وشدّة وتأكيد يأتي على خلاف المعتاد من الكلام . ولـذا ، فإنّه بوروده في كلام يجعل النفس تقف عنده ، وتتمهّل منتظرةً الجواب الذي يلقى إليها بعده ، ومُتحفّزةً للتفكير والبحث عنه ، فإذا ما ألقى المتكلم المقسم عليه بعد تلهّفٍ إليه وتَحَفُّزٍ لمعرفته وتشوّق لبيانه ، فوظيفته تهيئة المخاطب لتلقي الكلام الآتي بعده ليتأكّد لديه ، ويثبت في قلبه ، ويقر في وجدانه . ولذلك نجده يتقدّم الأمور المهمّة التي يحرص المتكلم على تأكيدها وتثبيتها في وجدان المخاطبين .

من بلاغة القسم في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

ومما يجدر التنبيه عليه هنا وقبل ضرب الأمثلة هو أنّ استعماله صلى الله عليه وسلم للقسم في كثير من أحاديثه الشريفة ليس لإثبات صحّة حديثه وكسب المصداقية من أصحابه ، وإنّما ذلك المنحى له بعد أعمق من مجرّد إرادة التصديق وغاية أسمى من مجرّد إثبات صحّة للقول ، فالصحابة رضوان الله عليهم يجزمون بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كلّ قول يقوله ، فهو لا يقسم – وحاشاه – ليجتذب القلوب لتصديقه . وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين . والواقع أن حلفه صلى الله عليه وسلم ينصرف إلى وجهة أخرى هي أنّ المحلوف عليه من الأمور المهمّة ذات البال التي ينبغي أن يستشرف لها السامع ، ويتلّقاها تلقّي الاهتمام لما تعنيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والمجتمع ، ولعل الأمثلة التي سنضربها تثبت هذه القضية بجلاء .

يقول صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها " [١] ، اشتمل هذا الحديث على قسم في موطن أحسن النبي صلى الله عليه وسلم وضعه فيه وذلك أنَّ القضية التي يتحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم جديرة بالتأكيد وتشويق المخاطبين لفهمها واستيعابها ، فبدأ الحديث بأسلوب الإنشاء حيث أمر بتعاهد القرآن وقصد بذلك قراءته ومراجعته والمداومة عليها ، وكأنه بهذه المقدمة يثير فضول المخاطب لمعرفة سبب هذه المداومة بالقراءة والمراجعة ، وهنا يزيد النبي صلى الله عليه وسلم

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

ببلاغته ومعرفته بأساليب العرب شوق السامعين بالقسم ليقول : (فوالذي نفسي بيده) حيث ألهب نفوس السامعين بهذا القسم في هذا الموضع ليزدادوا إصغاءً وتدبرًا لما سيأتي من ذكر لسبب هذا الحرص والتعاهد لتأتي بعد ذلك الشوق وتلك التهيئة النفسية العلة والسبب وهو أن القرآن أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها ، فلما كان القرآن عرضة للنسيان والتفلُّت من عقول الناس بهذه السرعة المشبهة بتفلّت الإبل من عقولها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمداومة على قراءته وحفظه ومراجعته .

ونلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم جملة القسم (فوالذي نفسي بيده) ولم يقل : والله ، مع أنه قسم وأكثر إيجازًا ، لكنه قال : (فوالذي نفسي بيده) ، وفي هذا دعوة إلى التوحيد وتعظيم للأمر المقسم عليه . وهكذا يستفاد من هذا التعبير القسمي فائدتان جليلتان ، أولاهما : الإشارة إلى أهمّيّة ما يأتي عقب هذه العبارة والتهيئة له والتشويق إلى سماعه ، والأخرى الإعلام بقدرة الخالق عزّ وجلّ والإقرار بأن نفس حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ونفوس عباده مؤمنهم وكافرهم بيده تعالى ، وأنهم لا حول لهم ولا قوّة في أمر من الأمور إلاّ به تعالى ، له الخلق والأمر .

وشاهد آخر على القسم وبلاغته في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم سياق تحريم الزنا وتحقير فاعله : " ألا كلمّا نفرنا غازين في سبيل الله ، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس ، يمنح أحدهم الكثبة ، أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه " [1] ، في هذا الحديث تعظيم لحرمة الأعراض ، وتحريم للزنا فقد جعله الله من كبائر الذنوب وأقبحها لما فيه من أضرار على الفرد والمجتمع ؛ فهو سبب في انتشار الأمراض واختلاط الأنساب ، فجاء هذا الحديث ليذمّ ويحقّر فاعله حين شبه صلى الله عليه وسلم صوت الزاني بصوت التيس عند السِّفاد .

وشاهدنا في هذا الحديث قوله : (أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه) حيث أقسم صلى الله عليه وسلم على عقاب من يقع في فاحشة الزنا أشدّ العقاب حتى يكون عظة وعبرة لمن بعده ليمتنعوا من تلك الفاحشة .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٤٢٤) صفحة ٧١٩

ونلاحظ أن في هذا القسم فائدتين الأولى : تعظيم حرمات الله وتهويل أمر الزنا للأضرار الناتجة عنه ، والثانية : تهديد كل من تسول له نفسه الوقوع في هذه الفاحشة بالعذاب وإيقاع العقوبة به بالحد الشرعي دون هوادة يقول الله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (١)

وشاهد آخر على القسم في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، لمّا دخل صلى الله عليه وسلم السوق داخلاً من بعض العالية مرّ بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال: " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " . (٢)

جاء هذا الحديث في كتاب الزهد والرقاق في صحيح مسلم ، حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم حقارة الدنيا عند الله بحقارة الجدي الأسك الميت عند الناس ، والغرض من التشبيه في الحديث بيان حقارة الدنيا وهوانها على الله ؛ لتزهد بها نفوس المؤمنين وتتوجه أبصارهم وآمالهم إلى الآخرة . وفي الحديث تشويق للمخاطب من أكثر من ناحية الأولى : تصرّف النبي الذي تعجب منه الصحابة وهو أخذه صلى الله عليه وسلم بأذن الجدي الميت ، ثمّ تشويق في السؤال الذي طرحه على الصحابة الذين معه حين قال:(أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟) ، ثمّ تكرار السؤال عليهم مع تغيير في صيغة السؤال :(أتحبّون أنّه لكم ؟) ، ثمّ القسم كل ذلك تهيئة للمخاطبين ودعوة لهم للإصغاء إليه والاستماع له ترقّبا لجواب القسم وما يحمله من أمور تهم المخاطبين حتى إذا جاء الخبر استقرّ في النفوس لأنّه جاء بعد تطلّع وتشوّق.

(١) سورة النور آية ٢

(٢) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)

وشاهدنا في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم (فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم) حيث أقسم صلوات ربي وسلامه عليه باستخدام حرف الجرّ الواو مضيفًا له لفظ الجلالة حيث أنه المقسم به ، أما المقسم عليه فهو هوان الدنيا على الله وأنها أهون عنده سبحانه من هوان الجدي الأسك الميت على الناس ، وفي ذلك تشويق للمخاطبين وتأكيد لحقارة الدنيا وهوانها على الله ، ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء .

٣- التأكيد والقصر:

من المعلوم أنّ كلَّ واحدٍ من القصر والتأكيد مبحث مستقلّ بنفسه عند البلاغيين ، ولكنّنا لاحظنا أنّ كلّ قصر يتضمّن نوعا من التأكيد ، وأنّ الأسلوبين يلتقيان في كثير من الشواهد ، لذا جمعنا بينهما في هذه الدراسة . وفيما يلي تفصيل الكلام عن كلٍّ منهما :

(١) التـــوكـــيـــد

التوكيد[1] من المصطلحات البلاغية التي أغنت شهرتها ووضوحها عن وضع تعريف جامع مانع لها ؛ ولذلك اكتفى كثير من العلماء ببيان فائدتها واستغنوا عن الخوض في تعريفها .

ومعناه في اللغة : التقوية ، تقول : " أَكَّدْتُ الشيء " وتقول " وَكَّدْتُهُ " أيضًا : إذا قويْتُهُ .[2]

وقد عرّفه صاحب (علوم البلاغة) بقوله: " التوكيد تمكين الشيء في النفس وتقويته ، لإزالة الشكوك عمّا أنت بصدد الإخبار عنه "[3].

ونقصد بالتوكيد في دراستنا هذه توكيد الحكم التي تتضمّنه الجملة بأدوات محدّدة ، وأشهر هذه الأدوات : إنّ ، ولام الابتداء ، وضمير الفصل ، والقسم ، وإمَّا الشرطية ، وحرفا التنبيه ألا وإما والحروف الزائدة ، وقد ، ونونا التوكيد وغيرها .

والتّأكيد من أبرز الظواهر الفنّية في الحديث النبوي ، بل هو من خصائص البيان النبوي ، ومما يجدر بنا أن ننبه عليه هو أنّ استخدام النبي صلى الله عليه وسلم للتوكيد في حديثه ليس المراد به إثبات صحة ما يقول ، وكيف يكون ذلك وهو الملقب بالصادق من قبل أن يوحى إليه ؟! لكنه صلى الله عليه وسلم يستخدمه للدلالة على أهمّيّة الكلام الذي يحدث به أصحابه ليثير به اهتمامهم ، ويلفت به انتباههم ، ويشوقهم به لحديثه ، حتّى يتحقّق به الإصغاء التّام ، وعلى إثر ذلك تتمّ الاستجابة وتتحقّق الفائدة .

---

(١) التّوكيد : هو بالواو أفصح من التّأكيد بالهمز ، بمعنى المؤكّد ، بكسر الكاف من إطلاق المصدر ، مرادًا به اسم الفاعل . كما في حاشية رقم ١ ص ٣٧١ في كتاب قطر الندى وبل الصدى .

(٢) التحفة السنية بشرح المقدمة الأجرومية ص٩٣ .

(٣) علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة المحموديّة التجارية ، بدون تاريخ ، ص٥٥ .

من بلاغة التوكيد في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

قال صلى الله عليه وسلم :" إن الإيمان ليَأْرِزُ إلى المدينة ، كما تَأْرِزُ الحيّة إلى جحرها " [١]

جاء هذا الحديث في بيان فضل المدينة المنورة حين جعلها عليه الصلاة والسلام كالوِجار للإسلام يتقلص إليها وينضمّ إلى حماها لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه [٢].

والشاهد في هذا الحديث استخدام النبي صلى الله عليه وسلم لمؤكدين في الجملة الأولى من الحديث حيث صدّر الجملة بحرف التوكيد (إنّ) ، ثمّ أدخل لام التوكيد على الفعل (يأرز) ليثبت للمخاطب هذه الحقيقة وهي أن الإسلام يأوي إلى المدينة ويلجأ إليها . والغرض من التوكيد كما هو بيّن بيان فضل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحثًا منه على تقديس هذه المدينة والحرص على العيش والاستقرار فيها وبيان فضلها على بقية المدن . ولم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بتأكيد قضية لجوء الإيمان إلى المدينة المنورة بل أراد أن يزيد الأمر وضوحًا وتأكيدًا حينما شبه رجوع الإيمان إليها برجوع الحية إلى جحرها إذا خافت .

وشاهد آخر يقول صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها " [٣]

لما كان القرآن دستور هذه الأمة وكتاب ربها ومنهج حياتها أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرغّب أمته في قراءته ومعاهدته ومراجعته حتى لا يتعرض للنسيان ، ولزيادة حرصه صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر أخرجه في صورة بيانية رائعة كان من شأنها أن تؤثر في نفس السامع وتوصل له المعنى المراد من أقصر طرقه وذلك بتشبيه سرعة نسيان القرآن وتفلّته من صدور الناس بسرعة تفلّت الإبل في عقولها .

وشاهدنا في الحديث قوله :(فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها) حيث أكد صلى الله عليه وسلم شدة تفصّي القرآن وتفلّته من صدور الناس حين شبهه بتفصي الإبل

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٢/١٨٧٦)

(٢) ينظر المجازات النبوية ص٨٥

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

من عقالها ورباطها إن لم تعقّل وتوثق وذلك بمؤكِّدين : القسم في قوله : (فوالذي نفسي بيده) ، والام وضمير الشأن في قوله : (لهو) ؛ وما ذلك إلا تنبيه لهم وتحذير من التهاون في أمر تدارك القرآن والمداومة على مراجعته حتى يستجيب لهذا الأمر كل من يصله هذا الحديث.

وشاهد آخر لما مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بالسوق ، داخلاً من بعض العالية ، والناس كنفته ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " (١)

أورد الإمام مسلم هذا الحديث في أول كتاب الزهد والرقاق ، وفي الحديث دلالة على فن إفادة النبي صلى الله عليه وسلم من المواقف التي تمر به وبأصحابه ، حيث استفاد صلى الله عليه وسلم من رؤية الصحابة لذلك الجدي المقطوع الأذن الميت فسألهم إن كان أحدًا منهم يحب أن يكون له هذا الجدي بدرهم ، فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم السؤال عليهم لكن هذه المرة بضمير الجمع فقال : " أتحبّون أنّه لكم؟ " فما كان ردهم إلا بالقسم تأكيدًا لعدم رغبتهم فيه واحتقارهم له واشمئزازهم منه حيث قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ وهنا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن القوم قد تهيؤ وتشوقوا واستشرفت نفوسهم لمعرفة ما سيأتي من كلامه صلى الله عليه وسلم فقال مصدرًا كلامه بالقسم : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " .

وشاهدنا في الحديث قوله : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " ، حيث أكد صلى الله عليه وسلم حقارة الدنيا عند الله بمؤكِّدين : القسم ، ولام التأكيد الداخلة على كلمة (الدنيا) ؛ لتزهد بها نفوس المؤمنين وتتوجه أبصارهم وآمالهم إلى الآخرة .

---

(١) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)

(٢) القـــصـــر

تنحصر دلالة القصر اللغوية في أصلين ، " أحدهما يدلّ على ألا يبلغ الشيء مداه ونهايته ، والآخر على الحبس "[١]. ومنه قوله تعالى : ﴿ حورٌ مقصوراتٌ في الخيام ﴾[٢]

وفي الاصطلاح : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص . والشيء الأول هو المقصور ، والثاني هو المقصور عليه ، والطريق المخصوص هو أدوات القصر ، والمراد بتخصيص الشيء بالشيء إثبات أحدهما للآخر ونفيه عن غيره ، وبهذا تكون جملة القصر في قوة جملتين ، ويكون القصر طريقًا من طرق الإيجاز ، ويكون الإيجاز من أهم أغراضه .[٣]

وللقصر تقسيمات شتّى، فهو باعتبار ما يخرج عنه (أو المقصور عنه) قسمان : حقيقي وإضافي ، والأوّل ما استبعد فيه جميع ما سوى المقصور عليه ، والثاني ما كان قصد المتكلم فيه استبعاد شيء خاص أو أشياء خاصة دون جميع الأشياء . وينقسم باعتبار طرفيه إلى قسمين أيضا : قصر موصوف على صفة دون غيرها ، وقصر صفة على موصوف دون غيره . والفرق بينهما " أن الموصوف في الأوّل لا يمتنع أن يشاركه غيره في الوصف ، ويمتنع في الثاني ، وأن الوصف في الثاني يمتنع أن يكون لغير الموصوف ، ولا يمتنع في الأوّل "[٤]. والقصر الإضافي باعتبار أحوال من يوجّه له الكلام على ثلاثة أقسام ، قصر إفراد : وهو ما يكون الكلام المشتمل على القصر موجّها لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره مشاركة المقصور عليه في المقصور ، وقصر قلب : وهو ما أريد به إعلام المخاطب بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه ، وقصر تعيين : وهو ما كان الخطاب فيه موجّها لمن يراد إزالة تشكّكه أو تردّده في المقصور هل هو منسوب إلى المقصور عليه أو إلى غيره . وهذه الأقسام مبنيّة ومفصّلة في كتب البلاغة قديما وحديثا.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، أحمد ابن فارس اللغوي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل (بيروت) ، بدون تاريخ ٩٦، باب القاف والصاد وما يثلّثهما، مادة (قصر) .

(٢) سورة الرحمن آية ٧٢

(٣) بغية الإيضاح ، ٣/٢ حاشية رقم ١

(٤) مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلميّة (بيروت) ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ، ص٢٨٩.

أمّا طرق القصر المصطلح عليها لدى العلماء فستّة ، وهي : العطف ، والنفي والاستثناء ، وإنّما ، وتقديم ما حقّه التأخير ، وتعريف طرفي الإسناد ، والفصل بين الطرفين بضمير الفصل. ومثال الأوّل: زيد كاتب لا شاعر ، والثاني : ما زيد إلاّ شاعر ، والثالث : إنّما زيد شاعر ، والرابع : شاعرٌ زيدٌ، والخامس : زيدٌ الشاعرُ ، والسادس : زيد هو الشاعر. وقد يجتمع طريقان فأكثر في أسلوب واحد . هذه طرق القصر المصطلح عليها لدى العلماء لكن شواهد القصر التي وردة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لم تجئ على كل هذه الطرق وإنما جاءت على بعضها كما سنوضح ذلك من خلال تحليلنا للشواهد ، وغالبًا ما يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم القصر بـ(إنّما) في الأحاديث المشتملة على تشبيه تمثيلي كقوله : " إنّما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها " [١] ، وكأنه بذلك يريد حصر المثل .

وأسلوب القصر من الأساليب ذات القوة والتأثير العظيم في نفس المخاطب لاسيما إذا سلك طريق المعاني المجازية وتناولها بالعبارة ترى فيه من الغموض والدقّة بمقدار ما فيه من تأثير وقوة أداء .[٢] و لعلنا فيما يلي من الشواهد نكشف عن شيء من ذلك .

من بلاغة القصر في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

أ- القصر بالنفي والإثبات :

يقول صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " [٣] قال النووي : (ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها

---

(١) صحيح البخاري (١١٢٤/٦٤٨٣)

(٢) ينظر دلالات التراكيب ص٤١

(٣) صحيح البخاري (٢١٧/١٣٥٨)

الجدع والنقص بعد ولادتها) [١]

جاء هذا الحديث لإيضاح قضية العقيدة السليمة وأن كل مولود يولد متهيئًا للإسلام ، كما يبيّن مدى تأثير الوالدين على أولادهم في اعتناق الأديان ، يشبه النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود في سلامة عقيدته بالبهيمة في سلامة أعضائها ثم يطرأ على العقيدة الانحراف بتربية الوالدين كما يطرأ الجدع والنقص على أعضاء البهيمة بما تتعرض له في حياتها .

والشاهد في الحديث قوله : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) وهو قصر طريقته النفي والإثبات حيث نفى عن كل مولود أن يولد على شيء من المعتقدات الباطلة كعبادة الأصنام أو الأديان المحرّفة كاليهودية أو النصرانية ، وإنما يولد على الفطرة السليمة فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي توحيد الله بالعبادة ، وبعد أن يكبر ويدرك يبدأ أبواه بإقناعه بالمعتقدات التي يعتقدانها ، ويعلمانه أمور الدين الذي يعتنقانه .

ونلاحظ أن النفي جاءت بعده النكرة ، وذلك يفيد العموم أي كل مولود ، ولا يعني هذا النفي أنّ المولود ليس له صفات أخرى عند ولادته غير العقيدة السليمة كأن تلده أنثى مثلاً ، أو أن يولد في الدنيا وما شابه ذلك ليس داخلاً في النفي وإنما هو مسكوت عنه و لم تتعرض له العبارة بنفي ولا إثبات لذلك نقول إنه من قبيل القصر الإضافي . ومن حيث الطرفان فالقصر قصر موصوف على صفة لأنه قصر الموصوف وهو المولود على الصفة وهي الفطرة . وهو قصر قلب ؛ لأن المتأمل في حال المخاطب وكأنه يظن عكس المراد أو كأن المخاطب يظن أن كل مولود يولد على ديانة أبويه أو أن المخاطب ينكر أن يولد المولود على الفطرة السليمة ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقلب هذا الفهم الخاطئ فقال : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، و لم يكتفِ صلى الله عليه وسلم في إيضاح هذا المعنى بجملة القصر فقط ، بل ضرب على ذلك مثلاً وبرهانًا وهو تشبيه هذا المولود من حيث كمال الفطرة فيه وسلامة العقيدة عنده حين ولادته بكمال أعضاء البهيمة عند ولادتها ، ثمّ بعد ذلك يطرأ على المولود فساد العقيدة الصحيحة بتربية والديه كما ، يطرأ على البهيمة السليمة الكاملة الأعضاء الجدع والنقص بما تتعرض له بعد ولادتها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (ج١٥/ص٣٢٠)

ب- القصر بـــ(إنّما) :

وأمثلته كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما مثل الذي يتصدق بصدقة ثم يعود في صدقته ، كمثل الكلب يقيء ثم يأكل قيأه " [١]

في هذا الحديث ينهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجوع في الصدقة أو الهبة ، ويصوّر لنا العائد في هبته بصورة غاية في القبح والبشاعة لتنفر منها النفوس المؤمنة ؛ لما في هذا التصرف من الخسّة ودناءة النفس شبه النبي صلى الله عليه وسلم فاعله بالكلب إذ من طباعه أن يأكل قيأه ، قال عنه الدميري : (وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات . والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض ؛ ويأكل العذرة ، ويرجع في قيئه) .[٢]

وشاهدنا في الحديث القصر بـــ(إنما) حيث قصر مثل الذي يتصدق بصدقة ثم يعود في صدقته على مثل الكلب ، إذ المقصور هو مثل العائد في صدقته ، والمقصور عليه مثل الكلب ، وهذا يعني أنه من قصر الموصوف على الصفة .

وفي الحديث تصريح بالذم لصاحب هذه الصفة حيث شبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالكلب العائد في قيئه .

والقصر من حيث حال المخاطبين يعتبر قصر تعيين ؛ لأن المخاطبين لا ينكرون سوء هذا الفعل وهو العود في الصدقة لكنهم نزلوا مترلة الشاكين فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكد لهم سوء هذا الفعل بالقصر ، ثم بتشبيه فاعله بحال الكلب .

ج- القصر بالتقديم :

ومثاله قوله النبي صلى الله عليه وسلم " تقيء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا " [٣]

في هذا الحديث أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحث الناس على التعجّل في إخراج الصدقة

---

(١) صحيح مسلم (٤١٧٣/٦٧٦)

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٣/ص٥٨٨

(٣) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٣٤١) صفحة ٣٩٢

قبل استغناء المحتاجين عنها ، وفي نفس الوقت أراد صلى الله عليه وسلم أن يبيّن للناس حقارة هذا المال في آخر الزمان ودناسته حين شبهه بالقيء ؛ ليحرصوا على التخلص منه في وجوه الخير ، كما أراد أن يبين ندامة مقترفي الخطايا والجرائم في سبيل الحصول على المال وجمعه ، كل هذه المعاني جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز .

لقد أخرج لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في صورة غاية في الروعة والتأثير حين صورة الأرض وكأنها بعير أصابته حالة تقيؤ وغثيان فهو يخرج ما في جوفه ، بل وَصَلَ به التقيؤ إلى أن نفد ما في بطنه فتقيأ قطعًا من كبده ولحمه لما نفد الطعام ، والعجيب أن أفلاذ الأرض ليست أكبادًا ولا لحمًا وإنما هي معادن الأرض الثمينة الذهب والفضة تخرج من جوفها بأحجام كبيرة كالأعمدة والسواري ، فيكثر المال وتقلّ رغبة الناس فيه حينها يندم من قتل وقطع وسرق لأجل المال فيقول القاتل : في هذا قُتِلتُ ، ويقول القاطع : في هذا قُطعت رحمي ، ويقول السارق : في هذا قُطِعَت يدي .ثم يدعونه (أي المال) فلا يأخذوا منه شيئًا . بعد أن كان سببًا في وقوعهم في تلك الجرائم التي ارتكبوها ونفّذت بهم أحكام الله من أجلها. أيّ بشاعة للمال وأيّ ندامة يصورها لنا هذا الحديث ؟! من شأنها أن تنبّه المخاطب لخطورة المال وتحثّه على الصدقة في الوقت نفسه .

وشاهدنا على القصر في الحديث قوله : (فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي) ، حيث قدّم الجار والمجرور على الفعل والفاعل في قوله : (في هذا قتلت) ، وأصل الكلام قتلت في هذا ، وهذا قصر طريقه التقديم ، والغرض منه قصر القتل وقطع اليد وقطع الرحم على المال وهو السبب ؛ ليحصره ويقصره عليه وحده دون غيره من فتن الدنيا ، وهو قصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، فالموصوف هو المال صفته القتل ، ونوع هذا القصر من حيث حال المخاطب قصر تعيين ، وكأنّ المخاطب كان شاكًا في سبب قتله أَقُتِلَ بسبب المال ، أم بسبب فتنة أخرى من فتن الدنيا ؟ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعين سبب القتل وقطع اليد وقطع الرحم ويقصره على المال وحده دون غيره . و بهذا القصر يبين عظمة فتنة المال وأثره البالغ في تغيير نفوس الناس وجرّهم إلى ارتكاب الجرائم والكبائر .

المبحث الثالث

سمات الجمل في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

١ - الروابط بين الجمل :

أ - الروابط اللفظية بين الجمل المتصلة .

(حروف العطف ، وأدوات الشرط)

ب - الروابط المعنويّة بين الجمل المنفصلة .

٢ - العلاقة بين الجمل من حيث اللفظ والمعنى :

إيجازًا ، وإطنابًا .

مدخل :

سأدرس في هذا المبحث العلاقات بين الجمل من روابط لفظية كحروف العطف وأدوات الشرط ، وذلك بين الجمل المتصلة ، وروابط معنوية كالاستئناف وغيره وذلك بين الجمل المنفصلة ، ثم تلمّس العلاقة بين الجمل في الإيجاز أو الإطناب من حيث اللفظ والمعنى .

يقول عبد القاهر متحدثًا عن العلاقات بين الجمل من حيث الوصل والاستئناف : " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومّما لا يأتي تمام الصواب فيه إلاّ الأعراب الخلّص وإلاّ قومٌ طبعوا على البلاغة وأوتوا فنّا من المعرفة هم بها أفراد. وقد بلغ من قوّة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنّه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل . ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة "[1].

وقد أيّد الخطيب هذا الموقف من عبد القاهر ووافقه على صعوبة معرفة مواضع الفصل والوصل حيث يقول عن هذا الفن : " هو فنّ منها عظيم الخطر ، صعب المسلك ، دقيق المأخذ ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلاّ من أوتي في فهم كلام العرب طبعا سليما ، ورُزِق في إدراك أسراره ذوقا صحيحا ، ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل من الوصل ، وما قصرها عليه لأنّ الأمر كذلك ، وإنّما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه ، وأن أحدا لا يكمل فيه إلاّ كمُل في سائر فنونها ، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه من البيان " [2].

وقال الدكتور محمد أبو موسى : (يستهدف البحث في هذا الباب المناسبات بين المعاني ، وتحديد صلات بعضها ببعض ، وكيف ساغ أن تلتقي هذه بتلك ؟ و لم عطفت و لم فصلت ؟ وما نوع الصلات وما درجتها ؟ إلى آخر هذا البحث الذي يتدبر أعطاف الجملة والجمل ليرى ما بينهما وبين أعطاف جيرانها من علاقات ، كما يتناول مقاطع الكلام ومفاصله عند

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ .

(٢) الإيضاح ص ١٥١.

منتهى أجزاء معانيه ، ما كبر منها وما صغر ، ليتأمل هذه المقاطع ويحدد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام ، فيجمع أوله وآخره ، وهل انخرط في هذا الخيط حبات من جنس واحد ؟ أو من أجناس متشابهة ؟ أم كانت تسقط فيه حبات من أجناس متباعدة ؟ وهل وقع هذا البعيد في سياقه موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص ، وتمكن فيه ؟ أم أنه ظل فيه غريبا ناشزا ينبو في مكانه وتستثقله النفوس ، ويتنافر به النظم ، أو يتشارد به الكلام ؟ [1]

أ- الروابط اللفظية بين الجمل المتصلة :

يتطلب المعنى بين جملتين أو أكثر أداة ربط لنقل معنى الجملة الأولى إلى الجملة الثانية ، أو لأخذ التبعية ، ويكون هذا بأدوات مشهورة عند علماء اللغة ، من تلك الروابط : حروف العطف ، وأدوات الشرط ، ولأهمية هذه الروابط اهتمّ بها علماء اللغة والبلاغة .

أولاً : حروف العطف :

أكثر علماء اللغة والنحو في الحديث عن العطف وأنواعه وفصلوا فيه فوائده ومعاني حروفه مالا يسمح المقام بذكره وتفصيله هنا ، لكن يمكن أن نستغني عن ذلك بما أوجزه الشيخ عبد القاهر في هذا الجانب حيث يقول : " واعلم أنه إنما يعرض الإشكال في (الواو) دون غيرها من حروف العطف ، وذاك لأن تلك تفيد مع الاشتراك معاني ، مثل أنّ (الفاء) توجب الترتيب من غير تراخٍ ، و (ثمّ) توجبه مع تراخٍ ، و(أو) تردِّد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه ، فإذا عطفت بواحدةٍ منها الجملة على الجملة ، ظهرت الفائدة . فإذا قلت : (أعطاني فشكرته) ، ظهر بالفاء أن الشكر كان مُعَقَّبًا على العطاء ومسَبَّبًا عنه = وإذا قلت: (خرجت ثم خرج زيد) ، أفادت (ثمّ) أن خروجه كان بعد خروجك ، وأنَّ مهلةً وقعت بينهما = وإذا قلت : (يعطيك أو يكسوك) ، دلّت (أو) على أنه يفعل واحدًا منهما لا بعينه .

وليس (للواو) معنىً سوى الاشتراك في لحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبعت فيه الثاني لأول . فإذا قلت : (جاءني زيد وعمرو) لم تفد الواو شيئًا أكثر من إشراك عمرو في المجيء

---

(١) دلالات التراكيب ص ٢٦٨ .

الذي أثبته لزيدٍ ، والجمع بينه وبينه " [١]، لذالك غَمُض معنى العطف بها عن قرينالها من حروف العطف ، واختُصّتْ في مبحث الفصل والوصل .

والسائر في اللسان العربي عطف الجملة على ما قبلها مباشرةً كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناضرين ﴾[٣] حيث عطف في الأولى جملاً إنشائية بعضها على بعض ، وفي الثانية عطف جملة خبرية على جملة خبرية ، لكن قد يأتي العطف على خلاف ذلك ، فقد يكون العطف على جملة سابقة لكن ليست مباشرة كما في قوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا ﴾[٤] فالظاهر أن جملة (ولا تأكلوها) معطوفة على الجملة السابقة لها وهي قوله : (فادفعوا إليهم أموالهم) وهذا غير صحيح ولا يستقيم به المعنى ؛ لأن دفع أموالهم إليهم لا يكون إلا بعد أن يكبروا ويبلغوا الرشد ، ولأن النهي عن أكل أموال اليتامى يكون قبل بلوغهم وبعده ، لذا فالصحيح أن جملة (ولا تأكلوها) معطوفة على الجملة الأولى (وابتلوا اليتامى) حتى يستقيم المعنى .[٥]

ثانيًا : أدوات الشرط :

ومن الروابط اللفظية أدوات الشرط حيث إن جملة الشرط مكونة من جملتين : جملة الشرط وهي ما يلي الأداة مباشرةً في الغالب ، وجملة الجواب أو الجزاء وهي ما يتم بها المعنى ، والرابط لهاتين الجملتين أداة الشرط الجازمة وغير الجازمة ، ومظان هذا كتب النحو التي فصلّت القول في الأركان الثلاثة : أداة الشرط ، وفعل الشرط ، وجزاء الشرط ، والذي يعنينا في بحثنا هذا تلك العلاقة بين الجملتين بعد الأداة وأثر ذلك الترابط بين الجمل في بناء المعنى العام للحديث النبوي .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية رقم ٢٠٠

(٣) سورة الشعراء ، آية رقم ٣٣

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٦

(٥) البلاغة فنونها وأفنانها ص ٤٥٨-٤٥٩ بتصرف .

وقد تحدث البلاغيون عن أدوات الشرط في تقييد المسند ، وفي الفصل والوصل ، حيث فرّقوا بين أدوات الشرط ودلالاتها وأثر هذا المعنى في نظم الجملة والجمل .

قال الخطيب : (لا بدّ من النظر هاهنا في " إن ، وإذا ، ولو " أما " إن وإذا " فهما للشرط في الاستقبال لكنهما يفترقان في شيء وهو أن الأصل في " إن" ألا يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه كما تقول لصاحبك " إن تكرمني أكرمك " وأنت لا تقطع بأنه يكرمك . والأصل في " إذا " أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه كما تقول : إذا زالت الشمس آتيك . ولذلك كان الحكم النادر موقعًا لإنْ ؛ لأنّ النادر غير مقطوع به في غالب الأمر ، وغلب لفظ الماضي مع " إذا " لكونه أقرب إلى القطع بالواقع نظرًا إلى اللفظ قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾[١] أتى في جانب الحسنة بلفظ " إذا " لأن المراد بالحسنة الحسنة المطلقة التي حصولها مقطوع به . ولذلك عُرّفت تعريف الجنس ، وأتى في جانب السيئة بلفظ " إن " لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ولذلك نكّرت)[٢]

واعلم أن كلاً من هاتين الأداتين قد تقع موقع الأخرى لغرض بياني أو نكتة بلاغية ، لكن (إذا) لا تقع موقع (إن) إلا قليلاً .

إذا أردت أن تصور الكلام المشكوك في حصوله ، غير المتيقن منه ، وكأنه محقق الوقوع ؛ فإنك تجيء بــ(إذا) – مع أنّ المقام يتطلب وجود (إن) – ؛ تقول لمن تشك في عفوه عنك : إذا عفوت عني فلك الشكر .

وتستعمل (إن) في موقع (إذا) ؛ في كلامهم لأغراض ، ومن تلك الأغراض والدواعي : إنزال العالم بالشيء منزلة الجاهل ، أو تجاهل المتكلم ، أو إذا كان المخاطب لا يجزم بما يجزم به المتكلم ، أو للتوبيخ ، أو أن نعامل غير المرتابين معاملة المرتابين ، أو غير ذلك من الأغراض والدواعي التي يقتضيها المقام .[٣]

والجمل التي تدخل عليها هذه الأدوات جمل فعلية إلا أن (أن) و (إذا) لا بد لجملتيها أن

---

(١) سورة الأعراف ، آية رقم ١٣١

(٢) بغية الإيضاح ١/١٤١-١٤٢

(٣) ينظر : الإيضاح ١/٩٣

تكونا للاستقبال ، وقد تدخل (إن) على الماضي ، ولكنه يكون ماضيًا لفظًا مستقبلاً معنى ؛ ويكون ذلك العدول عن المضارع إلى الماضي لإبراز غير الحاصل مترلة الحاصل ، وتصوير ما ليس بواقع كأنه واقع ، وذلك إما لقوة الأسباب الداعية إلى الفعل ، أو للتفاؤل ، أو للرغبة في حصول الشيء ، أو للتعريض .

أما (لو) فحرف امتناع لامتناع ، ولذا من شأنها أن تدخل على الماضي ، ويفيد عدم تحقق جملتيها ، فإذا قلت : لو اجتهدت ؛ نجحت فإنها تفيد عدم النجاح ؛ لعدم الاجتهاد ، هذا هو الأصل في (لو) ، ولكنها قد تدخل على المضارع ، وذلك إذا أريد استمرار الفعل وقتًا بعد وقت كما في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾[1] ، ولم يقل : لو أطاعكم . والهدف هو استمرار الفعل وقتًا بعد وقت ، ولو قال : لو أطاعكم . لفات ذلك الغرض . وأما دخولها على المضارع في مثل قوله سبحانه ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾[2] وهو كثير في كتاب الله ؛ فإنما عدل عن الماضي إلى المضارع ؛ لتتريله مترلة الماضي ؛ لأن الله لا تتخلف أخباره أبدًا ، وقد يكون لغرض آخر هو استحضار الصورة كأنما هي مرئية رأي العين .[3]

من بلاغة الروابط اللفظية بين الجمل المتصلة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه "[4]

---

(١) سورة الحجرات ، آية رقم ٧

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٢٧

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها ص٣٥٧ وما بعدها (باختصار) .

(٤) صحيح البخاري (٣٢٦٧/٥٤٤)

يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مشهدًا بشعًا من مشاهد الآخرة وهو مشهد ذلك الرجل الذي أُلقي في النار وخرجت أمعاؤه وراح يدور كما يدور الحمار برحاه ثم اجتمع عليه أهل النار متعجبين من حاله ومصيره بعد أن كانوا في الدنيا يظنون به الظن الحسن ؛ لأنهم خُدعوا به فقد كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لكن ذلك اليوم تبلى فيه السرائر وتكشف الضمائر ، نسأل الله الستر والسلامة في الدنيا والآخر !!

لقد أحكم النبي صلى الله عليه وسلم بناء الحديث وأحسن ربط جمله بعضها ببعض وليس ذلك بغريب على نبيٍّ مؤيد بالوحي متأثر بأسلوب القرآن نشأ واسترضع في أبلغ قبائل العرب.

جاء هذا الحديث على سبيل الإخبار فهو يقصّ علينا خبرًا من أخبار الغيب الذي أطلع الله عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإذا نظرنا إلى ترابط الجمل فيه رأينا كيف أحسن النبي صلى الله عليه وسلم استخدام حروف العطف حيث عطف الثلاث الجمل الأولى بالفاء (يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانا ما شأنك ؟) ؛ لأن هذه الأفعال من الرجل تكون متعاقبة و(الفاء) تدل على الترتيب والتعقيب ، وفي الجملة الأخيرة (قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) عطف (بالواو) ؛ لأن بين الفعلين تغاير والغرض من العطف هنا الجمع بين الفعلين المتغايرين ؛ ليُعلم سبب هذا العذاب والخزي الذي ناله يوم القيامة ، وهو اختلاف أمره ونهيه للناس عن فعله وتركه .

وشاهد آخر قوله صلى الله عليه وسلم : " غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالاً ، يا عباد الله ، فاثبتوا " .[(١)]

هذا جزء من حديث طويل في الإخبار عن الدجال وصفته ، وما معه من فتن يذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض الغيبيات من أخباره ، والذي يعنينا بالدراسة هنا الروابط اللفظية

---

(١) صحيح مسلم (١٢٠٠/٧٣٧٣)

التي ربط بها النبي صلى الله عليه وسلم بين جمل الحديث ، حيث اشتمل الحديث على مجموعة من حروف العطف وأدوات الشرط ، ولعل أول ما يواجهنا في الحديث ربطه بين جملتي الشرط بـ(إن) حين قال : (إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه) ، وهنا استخدم النبي صلى الله عليه وسلم (إن) الشرطية وأدخلها على الفعل المضارع للدلالة على الاستقبال ؛ لأن الدجال لم يخرج بعد ، واستخدم (أن) دون (إذا) ؛ لأن الشرط فيها ليس مقطوعًا بوقوعه ، فخروج الدجال في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مستبعد ؛ لذلك طمأن النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة حين قال : (فأنا حجيجه دونكم) .

وقال في جملة الشرط الثانية : (وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه) أتى بـ(إن) أيضًا مع أنّ ظهور الدجال مقطوع بوقوعه ؛ وذلك لأنه أنزل المخاطبين منزلة الجاهلين ؛ لخطورة هذه الفتنة ولتنبيه الناس لها فليس فتنة أخطر على الناس من الدجال لذلك ما من نبي إلاّ وحذّر قومه المسيح الدجال ؛ لذلك كله استخدم النبي صلى الله عليه وسلم (إن) في موضع (إذا) والله تعالى أعلم .

كما أن في الحديث أداة شرط أخرى في قوله : (فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف) ، حيث ربط بين الجملتين الشرطيتين باسم الشرط (مَنْ) وهي أداة شرط تستخدم للعاقل ، وهنا يدل النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الملاذ ، ويمنحهم السلاح الذي يواجهون به تلك الفتنة العظيمة وذلك الطاغية الجبّار حين أمر من يدرك الدجال من أمته أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف .

ب - الروابط المعنويَّة بين الجمل المنفصلة :

والمقصود بالدراسة في هذا المبحث هو العلاقة المعنوية بين الجمل التي لم توصل بالروابط اللفظية التي سبق الإشارة إلى بعضها في المبحث السابق ، ونبدأ مبحثنا هذا بتعريف الفصل والوصل فنقول والله المستعان :

الفَصْلُ واحد الفصول . وفَصَلَ الشيءَ فانفصل أي قَطَعَهُ فَانْقَطَع وبابه ضرَبَ .[١]

والوَصْلُ ضِدُّ الهجران . والوَصْلُ أيضًا وصْلُ الثَّوْبِ والخُفِّ .[٢]

والوصل اصطلاحًا : عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل تركه .[٣]

وقد لخّص الشيخ عبد القاهر أحوال الفصل والوصل في قوله : (الجمل ثلاثة أضرب :

- جملةٌ حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتَّة ، لِشَبْهِ العطف فيها ، لو عُطِفَتْ ، بعَطفِ الشيء على الشيء نفسه .
- وجملةٌ حالها مع التي قبلها حالُ الاسم يكون غير الذي قبله ، إلاّ أنه يشاركه في حُكْم ، ويدخل معه في معنى ، مِثْلَ أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافًا إليه ، فيكون حقُّها العطفُ .
- وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيلُ الاسم مع الاسم لا يكونُ منه في شيء ، فلا يكون إيَّاه ولا مشاركًا له في معنى ، بل هو شيءٌ إن ذُكِر / لم يُذْكَرْ إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذِكْرُ الذي قبله وتَرْكُ الذكر سواءً في حاله ، لعدم التعليق بينه وبينه رأسًا . حقُّ هذا ترك العطف البتة .

فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية ، والعطفُ لما هو واسطةٌ بين الأمرين ، وكان له حالٌ بين حالين فاعرفه) .[٤]

وإذا أردنا أن نفصّل القول في موضع الفصل نقول : إن من موجبات الفصل المهمة :

---

(١) مختار الصحاح ، مادة (ف ص ل) ص ٢٢٣

(٢) مختار الصحاح مادة (و ص ل) ص ٣١٧

(٣) الإيضاح للقزويني ص ١٥١

(٤) دلائل الإعجاز ص ٢٤٣

● كمال الاتصال ومن صوره :

أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى نحو قوله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[١]هذه أربعة جمل جاءت كل واحدة مؤكدة للتي قبلها ، وقوله صلى الله عليه وسلم " أغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا المشركين ". [٢]

ومن كمال الاتصال أن تكون الجملة الثانية بدلاً من الجملة الأولى نحو ﴿ اتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ﴾[٣] فالأنعام والبنين بعض مما تعلمون من نعم الله ، ومنه قولك : حافظ على صحتك نظّف أسنانك ، والمثالين على بدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال مثاله قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قومي اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون ﴾[٤] جملة (اتبعوا المرسلين) بدل اشتمال من جملة (اتبعوا المرسلين) ، ومنه قولك : احترم الناس لا تحقرّنّ أحدًا .

ومن كمال الاتصال أن تكون الجملة الثانية عطف بيان للجملة الأولى كما في قوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[٥] فجملة (قال يا آدم) جاءت لبيان الوسوسة في الجملة الأولى .

● ومن موجبات الفصل كذلك شبه كمال الاتصال ومن صوره :

ومعناه أن تكون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال فُهِمَ من الجملة الأولى ، وقد يكون السؤال مذكورًا صراحة في الجملة الأولى ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وما أبرّئ نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾[٦]، فجملة (إن النفس لأمارة بالسوء) إنما جاءت جوابًا عن سؤال فُهِمَ من جملة (وما أبرئ نفسي) وكأنه قيل : و لم لا تبرئ نفسك ؟ إن كان الكلام لامرأة فرعون .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١-٢

(٢) سنن ابن ماجه ، باب صفة الإمام ، كتاب الجهاد ، حديث رقم ٢٨٥٨

(٣) سورة الشعراء آية رقم ١٣٢-١٣٣

(٤) سورة يس آية رقم ٢٠-٢١

(٥) سورة طه آية رقم ١٢٠

(٦) سورة يوسف آية رقم ٥٣

• ومن موجبات الفصل كذلك كمال الانقطاع :

وله صورتان : الأولى : أن تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم ﴾[١]، فجملة (وأعدوا لهم) إنشائية ، وجملة (ترهبون به) خبرية .

والصورة الثانية : أن تتفق الجملتان خبرًا أو إنشاءً ، لكن دون أن يكون بينهما جامع ، كما في قولك : العمل مقياس السعادة ، المعدن يتمدّد بالحرارة) ، وهنا وجب الفصل ؛ لأن بينهما كمال انقطاع .

• ومن موجبات القطع كذلك شبه كمال الانقطاع :

وذلك أن تكون هناك جملة مسبوقة بجملتين ، ويجوز عطفها على الأولى منهما ، ولا يجوز عطفها على الثانية ، فتترك العطف ؛ حتى لا يُتوهّم عطفها على القريبة منها ، وقد مثلوا لهذا بقول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلاً أراها في الضلال تهيم[٢]

من بلاغة الروابط المعنويّة بين الجمل المنفصلة في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين:

أولاً : كمال الاتصال :

قال صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ،

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠

(٢) ينظر : بغية الإيضاح ، ج٢/ص٦٧ ، وقال عنه : لا يعرف له قائل .

فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " .[١]

في هذا الحديث تأكيد على شفاعة القرآن لقارئه ، كما أن فيه حثًا على قراءة القرآن وبيان فضل سورتي البقرة وآل عمران ، وذلك حين شبّههما بالغمامتين ، والفرقين من الطير تغطيان رأس قارئهما يوم القيامة وتحاجان عنه .

وشاهدنا في الحديث قوله : (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران) في هذا المقطع من الحديث جملتان منفصلتان ، حيث فصل بين جملة (اقرؤوا الزهراوين) والجملة التي قبلها ؛ لأن بينهما كمال اتصال ، فالجملة الثانية بدل بعض من كل لأن الزهراوين بعض سور القرآن .

ثانيًا : شبه كمال الاتصال :

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " [٢]

جاء هذا الحديث في الذم والتحذير من بعض الصفات في اللباس والزينة ، حيث يقرّب لنا النبي صلى الله عليه وسلم صورة صنفين من الناس في اللباس لم يرهما الناس في زمنه – وهذا من علم الغيب الذي منّ الله به عليه – وفي الحديث تشبيهان بالحيوان الأول : تشبيه السياط بأذناب البقر ، والثاني : تشبيه رؤوس النساء بأسنمة البخت المائلة ، وكلا التشبيهين يشعر بالذم والاحتقار والتنفير من هذه التصرفات ، وقيل أن المقصود بالكاسيات العاريات : (معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها ، وقيل : معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارًا بحالها ونحوه ، وقيل : معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها ، وأما مائلات فقيل : معناه عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه ، مميلات أي يعلّمن غيرهن فعلهن المذموم ، وقيل : مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن ، وقيل : مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

(٢) صحيح مسلم (٥٥٨٢/٩٠٦)

مشطة البغايا . . .) .[١]

وفي الحديث شاهدان الأول في قوله :(صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط ...) حيث فصل جملة (قوم معهم سياط ...) عن الجملة التي قبلها ؛ وذلك لأن بينهما شبه كمال اتصال ، فإن قوله : (قوم معهم سياط ...) ، إنما جاء جوابًا عن سؤال فُهِمَ من قوله : (صنفان من أهل النار لم أرهما) ، كأنه قيل : (ما وصفهم ؟) ، فجاء الجواب في جملة (قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ...) ، وهذا ما يسمى (بالاستئناف البياني) .

والشاهد الثاني على الفصل بين جمل هذا الحديث في قوله واصفًا تلك النساء : (ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ...) ، حيث فصل بين صفات هؤلاء النسوة ؛ للإشارة أنهنّ جمعن بين هذه الصفات كلها .

ثالثًا : كمال الانقطاع :

وشاهده قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما لي أراكم رافعي أيديكم ، كأنها أذناب خيل شُمس ؟ اسكنوا في الصلاة " [٢]

جاء هذا الحديث في النهي عن كثرة الحركة في الصلاة وتحريك اليدين عند السلام فشبه هذه المخالفة وهي تحريك اليدين عند التسليم في الصلاة بأذناب الخيل الشُمس وهي الكثيرة الحركة فوجه الشبه الاضطراب والتحرك وعدم الاستقرار المخل بالخشوع .

والشاهد في الحديث فصله صلى الله عليه وسلم بين جملتي الحديث ، حيث فصل جملة (اسكنوا في الصلاة) عن الجملة التي قبلها ؛ لأن بين الجملتين كمال انقطاع ، فالجملة الأولى جملة خبرية ، والثانية إنشائية وهذا من موجبات الفصل بين الجمل . والغرض من ذلك – والله أعلم – لفت انتباه المخاطب بعد تنبيهه على الخطأ أمره بما يستوجبه الحديث وهو السكون في الصلاة تعظيمًا للاتصال بالله ، وبيانًا لوجوب الطمأنينة في أدائها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٣-١٤ ص١٥٦

(٢) صحيح مسلم (٩٦٨/١٨١)

رابعًا : شبه كمال الانقطاع :

من خلال استقصائي لأحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين لم أجد شاهدًا على شبه كمال الانقطاع ، ويبدوا أن هذه القسمة : كمال الاتصال ، وكمال الانقطاع ، والتوسط بين الكمالين ، وشبه كمال الاتصال ، وشبه كمال الانقطاع ، هي قسمة عقلية وأمور البلاغة لا ينبغي أن تخضع لهذه القسمة العقلية المنطقية .

كما أن هذه التسميات كلها لم يذكرها الشيخ عبد القاهر في الدلائل بل ذكرها المتأخرون بعده .

ليس هذا وحسب ، بل إن ما ذكروه (أعني شبه كمال الانقطاع) لم يجيئوا له إلا بمثال واحد وهو البيت الذي يقول :

وتظن سلمى أنني أبغي بها　　　بدلاً أُراه في الضلال تَهيمُ[(١)]

ولا يصح في العقل أن تكون هناك قاعدة لا نجد لها إلا مثالاً واحدًا [(٢)]

---

(١) ينظر : بغية الإيضاح ، ج٢/ص٦٧ ، وقال عنه : لا يعرف له قائل .

(٢) راجع : البلاغة فنونها وأفنانها ص٤٣٥

٢ - العلاقة بين الجمل من حيث اللفظ والمعنى : إيجازًا ، وإطنابًا :

الإيجاز : وجز (أَوْجَزَ) الكلام قصَّرَهُ وكلامٌ (مُوجَزٌ) بفتح الجيم وكسرها و(وجْزٌ) بوزن فَلْسٍ و (وَجيزٌ) .[١]

وسماه قدامة بن جعفر (الإشارة) وعرّفه بقوله : وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال : هي لمحة دالة.[٢]

وعرّفه الرماني بقوله : الإيجاز تقليل من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز [٣]

وعرّفه السكاكي بقوله : الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات الأوساط .[٤]

فالإيجاز إذن : قصد اللفظ مع وفاء بالمعنى ، أو استثمار أقل قدر من الألفاظ في أكبر قدر من المعنى .[٥]

والإيجاز قسمان : إيجاز حذف : وهو أن يحذف جزءًا من الكلام الذي نعبر به عن المعنى المراد ، وقد يكون هذا الجزء كلمة ، أو جملة ، أو أكثر والمحذوف لا بدّ أن يستغني الكلام عنه ، أي يفهم الكلام بدونه ، ولا بدّ من قرينة تدل عليه . ومثاله : قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾[٦] أي أهل القرية .

والقسم الثاني إيجاز قصر : وهو تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف . ومثاله : قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾[٧] فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه .

---

(١) مختار الصحاح ، مادة (وَجَزَ) ، ص٣١٠

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، ص١٣٣

(٣) النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص٧٦

(٤) بغية الإيضاح ٩٦/٢

(٥) البلاغة فنونها وأفنانها ، ص٤٧٢

(٦) سورة يوسف ، آية ٨٢

(٧) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٩

والإطناب : المبالغة في الشيء ؛ يقال أطنب في المكان إذا أطال الإقامة فيه ، وإذا كان الإيجاز استثمار الألفاظ القليلة في معان كثيرة ؛ فإن الإطناب زيادة اللفظ على المعنى .
وكما اشترطوا للإيجاز أن تكون الألفاظ القليلة المعبّر بها لا تُخل بالمعنى ، فقد اشترطوا للإطناب أن تكون الألفاظ الزائدة جاءت لفائدة .[١]
فالإطناب إذن : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة – كما يقول ابن الأثير – والتعريفات التي قيلت قبله وبعده لا تخرج عن هذا المعنى .[٢]

وقد مثّل ابن الأثير للفرق بين الإيجاز والإطناب والتطويل بقوله : (إن مثل الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق ، فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه ، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد إليه ، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على متره من المنازه لا يوجد في طريق التطويل) .[٣]
وللإطناب أغراض يفيدها من أهمها : الإيضاح بعد الإبهام ، وذكر الخاص بعد العام ، والتكرير لفائدة ، والإيغال ، والتذييل ، والاحتراس ، والتتميم ، والاعتراض ، ووضع الظاهر مكان المضمر ، وغير ذلك .

ولن أتعرض لتعريف تلك الأغراض التي يفيدها الإطناب وأمثلتها ؛ للإيجاز ولكثرة المتحدثين عنها في كتب البلاغة[٤] ، وسأكتفي بضرب الأمثلة على بعضها من خلال أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين .

ولما كان من أغراض التشبيه المهمة البيان والإيضاح والتقرير أمكن استخدامه في الإيجاز والإطناب ؛ وبيان ذلك : أنه قد يُستَخدَم التشبيه لغرض توضيح المعنى المراد من أقصر طريق

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني- ، ص٤٩٨
(٢) المثل السائر ، نصر الله محمد ين عبد الكريم أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير ، طبعة البابي الحلبي ، ١٩٧٩م ، ص٢١٧
(٣) المصدر السابق ، ص٢١٧-٢١٨
(٤) ينظر : الإيضاح ، ج١/ص١٩٦-٢١٢ ، والبلاغة فنونها وأفنانها ص٥٠٠- ٥٢٤.

وأيسر سبيل لينتهي هذا المعنى إلى قلب المخاطب بانتهاء اللفظ أو الصوت إلى سمعه ، وهنا يستغني المتكلم البليغ عن كثرة الوصف للشيء المبهم بالنسبة للمخاطب ويلجأ إلى التشبيه ليوجز الكلام ويوصل المعنى مختصرًا ، ومثال ذلك : قول النبي صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [(١)] ، نلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف وضعيّة السجود المنهي عنها ، ولو أراد ذلك لاحتاج إلى جمل كثيرة لوصف تلك الوضعية ، وربما لم بفهم بعض المخاطبين تلك الوضعية بمجرد الوصف لها ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم استغنى عن ذلك كله وأوجز الكلام حينما شبه تلك الوضعية بوضعية بسط الكلب لذراعيه ، ومَنْ مِنْ المخاطبين لا يعرف جلسة الكلب وكلهم قد رأوها ، فهذا من أمثلة استخدام النبي صلى الله عليه وسلم للتشبيه لغرض الإيجاز والاختصار .

وقد يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه للإطناب وزيادة إيضاح الكلام بالوصف وتكرار المعنى سواء كان ذلك المعنى للمدح أو للذم أو لمجرّد الوصف ، (وإن تعقيب المعاني به – أي بالتشبيه – لا سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كان أن ذمًا أو افتخارًا أو غير ذلك)[(٢)] ، وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " [(٣)]، حيث تمّ معنى الحديث في قوله : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، ولو سكت على ذلك لتم المعنى المراد ، بل قد ورد الحديث بروايات ينتهي فيها الحديث إلى هذه الجملة [(٤)]، لكنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يزيد توضيح هذه الفكرة

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

(٢) بغية الإيضاح ، ٧/٣

(٣) صحيح البخاري (٢١٧/١٣٥٨)

(٤) كما في رواية مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا وهو على الملّة " صحيح مسلم ، كتاب القدر ، (١٠٩٦/٦٧٥٩) ، ورواية أخرى لمسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يُلِدَ على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويشرِّكانه " صحيح مسلم ، كتاب القدر ، (١٠٩٦/٦٧٥٨)

بضرب المثل حين شبه المولود بالبهيمة ، قال النووي : (ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها)[١]، وذلك كما يحصل النقص والانحراف في عقائد الناس بعد تأثير الوالدين عليهم بالتربية .

أمثلة على العلاقة بين الجمل من حيث اللفظ والمعنى : إيجازًا ، وإطنابًا :

١- أمثلة الإيجاز :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تجدون الناس كإبلٍ مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة "[٢] ، لخّص النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى العظيم بألفاظ قليلة وهذا من إيجاز القصر فليس فيه حذف ، لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بيان ندرة أهل الخير والكرام من الناس شبههم بندرة الراحلة في الإبل المائة ، (أراد أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة). [٣] وانظر إلى حسن اختياره صلى الله عليه وسلم للمشبه به (الراحلة) تلك الدابة النجيبة في الإبل والتي يحرص الناس على اختيارها واقتنائها وحمل الرحل عليها وما ذلك إلا لجودتها وندرتها كما هو الحال في ندرة ذلك الرجل المرضي عنه من الناس الكامل الأوصاف القوي على الأحمال والأسفار . وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم قال الراغب : الإبل في تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل عشرة آلاف بعير ، فالمراد أنك ترى واحدًا كعشرة آلاف ، وترى عشرة آلاف دون واحد .

و لم أر أمثال الرجـــال تفاوتـــت　　　لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحـــدِ[٤]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (ج١٥/ص٣٢٠)

(٢) صحيح مسلم (٦٤٩٩/١٠٥٧)

(٣) لسان العرب (٥/١٧١)

(٤) الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٥م ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، والبيت للبحتري .

ومن الإيجاز أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الإيمان ليَأْرِزُ إلى المدينة ، كما تَأْرِزُ الحيّة إلى جحرها " [١] قال الشريف الرضي : (والمراد أن الإسلام ليأوي إلى المدينة كما تأوي الحية إلى جحرها ، وأصل ذلك مأخوذ من التقبض والاجتماع ، يقال : أرز أُروزًا إذا كان منه ذلك ، فجعل عليه الصلاة والسلام المدينة كالوِجار للإسلام يتقلص إليها وينضمّ إلى حماها لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه).[٢]

وانظر إلى هذا المعنى العظيم كيف أوجزه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمات القليلة ، حيث أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبين فضل المدينة المنورة وعلاقة ذلك الفضل بالإيمان شبه رجوع الإيمان إلى المدينة برجوع الحيّة إلى جحرها فكما أن الحية تنتشر من جحرها في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها كذلك الإيمان انتشر في المدينة ، وكل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لمحبته في النبي صلى الله عليه وسلم ، ويشمل ذلك جميع الأزمنة لأنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم للتعلم منه ، وفي زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم ، ومن بعد ذلك لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم ، والصلاة في مسجده ، والتبرك بمشاهدة آثاره وآثار أصحابه .[٣] كل هذه المعاني وغيرها يحملها هذا الحديث .

٢- أمثلة الإطناب :

قال صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحتجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " [٤]

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٢/١٨٧٦)

(٢) المجازات النبوية ، لأبي الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٩١هـ ، ص٨٥

(٣) فتح الباري (١١٢/٤)

(٤) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

بعد أن أكّد صلى الله عليه وسلم شفاعة القرآن لقارئيه أراد أن يخصّ سورتي البقرة وآل عمران بالفضل والنفع يوم القيامة فشبههما بثلاثة أشياء : كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان وهما متقاربان في المعنى أي كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، ونلاحظ هنا كيف صوّر لنا صلى الله عليه وسلم فائدة هاتين السورتين حينما تصبحان غطاءً لرأس قارئهما يوم القيامة ذلك اليوم الذي يكون الناس فيه في أمس الحاجة للظل حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق قدر ميل وتسّعر جهنم ، ولا شك أن في هذا التشبيه إغراء وتشجيع على قراءة القرآن والاهتمام بقراءة تلك السورتين .

وفي الحديث إطناب في أكثر من موضع :

الأول : في قوله : (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران) ، حيث أنه ذكر البقرة وآل عمران مرتين ، الأولى في قوله : (اقرؤوا القرآن) ؛ لأن سورة البقرة وآل عمران داخلتان في عموم لفظ القرآن فهما بعض سوره ، ثم خصهما بالذكر لعلوي شأنهما ، وعظيم أجر قراءتهما بقوله : (اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران) .

كما أن في الحديث إطنابًا من زاوية أخرى وذلك في قوله : (اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران) ، حيث أنه لما ذكر الزهراوين استشرفت النفس وتشوقت لمعرفة الزهراوين وتفصيل هذا المثنى ، فلما قال :(البقرة وسورة آل عمران) تمكن هذا المعنى من النفس واكتملت لذة العلم به ، وهنا ذكرت الزهراوين مرتين الأولى مجملة اللفظ ، والثانية مفصّلة في قوله : (البقرة وسورة آل عمران) ، ويسمى هذا النوع من التفصيل بعد الإجمال والإبهام (التوشيع)[1].

والثاني : استخدامه صلى الله عليه وسلم للتشبيه في بيان فضل قراءة القرآن وقراءة سورتي البقرة وآل عمران خاصة ، وذلك حين شبههما بأكثر من تشبيه في الحديث ، والهدف بيان فضل قراءتهما وجزاء ذلك يوم القيامة ، فشبههما أولاً بالغمامتين أو الغيايتين ، ثم بفرقين من الطير صواف أجنحتها تحتجان عن أصحابهما ، ثمّ أخد يفصّل تفصيلاً أدق في فائدة قراءة

---

(١) التوشيع لغة : لفظ القطن المندوف ، واصطلاحًا : هو أن يؤتى في عجز الكلام غالبًا بمثنى مفسر باسمين ، ثانيهما معطوف على الأول . (راجع البلاغة فنونها وأفنانها ، ص٥٠١) .

سورة البقرة تحديدًا حين قال : (اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة) .

وشاهد آخر قوله صلى الله عليه وسلم : " اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " [1]

في هذا الحديث يخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بست علامات تنذر بقيام الساعة ، وانظر إلى مدى تشوق المخاطب لمعرفة هذه العلامات لا سيما وهي من أشراط الساعة ، وهذا الأسلوب من أغراض الإطناب ، وهو ما يسمى بالإيضاح بعد الإبهام ، حيث أجمل في قوله : (اعدد ستا بين يدي الساعة) ثم فصّل ذلك وأوضحه في قوله : (موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا) ، وفي ذلك من التشويق والتنبيه للمخاطب ما فيه ؛ حتى يزداد حرصًا على سماع ما يلقي إليه ويحرص على النجاة من تلك لفتن والله تعالى أعلم .

---

(١) صحيح البخاري (٣١٧٦/٥٢٩)

الفصل الثالث

الجانب التصويري
للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

١- المبحث الأول : ما كان تشبيهًا به في الحسن والقبح .

٢- المبحث الثاني : ما كان تشبيهًا به في المقدار .

٣- المبحث الثالث : ما كان تشبيهًا به في السرعة .

٤- المبحث الرابع : ما كان تشبيهًا به في القلّة والندرة .

تقول العرب صوّره تصويرًا فتصوّر وتصوّرتُ الشيء توهّمتُ ، صورته فتصوَّر لي . والتصاويرُ التماثيل . وصوّره جعل له صورةً وشكلاً ورسمه ونقشه ، صُوِّرَ لي : خُيِّل لي .[١]

التصوير في أصل معناه يدلُّ على الشكل والهيئة والصفة ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[٢] وفُسِّر بأنَّ المصوِّر سبحانه خلق الناس وأنشأهم على أشكال وأحوال منتصبة القامة ، بادية البشرة ، متناسبة الأعضاء ، مختلفة الصور ، متهيِّئة لمزاولة الصنائع ، واكتساب الخبرات . فالتصوير من أعظم مظاهر قدرة الخالق عزّ وجل الذي يتولّى تركيب خلقه بأحكم طريقة وأبدع نظام وأحسن تقويم على ما يريد من الصور ، كما قال سبحانه : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٣] ليتميَّز كلٌّ منهم عن غيره ، فتبارك الله .

يقول الإمام عبد القاهر : واعلم أن قولنا "صورة" ، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، فلمّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصُّورة ، فكان تبَيُّن إنسانٍ من إنسان وفرس من فرس ، بخصوصيّة تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك ، وكذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان تَبَيُّنُ خاتمٍ من خاتمٍ وسوارٍ من سوارٍ بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونةً في عقولنا وفَرْقًا ، عبّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : " للمعنى في هذا صورةٌ غير صورته في ذلك " . وليس العبارةُ عن ذلك بالصورة شيئًا نحن ابتدأناه فينكرَهُ مُنْكِرٌ ، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ، ويكفيك قول الجاحظ : " وإنما الشعر صِيَاغَةٌ وضربٌ من التَّصوير "[٤]

والتصوير في الكلام يُبرز المعنى ويبين هيئته من خلال الأداء الصوتيِّ وما يثيره في النفس من تجارب تطوف بالخيال والحسِّ معًا ؛ لتستجليَ منهما صورًا مؤثِّرة واضحة المعنى .

وقد أحسن عبد القاهر الجرجانيّ حينما شبَّه المعاني في صياغتها وتصويرها بالحليّ المختلفة الأشكال والصياغة ؛ المتفاوتة في دِقّتها وإغرابها ، وشبَّه البصير بصياغة المعاني وإحداث

---

(١) انظر مختار الصحاح مادة (ص و ر) ص١٦٧ ، والمنجد ص٤٤٠

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٤

(٣) سورة الانفطار آية رقم ٨

(٤) دلائل الإعجاز ص٥٠٨

الصور بالحاذق في الإبداع والدِّقــة ، يخــرِج المعنى في آنق صورة وأحسنها ، فنراه قد تحوَّل جــوهرة بعد أن كان خرزة ، وصــار أعجب شيء بعد أنْ لم يكن شــيئًا . وبتصــوير الكلام تحصل صــورة الشيء في العقل ؛ وهذا ما يسمَّى بالتصوُّر الذي يكون به إدراك ماهية الأمور .

وفي هذا الفصل (الجانب التصويري) سأقصر الدراسة على الأنماط التصويرية للتشبيه والجزئيات المتعلقة به في الأحاديث التي تم استقصاؤها ، من مثل أركان التشبيه ونوعه والغرض منه وفائدته ، والاجتهاد في الوصول لأسرار اختيار الحيوان المشبه به من حيث مناسبته للمشبه والغرض الذي بني لأجله ، وغير ذلك مما يتعلق بفن التشبيه . وسأتناول هذه الدراسة من خلال تصنيف الأحاديث التي تم استقصاؤها تصنيفًا اجتهاديًا مبنيًا على أغراض التشبيه بالحيوان في الصحيحين ، وسيكون هذا التصنيف كالتالي : ما كان تشبيهًا به في الحسن والقبح ، ما كان تشبيهًا به في المقدار ويندرج تحته : مقدار الحجم ، ومقدار الوزن ، ومقدار الأجر ، ومقدار السرعة ، ثم ما كان تشبيهًا به في السرعة ، ثم ما كان تشبيهًا به في القلة والندرة .

والتشبيه فن له أهميّته في بلاغة الكلام ، حيث يثير نفس المتلقّي ، ويستحثّ مشاعره ، ويدفع عنه شبح الملل ، ويدفعه إلى الاستجابة ، ويبعثه على فعل المطلوب ، أو ترك المذموم ، وقد أُولِع به شعراء العرب وخطبائهم منذ الجاهلية حتى وقتنا الحاضر ؛ ولذلك اهتم به العلماء قديمًا وحديثًا ، وتتبعوه في كلام العرب ، وكان أوّل من أفاض في دراسته المبرد في كتابه (الكامل) وقال عنه : (والتشبيه جار كثيراً في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يبعد) .[1] ، ويقول الزمخشري وهو يتحدث عن أثر التشبيه في تصوير المعاني : (ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل ، والنظائر ، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، وحتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين ، وفي سائر

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لأبي الفتح ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية بيروت ، ١٩٩٥م ، ج١ ص٣٧٨ .

كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله — عليه السلام — وكلام الأنبياء والحكماء) [١]

ويقول عنه البرقوقي في حاشيته على التلخيص : (وبعد فهذا الضرب من البيان — التشبيه — على حدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ ، في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان ، وأن يضع الكلام بعيد المرام ، قريبًا من الأفهام ، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس ، وما ماثل مما اشتهر أمره ، وجرى لذلك مجرى الحقيقة ، وإنما هو يدق ويلطف حتّى يأتيك بما يخلب القلوب ، ويرقص الهام ، وحتّى يخرج مثله عن طوق البشر جميعًا) .[٢]

وقد ذكر الشيخ عبد القاهر قيمة التشبيه وتأثيره في قوة المعنى ، فقرر أن المعنى يزداد به فخامة وتأثيرًا في النفس ، وأن قائله يستطيع أن يحقق غرضه كاملاً ، ثم أورد طائفة من الأمثلة ، وازن بينها وبين أمثالها من الجمل التي تؤدي المعنى نفسه دون صورة ، ثم قال : (وإن أردت اعتبار ذلك في الفن الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول : إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره وتقتصر عليه ، وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به ، مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه").[٣]

وإنّ الناظر في البيان النبوي ليلحظ بوضوح وفرة الصورة الجميلة — في الحديث النبوي - وإن ذلك ليدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين ، لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به ، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي ، وترفع من شأنه ، وتكسو المعاني أبهة وتضاعف قواها في تحريك النفوس لها .

وفي الحديث طرائق متعددة في التصوير الموفق :

- منها مشاهد تصويرية تعتمد القصة السريعة تارة ، والموقف تارة أخرى .
- ومنها التشخيص الحي الذي يبث الحياة والحركة في الكائنات الجامدة .

---

(١) الكشاف للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى لمكتبة العبيكان عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(٢) شرح تلخيص المفتاح ، الأستاذ البرقوقي ، مكتبة النيل بمصر ، الطبعة الأولى عام١٣٢٢هـ ، ص٢٣١ .

(٣) انظر أسرار البلاغة ص١١٩

- ومنها التشبيه الذي يقرب الأمر ويوضح الموضوع وهو كثير جدًا .
- ومنها الكناية المهذبة اللطيفة .
- ومنها المجاز البليغ الرشيق . . . إلخ [١]

التشبيه :

يرجع التشبيه إلى مادة (شبَّه) الدالّة على المماثلة والمشاكلة . يقال: " أشبهه ، وضارعه ، وضاهاه ، وشاكله ، وماثله ، وشابهه ، وشاكهه "[٢] بمعنى واحد . والتشبيه هو التمثيل ، والشبيه : المِثْل .[٣]

ومعناه في اصطلاح البلاغيّين " إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها ، واختلفا في كيفيتها قوّةً وضعفا "[٤]. ويفصّل ابن رشيق في حقيقته حيث عرّفه بأنّه " صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ، لأنّه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه "[٥].

وبيان هذين التعريفين أنّ قولنا : زيد كالأسد في الشجاعة ، إلحاق لـــ(زيد) بالأسد في معنى الشجاعة ، وهذه الصفة المشتركة بينهما (الشجاعة) تعلو كيفيتها في الأسد على الكيفية التي هي في (زيد) . وكلّ من (زيد) والأسد وإن التقيا في هذه الصفة فإنّهما يختلفان في وجوه أخرى أهمُّها أنّ زيدًا إنسان والأسد حيوان ، والمتكلّم في مثل هذا المثال إنّما يعني اشتراكهما في صفة الشجاعة ولا يعني أكثر من ذلك .

---

(١) الحديث النبوي محمد لطفي الصباغ ص٧٨-٧٩

(٢) جواهر الألفاظ، ١٢، قدامة بن جعفر البغدادي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية (بيروت) ، بدون التاريخ.

(٣) المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ٣٢٢، د/ إنعام فوّال عكاري، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثانيــة، ١٤١٧هـــ-١٩٩٦م.

(٤) فن التشبيه ، لعلي الجندي ، ج١ ، ص٣٤ ، الطبعة الثانية لمكتبة الأجلو المصرية عام ١٣٨٦هـــ ، ١٩٦٦م

(٥) العمدة، ٤٨٨، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د/ محمد قزقزان، مكتبة الكاتب العربي (دمشق)، ١٤١٤هــــ-١٩٩٤م.

وللتشبيه أربعة أركان : طرفاه ووجهه وأداته ، أما طرفاه فهما إما حسيان ، كما في تشبيه الخد بالورد ، والقد بالرمح ، والفيل بالجبل في المبصرات ، والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات ، والنكهة بالعنبر في المشمومات ، والريق بالخمر في المذوقات ، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات ، وإما عقليان ، كما في تشبيه العلم بالحياة . وإما مختلفان ، والمعقول هو المشبه كما في تشبيه المنية بالسبع أو بالعكس ، كما في تشبيه العطر بخلق كريم.

والمراد بالحسي المدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، فدخل فيه الخيالي ، كما في قوله :

وكـأن محـمر الشقيق * إذا تصـوب أو تصـعـدْ
أعـلام ياقوت نشـرن * على رمـاح مـن زبرجـدْ [١]

وقوله :

كلـنـا باسـط اليـد * نحـو نيلـوفـر نـدّ
كـدبابيـس عسجـد * قـضبـها مـن زبرجـدٍ [٢]

والمراد بالعقلي : ما عدا ذلك . فدخل فيه الوهمي ، وهو ما ليس مدركا بشيء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها ، كما في قول امرىء القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال [٣]

---

(١) نسب هذا البيتان لأبي أحمد بن محمد بن الحسن الضَّبحي المعروف بالصنوبري ، راجع بغية الإيضاح ج٣/ص١٤ .

(٢) هما أيضًا ينسبان للصنوبري ، راجع بغية الإيضاح ، ج٣/ص١٤-١٥ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي ، الطبعة الثانية لدار المعرفة - بيروت ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ، ج١/ص١٣٧ ، وتتمة البيت : ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وعليه قوله تعالى : (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)[١] وكذا ما يدرك بالوجدان ، كاللذة ، والألم ، والشبع ، والجوع .

وأما وجهه : فهو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان ، تحقيقا أو تخييلا .

والمراد بالتخييل : أن لا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل ، كما في قول القاضي التنوخي :

وكأن النجوم بين دجاها * سنن لاح بينهن ابتداع

فإن وجه الشبه فيه : الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة بيضٍ في جوانب شيء مظلم أسود ؛ فهي غير موجود في المشبه به إلا على طريق التخييل .[٢]

والغرض من التشبيه يكون – في الغالب – عائدًا إلى المشبَّه ،[٣] وذلك أنّ المتكلّم إنّما يعمد إلى هذا الفنّ لبيان حال المشبّه ، أو بيان مقدار حاله في القوّة والضعف والزيادة والنقصان ، أو تقوية شأنه ، أو تقرير حاله في نفس السامع ، أو إبرازه في معرض التزيين ، أو التشويه ، أو الاستطراف ، أو غير ذلك من الأغراض التي تحتفل بها الكتب المصنّفة في البلاغة قديما وحديثا .[٤]

ويعدّ هذا الفن من أنماط التعبير العالية ، كما يعدّ من أقدم مباحث البلاغة التي اهتدى إليها العقل الإنساني . ذلك بأنّه يتعلّق اكتشافه بسرائر عليا من النفس الإنسانيّة وموقفها من الأشياء المحيطة به في بيئتها وأسرارها . والتشبيه يمثّل محاولة الإنسان عقد العلاقات والصلات بين الأشياء الموجودة في الكون وإدناء ما فيه بعضه إلى بعض ، وذلك بواسطة تأمّل الأشياء والاستغراق في لمح خصائصها وكشف ما فيها من وجوه .

ومن المعلوم أن للتشبيه والتمثيل أثرًا عجيبًا في النفس ، لأن فيه بيانًا للصفة ، ونقل الصورة من

---

(١) سورة الصافات ، آية ٦٥

(٢) راجع كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، ج٢ ص٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) قد يعود الغرض من عقد التشبيه إلى المشبّه به ، كما يعمد المتكلم إلى ضرب من المبالغة فيوهم بالتشبيه أن المشبّه به أتمّ من المشبّه في وجه الشبه ، وذلك في التشبيه المقلوب . وهذا النوع من التشبيه قائم على الادّعاء والمبالغة ، وليس على الأصلَ ، ينظر : بغية الإيضاح ، ج٣/ص٣٨ بتصرّف .

(٤) ينظر : الإيضاح ٢/٢٤٠- ٢٤٥ ، وفن التشبيه ص١١٨ وما بعدها .

عالم المعقول الخفيّ إلى عالم المحسوس الجلي ، وتقريب المتباعدين بدعوى الاتّحاد بينهما أحيانا ؛ لذلك قال عنه عبد القاهر : (فأوّل ذلك وأظهره أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى ، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إيّاه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها بالمعرفة به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا لا يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلَم بالاضطرار والطبع ، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحوّاس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضُل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوّة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : (ليس الخبر كالمعاينة) و(لا الظنّ كاليقين) ، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنسُ ، أعني الأنسَ من جهة الاستحكام والقوّة "[1].

ومن فضائل التشبيه : أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدّة ، نحو أن يعطيك من الزَّنْد بإيرائه ، شِبْه الجواد ، والذَّكيِّ ، والنَّجْح في الأمور ، وبإصْلادِه شبه البخيل ، والخيبة في السعي ومن القمر الكمال عن النقصان .[2]

ولعلنا نلاحظ أنّ أكثر أمثال العرب مضروبة بالبهائم ، قال الدميري : لما كانت العرب أكثر أمثالها مضروبة بالبهائم ، فلا يكادون يذمون ولا يمدحون إلاّ بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السِّباع والأحناش والحشرات ، فاستعملوا التمثيل بها .[3]

لذلك كَثُرَ عنصر الحيوان في تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث إنه أعرف الناس بصفاتها ، وغرائب طبائعها ، كما أنه أعرف الناس بما هو محمود من تلك الصفات وما هو مذموم فأفاد من تلك المعاني والصفات بطريقة التشبيه حين شبه بعض صفات الناس وتصرفاتهم بتلك الحيوانات ؛ ليفهم المخاطب الغرض من ذلك التشبيه بالحيوان وما يرمي إليه هذا التشبيه من تحسينٍ للمشبه ، أو تحقيرٍ له ، أو بيانٍ لمقداره أو وزنه أو سرعته ، أو بيانٍ لقلته وندرته أو غير ذلك من المعاني المرادة .

---

(١) أسرار البلاغة ، ١٢١-١٢٢.

(٢) انظر : الإيضاح ٢/٢٢١

(٣) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٥٧

وبالنظر إلى تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان في الصحيحين نجد أن لهذه التشبيهات أغراضًا يمكن تصنيفها كالتالي :

المبحث الأول

ما كان تشبيهاً به في الحسن والقبح

عُني صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب من أغراض التشبيه حتى إننا لنجد أكثر أحاديثه التي ورد فيها التشبيه بالحيوان تندرج تحت هذا الغرض ؛ وما ذاك إلا تربيةٌ منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه ثم لأمته بذلك الأسلوب الراقي المحبب إلى القلوب وهو التشبيه ، فحينما يشبه النبي صلى الله عليه وسلم بحيوان مستقبح عندهم عُلِمَ من ذلك قبح هذا الفعل وبغض الله ورسوله له ، وحين يشبه بحيوان مستحسن عندهم علم من ذلك حسن هذا الفعل ورضا الله ورسوله عنه ، وهذا معنى التربية بالتشبيه ، (وباب التحسين والتقبيح مدخل واسع ممهد لتهذيب الطباع وصقل العواطف ، وتصفية الأذواق ، وتربية النفوس على الفضيلة وقدعها عن الرذيلة ، وتحبيبها في الخير وتكريهها في الشر ، وحثها على كل عمل صالح نافع ، وملئها بالحماس والإقدام ، وحب التضحية والفداء ، والوقوف في وجه الظلم ، ومجابهة الموت بلا خوف ولا وجل .

وهكذا يمكننا بتحسين المشبه أو تقبيحه أن نحمل النفوس على ما نريد بتهييج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجدانها فتنطلق إلى الشأو المرسوم كالسهم المرسل لا يلوى على شيء . [(١)]

أ- تحسين المشبه :

١- التشبيه بالخيل :

الخيل : جماعة الأفراس وهي من أنفس ما يمتلكه العربي من الحيوانات ولها صلة وثيقة بحياتهم في حربهم وسلمهم وترفهم وفخرهم ، ويكفي في شرف الخيل أن الله أقسم بها في كتابه ، فقال : ﴿ والعاديات ضبحًا ﴾[(٢)] وفي صحيح البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عليه ، قال رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه بأُصبعيه ، وهو يقول : " الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجرُ والغنيمةُ " [(٣)]. ومعنى عقد الخير بنواصيها أنه ملازم لها ، وكأنه معقود فيها ؛ والمراد بالناصية هنا : الشعر المسترسل على الجبهة ؛ قاله الخطابي وغيره .

---

(١) ينظر : فن التشبيه لعلي الجندي ص٢٦٢-٢٦٤

(٢) سورة العاديات ، آية رقم ١

(٣) السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، الناشر مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الهند ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ ، كتاب الفيء والغنيمة ص٣٢٩

قالوا : وكنى بالناصية عن جميع ذات الفرس ، كما يُقال : فلان مبارك الناصية ، وميمون الغرّة ؛ أي الذات .[١]

أمثلة على التشبيه بالخيل :

أ- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل " .[٢]

جعل علامة أمته التي يعرفهم بها بين الأمم يوم القيامة الغرّ والتحجيل وفي ذلك تشبيه لهم بالخيل الغرّ المحجّلة على طريق الاستعارة ؛ لأن هاتين الصفتين من صفات الخيل ، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبين الفرس ، ثم استعملت في الجَمال والشهرة وطيب الذكر ، والتحجيل بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس ، والمراد بها هنا والله أعلم النور الكائن في وجوه أمته صلى الله عليه وسلم من آثار السجود في النواصي ، ومن آثار الوضوء في الأقدام .

فالمشبه في هذا الحديث هم المؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يكثرون السجود ويسبغونه الوضوء ، والمشبه به هي الخيل الغرّ المحجّلة ، ووجه الشبه البياض في النواصي والأقدام من أثر الوضوء ، وهي علامة يشتهر ويعرف بها المؤمن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يوم تبعث الأمم ، وطرفا التشبيه حسّيان حيث أنهما مما يدرك بالبصر .

وفائدة التشبيه في الحديث توكيد هذا المعنى وهو (الكرامة والعلامة التي جعلها الله للمؤمنين من أمته يوم القيامة) في ذهن المخاطبين كما أن فيه حثًا وترغيبًا في إكثار السجود وإسباغ الوضوء ، وهذه الفائدة من أعظم فوائد التشبيه عند العرب . يقول أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير : (وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه) .[٣]

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٢٦٩-٢٧٠

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٦) صفحة ٢٩

(٣) ينظر : المثل السائر ، ج١ ص٣٧٨ .

ولا شك أن في هذا التشبيه مدحًا للمتوضئ ، وترغيبًا في إسباغ الوضوء ؛ لأن هاتين الصفتين أعني الغرّ والتحجيل صفتان في الخيل محبوبتان ومرغوب فيهما لدى الناس ؛ لأنهما من صفات الجمال والتميّز في الخيل ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر في آخر الحديث بإطالة الغرّة لمن استطاع ، وذلك هو الغرض من التشبيه في هذا الحديث .

ب- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه[١]، حتى تكون مثل الجبل "[٢]

هذا الحديث تدريب عملي ودعوة مُعلَنة إلى الجود والكرم وبذل الصدقة ، كما أنّ فيه تلميحا بدرجة المتصدّق عند الله تعالى ومدى إكرامه سبحانه له ، فالصدقة اليسيرة التي تساوي تمرة من كسب طيّب هي التي يربّيها الله وينمّيها حتّى تكون مثل الجبل . وانتقال الخيال من رؤية الصدقة وهي تمرة صغيرة إلى رؤيتها وهي مثل الجبل ليري الإنسانَ منزلة المتصدّق ، ويوقفه على عظيم الأجر الذي يكون له ، ويبعثه على الصدقة وعلى ألاّ يحتقر المرء من الصدقة القليل .

في الحديث صورتان :

الأولى : نمو الصدقة في يد الرّبّ سبحانه حتى تصبح كالجبل .

والثانية : تربيَّة الربّ سبحانه لتلك الصدقة كما يربي المرء فلّوه .

والذي يعنينا في البحث هو الصورة الثانية إذ فيها التشبيه بالحيوان . وبيان التشبيه هو أننّا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شبّه تربية الله لعدل التمرة من الصدقة حتى تبلغ مثل الجبل بتربية الإنسان للمهر الفطيم حتى يكبر ويعظم ، ووجه الشبه الزيادة والنماء في كلّ منهما مع عظيم العناية والاهتمام ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس إذْ شبه تربية الربّ سبحانه لأجر المتصدق وهو أمر معقول بتربية الإنسان لفلوه وهو أمر محسوس ومشاهد .

وإنّ في هذا التشبيه لروعة تكمن في نوعه ، فمحل التشبيه في قوله : (يربيها لصاحبه كما يربّي

---

(١) فَلُوَّه : بفتح الفاء وضم اللام وتشديد والواو ، ويري : بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو وهو المهر سُمِيَّ بذلك لأنه فلى عن أمّه أي فصل .

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

أحدكم فلوَّه ، حتّى تكون مثل الجبل) ، حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم تربية الله لصدقة المتصدّق بتربية الإنسان لمهره تشبيه مقلوب ، وإلاّ فتربيته تبارك وتعالى لأيّ شيء أعظم وأجلّ من تربية غيره له ، وإنّما جاء التشبيهً مقلوبًا هنا لأنّ الأصل أن تشبّه تربية الإنسان للفلوّ بتربية الله تعالى لعدل التمرة (حتّى تكون مثل الجبل) ، لا العكس ، والغرض من التشبيه في هذا الحديث الحث على الصدقة والحرص عليها مهما قلّ حجمها وقيمتها في الدنيا ، كما في الحديث إيحاء بما يجب على المؤمن من حسن الظن بالله عز وجل وبيان عظيم كرمه وإحسانه .

ونلاحظ دقة اختياره المشبه به في هذه الصورة ، فالفلو يحتاج إلى مشقة في ترويضه ليتم الانتفاع به في الحروب والدفاع عن الأعراض ، وكذلك الصدقة يحتاج صاحبها إلى مشقة في ترويض نفسه وتدريبها على الإخلاص لله وحده عند إخراجها ؛ ليتم الانتفاع بها يوم القيامة فالمرء في ظلّ صدقته ذلك اليوم .

أما فائدة التشبيه في هذا الحديث واضحة حيث أراد صلى الله عليه وسلم أن يقرر المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه فأفاد المبالغة بالتشبيه وبيان كرم الرب سبحانه وسعة عطائه ليرغّب المخاطبين في الصدقة وعدم احتقارها وازدرائها مهما كان حجمها الحقيقي في الدنيا .

ومما يجدر بنا التنبيه عليه في هذا الغرض (أعني ما كان تشبيهًا به في الحسن) أنني لم أجد شواهد عليه سوى هذين الحديثين السابقين ؛ ولعل السرّ في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يكثر استخدام التشبيه بالحيوان في جانب تحسين المشبه حيث إنه لم يكن مشهورًا عند العرب إلا في الترر اليسير من الحيوان أمثال الأسد والصقر والخيل .

٢- التشبيه بالراحلة :

الراحلة : قال الجوهري : هي الناقة التي تصلح لأن تُرْحل ، وكذلك الرَّحُولُ ؛ ويُقال : الرَّاحِلة : المَرْكَبُ من الإبل ذكرًا كان أو أنثى . انتهى . والهاء فيها للمبالغة ، كالتي في داهية ، وراوية ، وعلامة وإنما سُمِّيتْ راحلة ؛ لأنها تُرْحَلُ أي : يُشَدُّ عليها الرَّحْلُ ... وقال ابن قتيبة : النجيبة المختارة من الإبل للركوب وغيره ، وهي كاملة الأوصاف ، فإذا كانت في إبلٍ عُرِفتْ . وقال الأزهري : الراحلة عند العرب : الجمل النَّجِيبُ ، والناقة النَّجِيبةُ .[١]

وعندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بيان ندرة أهل الخير والكرام من الناس شبههم بندرة الراحلة في الإبل المائة وذلك في قوله : " تجدون الناس كإبلٍ مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة ".[٢] (أراد أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة).[٣] وانظر إلى حسن اختياره صلى الله عليه وسلم للمشبه به (الراحلة) تلك الدابة النجيبة في الإبل والتي يحرص الناس على اختيارها واقتنائها وحمل الرحل عليها وما ذلك إلا لجودتها وندرتها كما هو الحال في ندرة ذلك الرجل المرضي عنه من الناس الكامل الأوصاف القوي على الأحمال والأسفار ، الذي يتحمل كَلَّ الناس وأثقالهم بما يتكلف به من القيام بحقوقهم ، والغرامات عنهم ، وكشف كربهم فهذا هو القليل الوجود ، بل قد يصدق عليه اسم المفقود .

المشبه في الحديث قلّة وندرة الكرام والأخيار بين الناس ، والمشبه به قلة وندرة وجود الراحلة بين الإبل المائة ، ووجه الشبه القلة والندرة التي ينبع منها الخير ، والطرفان حسيّان ، والتشبيه مرسل مجمل حيث ذكر الأداة ولم يذكر وجه الشبه .

والغرض من التشبيه واضح وهو بيان حال المشبه ، كما أن الحديث يرغّب أبناء الأمة في الترقي إلى معالي الأمور ويدعو إلى التحلي بالصفات الحميدة التي يحبها الله ويحبها الناس .

وفائدة التشبيه هنا المبالغة في تقرير الشبه في نفوس المخاطبين بصورة المشبه به لإفادة المبالغة في الترغيب بهذه الصفات النادرة للحرص على التحلي والتميز بها في المجتمع .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٤٥٠-٤٥١

(٢) صحيح مسلم (١٠٥٧/٦٤٩٩)

(٣) لسان العرب (١٧١/٥)

ب- تقبيح المشبه :

١- التشبيه بالحمار :

الحِمَارُ النَّهَاقُ من ذواتِ الأربع أَهْلِيّاً كان أو وَحْشِيّاً والجمعُ أَحْمِرَةٌ وحَمِيرٌ وحُمُرٌ وحُمُرَاتٌ جمعُ الجمع عند سيبويه والأنثى حِمارةٌ .[١]

قال الزمخشري : الحمار مثل في الذم الشنيع والشتيمة ؛ ومن استيحاشهم لذكر اسمه ، أنهم يكنون عنه ، ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون : الطويل الأذنين ، كما يكنون عن الشيء المستقذر ؛ وقد عُدَّ من مساوئ الآداب ، أن يجري ذكر الحمار في مجلس قومٍ ذوي مروءة .[٢]

والحمار من أغبى الحيوانات وأحقرها ، وصوته من أنكر الأصوات قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[٣]. والحمار يدل على الكدّ والإهانة .

أمثلة على التشبيه بالحمار :

أ- يقول صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلانا ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه" [٤].

هذا الحديث تصوير وتفسير للمقت الذي ورد في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[٥] فالحديث يصور لنا مشهدًا بشعًا لذلك الرجل حين يؤتى به يوم القيامة فيلقى في النار فإذا ألقي فيها خرجت أمعاؤه فيدور بها كما يدور

---

(١) المخصص لابن سيده ، الطبعة الأولى لدار إحياء التراث العربي ، تحقيق :خليل إبراهيم جفال ، بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٢ ص٥٠

(٣) سورة لقمان ، آية رقم ١٩

(٤) صحيح البخاري (٣٢٦٧/٥٤٤)

(٥) سورة الصف الآيتان ٢-٣

الحمار برحاه ، واختياره صلى الله عليه وسلم للحمار من بين أنواع الحيوان يتناسب مع تحقير هذا الرجل ؛ فالحمار مثل في البلادة والغفلة والغباوة وفيه معنى الإهانة .

فالمشبه حال ذلك الرجل الذي كان يأمر الناس بالمعروف في الدنيا ولا يأتيه ، وينهاهم عن المنكر ويأتيه ، والمشبه به هو حال الحمار الذي يدور برحاه ، ووجه الشبه حمل الشيء النافع مع مشقة أمر الناس به ونهيهم عنه دون الانتفاع والعمل به . فهذا الرجل يعرف المعروف ويأمر به دون أن يعمله ، ويدرك خطر المنكر فينهى عنه ويحذِّر الناس منه ثم يقع فيه ويفعله .

والتشبيه هنا تشبيه تمثيلي حيث شبه صورة ذلك الرجل في النار وقد خرجت أقتابه وهو يدور بها على مرأى من الناس بصورة الحمار وهو يدور برحاه .

ولنا وقفات مع هذا الحديث والصورة الواردة فيه :

أولاً : الصورة في هذا الحديث منتزعة من قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1]، فالآية والحديث يشتركان في صورة المشبه به ، كما أنهما يحذران من مخالفة القول للعمل والتصوير بأبشع صورة في مشهد مليء بالذل والتعب والإرهاق ، فالحمار في الآية يحمل أسفار العلم وقد ثُقل بها ظهره وأُرهق بها جسده وشقّ عليه السير بها دون أن يلقى من ذلك العناء أدنى فائدة ؛ لأنه لا يعرف قيمة هذه الأسفار ولا يحسن الإفادة منها ، مع أنه أفاد من حوله من الناس بحمل الكتب إليهم لينتفعوا بها وكان الأولى به أن ينفع نفسه بها قبل أن ينفع الآخرين .

والحمار في الحديث يدور برحاه وقد أرهقه الدوران وثقل الرحى دون أن يخرج من ذلك بفائدة ؛ لأنه لا يعرف قيمة هذا الدوران مع أنه أفاد من حوله من الناس بهذا الدوران بالرحى حين طحن لهم حبوبهم فنفع الناس ولم ينفع نفسه ؛ لذلك شبه بالحمار لأنه مثل في البلادة والغفلة والغباوة .

ثانياً : في خروج أمعاء الرجل في الحديث إيحاء بفساد داخله ومخالفته لظاهره ، فهو حين أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر في الدنيا ظنّ الناس به خيرًا ، وحسبوا أنه في أعلى درجات الجنة ، لكنهم فوجئوا حينما رأوه يلقى في النار بهذه الصورة البشعة ؛ ليكشف الله ستره عنه ويظهر حقيقته للناس يوم الحساب ، حتى إن أهل النار اجتمعوا عليه ووجهوا له ذلك الاستفهام التعجبي حين قالوا : يا فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟

---

(١) سورة الجمعة ، آية رقم ٥

ثالثًا : حوى الحديث بعض الألفاظ والتراكيب المسهمة في تعزيز صورة التحقير والتنفير من فعل ذلك الرجل والحال التي كان عليها في الدنيا وما نتج عنه من مآل في الآخرة ، ولعل من أبرزها بإيجاز : استخدام لفظ (يُلْقَى) بدلاً من يدخل النار مثلاً ، بناء الفعل للمجهول في قوله:(يُجَاءُ ، ويُلْقَى) وما فيهما من دلالة الإكراه والقسر والإلزام ، وأيضًا في تعريف كلمة الرجل ، واندلاق أقتابه في النار ، واجتماع أهل النار عليه وما في ذلك من التشهير به بعد أن كان مستورًا في الدنيا ، الاستفهام التعجبي الصادر من المجتمعين عليه من أهل النار (أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟) ، وأخيرًا اعترافه بسبب تلك العقوبة التي نزلت به (كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) .

كما أنه في استخدام الفعل المضارع في أكثر كلمات الحديث أثر كبير في تحريك الصورة (يجاء ، يلقى ، تندلق ، يدور ، يجتمع ، تأمرنا ...) ، كان من شأنها نقل الصورة إلى ذهن المخاطب وكأنّه ينظر إلى المشهد يدور أمام ناظريه ، وذلك من أعظم أسباب تأثير الحديث في النفوس .

ب- قال صلى الله عليه وسلم : " أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ؟ أو يجعل الله صورته صورة حمار ؟ " .[١]

نهى النبي صلى الله عليه سلم عن رفع رأس المأموم قبل الإمام ، حتى رأى بعض الأئمة بطلان صلاة المأموم في هذه الحالة كابن عمر رضي الله عنه .[٢]

والنهي ليس مقصورًا على رفع الرأس بل في مخالفة الإمام بأي حال ، والحديث جاء ليؤكد هذا النهي حينما شبه صلى الله عليه وسلم رأس من يرفع قبل الإمام برأس الحمار ، أو بصورة الحمار ، وفي هذا تقبيح لصورة مرتكب هذه المخالفة تنفر منها نفس المؤمن .

فالمشبه في الحديث من يرفع رأسه قبل الإمام ، والمشبه به رأس الحمار أو صورة الحمار ، والتشبيه هنا مفرد مؤكّد مجمل (بليغ)[٣] إذ لم تذكر أداة التشبيه ولا وجه الشبه ، والطرفان

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩١) صفحة ١١٣

(٢) وذلك ما نقله ابن حجر في فتح الباري ، كتاب الأذان – باب من رفع رأسه قبل الإمام ج ٢ صفحة ٢١٥

(٣) بليغ من المبالغة وليس من البلاغة ، لأن بلاغة التشبيه تكمن في دقة التعبير وملاءمته لمقتضى الحال ، وجاءت المبالغة من حذف أداة التشبيه ووجه الشبه .

حسيّان؛ حيث إنهما يدركان بحاسة البصر (هذا إذا كان المعنى على ظاهر النص ويتم تغيير رأسه إلى رأس حمار حسيًا ، أما إذا كان التعبير على صورة الحمار معنويًا فالمشبه عقلي) .
ولا شك أن الغرض من التشبيه في الحديث التحريم والتنفير وهذا ما يدركه المخاطب من التشبيه ، ويوحي به الاستفهام في أول الحديث (أما يخشى أحدكم ...) .
وفائدة التشبيه في الحديث توكيد النهي عن مخالفة الإمام في الصلاة مع احتقار فاعله والتنفير من والوقوع في هذه المخالفة .

ولنا مع الحديث السابق وقفات :

أولاً : وجوب متابعة الإمام وتحريم مسابقته وتصوير تلك المخالفة بأبشع صورة وأقبح منظر ؛ لبيان عظمة هذا الذنب والتحذير من الوقوع فيه ، وخصّ العقاب بتحويل الرأس لأنّ به وقعت الجناية ، والمسخ أشدّ العقوبات كما يقول العلماء .
ثانيًا : تحوّل رأس المخالف للإمام قد يرجع إلى أمر معنوي ؛ لأنّ الحمار موصوف بالبلادة فاستعير هذا المعنى للجاهل بما يجب عليه من فرض الصلاة ومتابعة الإمام ، ولا يمنع أن يراد بالتحويل المسخ أو تحويل الهيئة الحسية والمعنوية .(١)
ثالثًا : في الحديث تراكيب أسهمت في إخراج الصورة بالشكل المطلوب لبيان غرض التحريم والتنفير من مخالفة الإمام ، ولعل من أهمها : الاستفهام الذي صُدِّر به الحديث (أما يخشى أحدكم ؟) وما في هذا الأسلوب من الإيحاء بالتوبيخ ، كما فيه تشويق للصورة التالية له ، كما أن في استخدام (إذا) في قوله : (إذا رفع رأسه) من الدلالة على إمكانية وقوع ذلك الخطأ ، وأيضًا في قوله : (أن يجعل الله رأسه رأس حمار) فيه ما فيه من زيادة القبح في صورة المشبه إذ يمكن أن يتحول الرأس إلى رأس حمار ويبقى الجسد جسد آدمي وبذلك تزداد قبحًا وإرهابًا .
ج- عن النواس بن سمعان ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال :

---

(١) ينظر : فتح الباري لابن حجر بإيجاز ٢/٢١٥

" ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة ، فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : " غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالاً ، يا عباد الله ، فاثبتوا " قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : " أربعون يومًا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم " قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : " لا ، اقدروا له قدره " قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : " كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذُرًى ، وأسبغه ضروعًا ، وأمدّه خواصر ، ثم يأتي القوم ، فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب ، النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[1] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عبادًا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه ،

---

(١) وقوله : بين مهرودتين الثوب المهرود المصبوغ بالصفرة ويقال إنه يصبغ أولا بالورس ثم بالزعفران فيسمى مهرودا وأصحاب الحديث يختلفون في هذه اللفظة فبعضهم يقولها بالدال غير المعجمة وبعضهم بالذال وقد حكى أبو بكر بن الأنباري أنها تقال بهما وقال ابن قتيبة هذه الكلمة عندي غلط من بعض النقلة ولا أراه إلا مهروتين يريد ملاءتين صفراوين يقال هريت العمامة إذا لبستها صفراء . ينظر كشف المشكل من حديث الصحيحين لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، تحقيق علي حسين البواب ، ج١ /ص١١٣٧

مرة ، ماء ، ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النّغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه ، إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة " .[١]

حوى هذا الحديث مجموعة من الصور لكن الصورة التي تهمنا في هذا المقام هي الصورة الموجودة في قوله :(ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة) ، حيث يصف صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث شِرَار الناس الذين تقوم عليهم الساعة ، حين يجامع الرجال النساء بحضرة الناس ، إذ شبه فعلهم هذا وعدم اكتراثهم بالناس بفعل الحمير ، وهذا التشبيه يحمل معنى الذم والتحقير لحقارة صنيعهم ؛ لذلك ناسب أن يشبههم بالحمير ، كما ناسب أن تقوم عليهم الساعة لأنهم شرار الناس .

فالمشبه شرار الناس وهم الزانون على مرأى ومسمع من الخلق والخالق ، والمشبه به الحُمر ، واستغني عن الأداة بالمفعول المطلق (تهارج) ، ووجه الشبه انعدام الحياء وعدم الخوف من عقاب الله ، أما الغرض من التشبيه فهو تحريم الزنا وذم فاعليه ، أما فائدة التشبيه هنا فالإيجاز إذ أوجز النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة معاني عظيمة في وصفهم منها انعدام الحياء عندهم وعدم اكتراثهم بمن حولهم من الناس لما نُزِعَ الإيمان من قلوبهم والله تعالى أعلم .

(٢) صحيح مسلم (١٢٠٠/٧٣٧٣)

٢- التشبيه بالكلب :

الكلب : كِلَاب وأَكْلُب وجمعه أَكالِب وكِلَابَات : كلُّ سبُع يعضّ . وغلب على الحيوان النابح .[١]، (والكلب : حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء ، وهو لا سَبُعٌ ولا بهيمةٌ ، حتى كأنه من الخَلق المركب ، لأنه لو تمّ له طباع السَّبعية ما ألف الناس ، ولو تمّ له طباع البهيميَّة ما أكل لحم الحيوان ... وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات . والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض ؛ ويأكل العذرة ، ويرجع في قيئه) [٢]

والكلب مثل في لؤم الأصل ، وخبث الطبع ، وسقوط القدر ، والخسَّة ومهانة نفسه ومع قلَّةِ خيره وكثرة شره واجتماع الأمم كلِّها على استسقاطه واستسفاله .[٣]

أمثلة على التشبيه بالكلب :

أ- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه "[٤]، وفي رواية : " العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه "[٥]، وفي رواية أخرى في صحيح مسلم يقول : " إنما مثل الذي يتصدق بصدقة ثم يعود في صدقته ، كمثل الكلب يقيء ثم يأكل قيأه ".[٦]

أول ما يلفت نظر السامع لهذا الحديث ويثير اهتمامه واستجابته ما افتتح به صلى الله عليه وسلم هذا الحديث حيث نفى عن نفسه وعن أمته مثل السوء ، فكل خلق وتصرف سيء ليس من صفات المسلم الحق المتبع لهذا الدين ؛ لأن هذا الدين جاء ليرقى بالنفس البشرية ويسمو بها عن كل ما يسيء إليها ، ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٧] ؟! فكل مثل

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام ص٦٩٤

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري ، ج٣/ص٥٨٨- ٥٨٧

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ١٠٢/١

(٤) صحيح البخاري (٤٢٤/٢٦٢٢)

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٢٥٨٧) صفحة ٤١٨

(٦) صحيح مسلم (٦٧٦/٤١٧٣)

(٧) السنن الكبرى للبيهقي مع جواهر النقى ، الطبعة الأولى لمطبعة مجلس دار المعارف بالهند . ج١٩١/١٠

سيِّء وخلق ذميم ليس من صفات المسلم . أيُّ براعةٍ وأيُّ حسنٍ في استهلال هذا الحديث الموجز الذي عبّر فيه صلى الله عليه وسلم عن مراده ومقصوده بكلمات معدودة حملت هذا المعنى الضخم الشريف ؟!

وكأنّه صلى الله عليه وسلم يعتذر عن بشاعة الصورة التي سيضربها مثلاً بعد أن نفاها عن نفسه وعن أمته .

ينهي النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن الرجوع في الصدقة بعد قبضها ويصوّر العائد في هبته بصورة غاية في القبح والبشاعة لتنفر النفوس المؤمنة من هذا التصرف القبيح ، حيث شبه العائد في هبته بالكلب ، ليس هذا وحسب بل بكلب له صورة مخصوصة حين وصفه بالرجوع في قيئه .

إذن المشبه هو العائد في هبته أو صدقته ، والمشبه به هو الكلب العائد في قيئه ، فالطرفان حسّيان ، والتشبيه مجمل حيث لم يذكر وجه الشبه وإن كان قد فُهِمَ من سياق الكلام إذ المقصود الخسة والدناءة ؛ لأن العبد إذا تصدّق قصد بذلك تطهير ماله ونفسه من الشوائب وأدران المعاصي ، فإذا عاد فيها عادت إليه بأوساخ الذنوب فكأنه كلب تقيَّأ ثمّ عاد فأكل قيأه .

ونوع التشبيه في الرواية الأولى والثانية تشبيه مفرد ، وفي الرواية الثالثة تشبيه تمثيلي حيث بدأ الحديث بلفظ (مثل) والمشبه والمشبه به عبارة عن صورتين متقابلتين صورة ذلك الرجل الذي تصدق بالصدقة وكان من شأنه أنه عاد فيها ، والمشبه به ذلك الكلب الذي تقيأ ثم كان من حاله أن عاد في قيئه فأكله .

إذن الغرض من التشبيه في الحديث تحريم الرجوع في الهبة بعد قبضها ، أما فائدة التشبيه فقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يقرر شكل المشبه في ذهن المخاطبين ، ويعمق معناه ، ويلح عليه بالتثبيت ، ويرسم له في خواطرهم صورة بارزة المعالم لتنفيرهم منه ويبين لهم سوء عاقبته حتى يتأكد هذا المعنى في نفوسهم عن طريق التشبيه .

ولنا وقفات موجزة مع الحديث :

أولاً : صوّر الحديث العائد في هبته بأبشع صورة من شأنها أن تنفّر السامع من هذا السلوك الشائن ، حيث أنه شبهه بالكلب والكلب حيوان نجس خبيث الطبع ساقط القدر خسيس مهان ، ولم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم بتشبيهه بالكلب ، بل صوّر هذا الكلب في حالة كان من شأنها أن زادت

في قبح صورة المشبَّه فهذا الكلب أكل حتى شبع ثم أخرج ما في جوفه متقيئًا ثم عاد فأكله . والغرض من ذلك تقبيح صورة ذلك الفعل ، فكما يقبح أن يقيء ثم يأكل قيأه كذلك يقبح أن يتصدق بشيء ثم يجرّه إلى نفسه بأيّ وجه من الوجوه .

ثانيًا : في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الرواية الثانية (ليس لنا مثل السوء) مبالغة في الزجر ودلالة على التحريم مما لو قال مثلاً : (لا تعودوا في الهبة) ، وقد ذهب جمهور العلماء على تحريم الرجوع في الهبة بعد أن تقبض ، إلاّ هبة الوالد لولده .[١]

ثالثًا : ومن جمال التركيب الذي دعم الصورة في الحديث السابق قوله صلى الله عليه وسلم : (الذي يعود في هبته) ولم يقل : الذي يرجع في هبته ؛ لأن من دلالات (العَوْد) الطريق القديم ، يُقال : " رجع عَوْدًا على بدءٍ " أو " رجع عَوْدُهُ على بدئه " أي لم يتم ذهابه حتى وصله برجوعه [٢] وذلك لزيادة تقبيح صورة الفعل فما أن قدّم هذه الهبة حتى عاد فيها ، كما أن (عاد) تأتي للدلالة على الانتقال من حال إلى حال نحو " عاد فلانٌ شيخًا " [٣] لتدلّ في الحديث على الانتقال من حال المعطي الواهب إلى حال الطالب الطامع فيما قدّم من العطاء ، ولا شك أن في ذلك ما فيه من زيادة قبح الصورة ولا يتوصل إلى هذا المعنى العميق لو استخدم فعلاً آخر يحمل جزءً من هذا المعنى .

ب- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [٤].

اعتدلوا في السجود أي توسطوا بين الافتراش والقبض بوضع الكفين على الأرض ورفع المرفقين عنها والبطن عن الفخذ وهو أشبه بالتواضع وأبلغ في تمكين الجبهة وأبعد من الكسالة انبساط الكلب هو مصدر على غير لفظ الفعل كقوله تعالى[٥]: ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾[٦].(أحدكم ذراعيه)

---

(١) ينظر : فتح الباري ج٥/٢٧٨-٢٧٩ بإيجاز .

(٢) المنجد في اللغة والأعلام ، مادة (عَوَدَ) صفحة ٥٣٦

(٣) المصدر السابق صفحة ٥٣٦

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

(٥) ينظر : حاشية السندي على النسائي ، لنور الدين بن عبد الهادي أبو الحسن السندي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٦-١٩٨٦م ، كتاب الافتتاح ج٢/٢١٤

(٦) سورة نوح ، آية رقم ١٧

أي لا يجعل ذراعيه على الأرض كالبساط والفراش . (انبساط الكلب) بالنصب ، أي مثل انبساط الكلب ، وهو وضع الكفين مع المرفقين على الأرض .

في هذا الحديث ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بسط اليدين في السجود ؛ لأن ذلك يشعر بالتهاون في الصلاة وقلة الاعتناء بها ؛ لذلك شبه من يبسط ذراعيه في السجود بالكلب .

فالمشبه في الحديث هيئة أو صورة بسط اليدين في السجود ، والمشبه به هيئة انبساط الكلب ، فالطرفان حسيان ، ووجه الشبه والأداة محذوفان فالتشبيه مجمل مؤكد ، وهو تشبيه مفرد .

والغرض من التشبيه في الحديث بيان الهيئة المنهي عنها في السجود مع تحقير ذلك الفعل ؛ لأنّ بسط اليدين في السجود على تلك الهيئة يُشْعِر بالتهاون في الصلاة وقلّة الاعتناء .

وفائدة التشبيه التبيين والتوضيح للهيئة المنهي عنها في السجود ؛ لتركها والعدول عنها إلى المأمور به .

٣- التشبيه بالفحل :

الفحل : الذكر من ذي الحافر والظِّلْفِ والخُفِّ وغير ذلك من ذي الرُّوح . وجمعه أَفْحُلٌ وفُحُولٌ وفُحُولَةٌ وفِحالٌ وفَحالةٌ .[١]

ونجد أن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من التشبيه بالفحل في الصحيحين ؛ ولعل ذلك بسبب أنه حيوان معروف لدى العامة والخاصة كما أنه كان مضربًا للمثل عندهم ، ومن ذلك قولهم : (ذلك الفحل لا يُقْدَعُ أنفه)... وأصحاب الحديث يروونه : (الفحل لا يُقْرَعُ أنفه) بالراء [٢].

أ- يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ، ثم لعله يعانقها "[٣]

لقد أمر الله ورسوله بحسن معاشرة النساء وعدم إهانتهنّ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٤] ، وحتى إن أخطأت المرأة أو خاف الرجل من نشوزها أمر الإسلام بضربها ضربًا غير مبرح إن رأى في ذلك صلاحها ، قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ

---

(١) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ج٣/ص٣٥٣

(٢) انظر : حياة الحيوان الكبرى ، ج٣/ص٣٥٧

(٣) صحيح البخاري (١٠٥٥/٦٠٤٢)

(٤) سورة النساء ، آية رقم ١٩

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (١).

وفي الحديث السابق تأكيد لهذا الحكم حيث يتعجب النبي صلى الله عليه وسلم ممن يضرب امرأته وشبه هذا الضرب بضرب الفحل ؛ ليبين قوته وعدم مبالاة الزوج الضارب بالشعور البدني للزوجة المضروبة ولا بالشعور النفسي لها حين يعانقها آخر النهار بعد أن ضربها وأهانها في أوله .

المشبه في الحديث هو ضرب المرأة ، والمشبه به ضرب الفحل ، ووجه الشبه قوة الضرب والإهانة ، والطرفان حسيان ، والغرض من التشبيه النهي والتنفير من هذا الفعل ، أما فائدة التشبيه فالمبالغة في الإنكار مع الذم لصاحب الفعل .

ب- في قصة يعلى بن منية لما قاتل رجلاً ، فعضَّ أحدهما أصبع صاحبه ، فانتزع يده من فمه ، فنزع ثنيّته ، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :" أردت أن تقضمه كما يقضم الفحل ؟ "(٢) ، وفي رواية أخرى " أيعضّ أحدكم كما يعضُّ الفحل ؟ لا دية له ". (٣)

لما كان هذا التصرف الشائن من عضّ أحد المتخاصمين أصبع أخيه أهدر النبي صلى الله عليه وسلم ديته ، ولم يجعل له قصاصًا ، بل وبّخه كما في رواية أخرى حين قال : " ما تأمرني ؟ تأمرني أن آمره أن يدع يده في فيك تقضمها ، كما يقضم الفحل ؟ ادفع يدك حتى يعضها ، ثم انتزعها "(٤) .

شبه النبي صلى الله عليه وسلم صورة العاضّ لأخيه بصورة عض الفحل تشويهاً لفعله وتنفيرًا منه ليترجر عنه غيره حين شبه قضمه بقضم الفحل ، واختار صلى الله عليه وسلم الفحل مشبهًا به لما عُرف عنه من القوة والجرأة .

فالمشبه صورة العاضّ ، والمشبه به صورة عض الفحل ، ووجه الشبه القوة والجرأة ، والأداة الكاف ، فالطرفان حسيان ، والتشبيه تمثيلي .

والغرض من التشبيه واضح إذ أراد النبي صلى الله عليه وسلم التحريم والتنفير من هذا الفعل

---

(١) سورة النساء ، آية رقم ٣٤

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧١) صفحة ٧١٠

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٦٦) صفحة ٧٠٩

(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٤٣٧٠) صفحة ٧٠٩

الشائن ، وفائدة التشبيه هنا المبالغة حيث أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرر صورة المشبه في نفوس المخاطبين بصورة المشبه به ليزيد في ذمه .

٤- التشبيه بالخيل :

كانت الخيل من أجمل الدواب وأثمنها عند الناس عامة والعرب خاصة ، ورأينا فيما سبق في تحسين صورة المشبه كيف شبه النبي صلى الله عليه وسلم بها علامة أمته يوم القيامة في الغرّ والتحجيل ، إلاّ أن للخيل بعض الصفات المذمومة عندهم استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يشبه بها تصرفات بعض المصلين الشائنة ، وذلك في قوله : " ما لي أراكم رافعي أيديكم ، كأنها أذناب خيل شُمس ؟ اسكنوا في الصلاة " [١] ، وفي روية أخرى للحديث يقول : " علام تومئون بأيديكم كأنها أذناب خيل شمس ؟ إنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه ، ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله " .[٢]

يؤدب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في موضوع السلام عند الخروج من الصلاة ، إذ كانوا يشيرون بأيديهم من عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن رفع الأيدي والإيماء بها ، وأمرهم أن يقتصروا على السلام على إخوانهم من اليمين والشمال [٣].

ونلاحظ في أول جملة في الحديث كيف هيّأ النبي صلى الله عليه وسلم المخاطبين لاستقبال هذه الصورة المنفِّرة حيث بدأ الحديث بالاستفهام الإنكاري قائلاً : (مالي أراكم رافعي أيديكم ...) .

فالمشبه في الحديث صورة المصلين الذين يرفعون أيديهم عند الخروج من الصلاة ، والمشبه به صورة أذناب الخيل الشمس المستمرة الحركة والطرفان حسيان ، وأداة التشبيه كأنّ ، ووجه الشبه الاضطراب وكثرة التحرك وعدم الاستقرار المخل بالخشوع ، والغرض من التشبيه في الحديث النهي والتنفير من هذا التصرف وهذه العادة لأنها مخلة بالصلاة ، وفائدة التشبيه التبيين والإيضاح .

---

(١) صحيح مسلم (١٨١/٩٦٨)

(٢) صحيح مسلم (١٨٢/٩٧٠)

(٣) التصوير الفني في الحديث النبوي ، لمحمد لطفي الصباغ ، الطبعة الأولى للمكتب الإسلامي عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، بيروت .

٥- **التشبيه بالتيس :**

التيس : الذّكر من المعز والوعل ، والجمع تُيوسٌ وأَتْياسٌ وفي فلان تَيْسِيَّةٌ وناسٌ يقولون تَيْسُوسِيَّةٌ وكيفوفية ولا أدري ما صحتها .[١]

ويقال للذكر من الظباء أيضًا تيسٌ ؛ ويُقال نبَّ التَّيسُ يَنبُّ نَبِيًا : إذا صاح وهاج .[٢]

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم صوت الزاني بالتيس تقبيحًا له ولفعله في قوله : " ألا كلمّا نفرنا غازين في سبيل الله ، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس ، يمنح أحدهم الكثبة ، أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه " [٣]

حرّم الله الزنا وجعله من كبائر الذنوب لما فيه من أضرار على الفرد والمجتمع ؛ فهو سبب في انتشار الأمراض واختلاط الأنساب ، لذلك حذّر سبحانه وتعالى من كل شيء يمكن أن يوصل إليه فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [٤] وجاء هذا الحديث ليذمّ ويحقّر فاعله حين شبه صلى الله عليه وسلم صوت الزاني بصوت التيس عند السِّفاد ، وهذا التشبيه يتناسب مع سياق النهي والتنفير من هذا الفعل والوعيد لفاعله .

فالمشبه صوت الزاني ، والمشبه به نبيب التيس (صوت التيس) ، وأداة التشبيه الكاف ، ووجه الشبه الصوت الذي يحصل له من شدة الشهوة والرغبة في الجماع .

طرفا التشبيه حسيان صورة بصرية وأخرى سمعية ، والغرض من التشبيه التحريم والذمّ والتحقير والتنفير من فعل هذه الجريمة البشعة المحرمة ، وفائدة التشبيه المبالغة في تحقير المشبه وتمديده وبيان سوء عاقبته ، وبذلك صرَّح صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث (أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه) .

---

(١) مختار الصحاح مادة (ت ي س) ص٤٢

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٥٤٤

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٤٢٤) صفحة ٧١٩

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٣٢

٦- التشبيه بالشجاع الأقرع (الثعبان) :

الشُّجَاعُ : بالضَّمِّ والكسر : الحيّة العظيمة ، التي تثب على الفارس والرَّاجل ، وتقوم على ذنبها ، وربما بلغت رأس الفارس ، وتكون في الصحاري .(١)

وقد شبّه به النبي صلى الله عليه وسلم المال في جانب التهويل والإرعاب من منع الزكاة وذلك في قوله : " ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بقاع قرقر ، تستن عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقر لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه ، إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع . يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه . سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل " .(٢)

يصوّر هذا الحديث العذاب الذي يلقاه مانع الزكاة يوم القيامة – سواءً كانت زكاة بهائم الأنعام أو زكاة المال – بصورة حسيّة مخيفة ومفزعة من وطء الإبل بالأخفاف ونطح البقر والغنم بالقرون والوطء بالقوائم والأظلاف ، ومن تحوّل المال إلى ثعبان مخيف يقضم يد صاحبه قضم الفحل . مشهد مرعب ومروّع يرهب مانع الزكاة إن كان مؤمنًا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر .

اشتمل هذا الحديث على صورتين للمال تبين عذاب مانع الزكاة وحسرته يوم القيامة ، الصورة الأولى تشبيه الكنز وهو المال الذي يخبّئه الإنسان ، ولا يؤدي زكاته بالشجاع الأقرع وهو الحية الذكر الذي تمعط شعر رأسه لجمعه السمّ فيه ، والصورة الثانية تشبيه هذا المال المكنوز الذي تحول إلى ثعبان عظيم شبه عضّه ليد مانع الزكاة بعضّ الفحل ، وكلتا الصورتين تهدف إلى بيان وجوب إخراج الزكاة والتخويف من منعها وبيان العقاب الذي أعده الله لتارك هذه الفريضة العظيمة .

المشبه في الصورة الأولى هو المال المكنوز ، والمشبه به الثعبان الخطير ، ووجه الشبه تحول النافع في

---

(١) ينظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ص٦١٩

(٢) صحيح مسلم (٣٨٤/٢٢٩٦)

الدنيا إلى ضار في الآخرة ، فهذا المال الذي كان يجمعه صاحبه في الدنيا ظنًا منه أنه نافعه حتى امتنع من إخراج زكاته كي لا ينقص ، قد تحوّل إلى ضرر كبير وخطر عظيم في الآخرة والطرفان حسيان .

والمشبه في الصورة الثانية هو صورة عضّ ذلك الثعبان ، والمشبه به صورة عض الفحل ، ووجه الشبه القوة والإيلام ، واختار القضم لأنه بأطراف الأسنان إذ يستخدم في أكل ما يَبُسَ ؛ ليزيد في معنى العض وبيان شدة إيلامه ، والطرفان في هذا التشبيه أيضًا حسيان .

أما الغرض من التشبيه في الصورتين فهو بيان وجوب الزكاة والتحذير من منعها وبيان عاقبة ذلك في الآخرة ، وفائدة التشبيه التبيين والتوضيح مع المبالغة في وصف خطر منع الزكاة .

٧- التشبيه بالبقر والبخت :

البقر : اسم جنس يقع على الذّكر والأنثى ، وإنما دخلته الهاء للوحدة ؛ والجمع بقرات ... واشْتُقَّ هذا الاسم من بَقَرَ ، إذا شَقَّ ؛ لأنها تَشُقُّ الأرض بالحِراثَة ... والبقر حيوان شديد القوّة ، كثير المنفعة ، خلقه الله ذلولاً ، ولم يخلق له سلاحًا شديدًا كما للسبع ، لأنه في رعاية الإنسان ، فالإنسان يدفع عنه عدوه ، فلو كان له سلاح لصعب على الإنسان ضبطه .[١]

والبخت : من الإبل ، مُعَرَّبٌ ، وبعضهم يقول : هو عربي ، الواحد الذكر : بُخْتِيٌّ ، والأنثى بُخْتِيَّةٌ ، وجمعه بخاتي غير مصروف ... والبَخاتِي : جمالٌ طوال الأعناق .[٢]

وقد شبّه النبي صلى الله عليه وسلم بهذين الحيوانين في حديث واحدٍ وذلك في وصفه لصنفين من الناس مذمومين لم يرهما في زمانه وذلك في قوله : " صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " [٣]

في الحديث تشبيهان الأول : تشبيه السياط بأذناب البقر ، والثاني : تشبيه رؤوس النساء بأسنمة البخت المائلة ، وكلا التشبيهين يشعر بالذم والاحتقار والتنفير من هذه التصرفات ، ويوضح هذا

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ج١/ص٤٨٤-٤٨٦

(٢) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٨٥

(٣) صحيح مسلم (٥٥٨٢/٩٠٦)

المعنى بعض روايات الحديث ففي رواية أخرى يقول صلى الله عليه وسلم :"يوشك ، إن طالت بك مدة ، أن ترى قومًا في أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون في غضب الله ، ويروحون في سخط الله"(١) وفي رواية ثالثة يقول : " إن طالت بك مدة ، أوشكت أن ترى قومًا يغدون في سخط الله ، ويروحون في لعنته ، في أيديهم مثل أذناب البقر " (٢) فالنبي صلى الله عليه وسلم كشف عن حالهم في هذه الروايات فهم يغدون في سخطٍ من الله وغضب ، ويروحون في سخط منه ولعنة ، وما ذلك إلاّ لأن تلك السياط لم تكن لرفع الظلم ونشر الحق ، ولكنها كانت أدوات تعذيب فاستحقوا ذلك الوعيد والنار .

فالمشبه السياط ، والمشبه به أذناب البقر ، والأداة هي الكاف ، ووجه الشبه قوة هذه السياط وشدة إيلامها عند الضرب بها ، وغرض التشبيه تحريم ذلك الضرب والتعذيب والتنفير من هذا الصنيع بغير وجه حق ، وفائدة التشبيه توكيد معنى الذم والتنفير من هذا الصنيع .

أما التشبيه الثاني فهو وصف لتلك النسوة اللواتي رءوسهن كأسنمة البخت قال النووي : معناه يعظمن رؤوسهن بالخمر والعمائم وغيرها مما يلف على الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت ، هذا هو المشهور فى تفسيره قال المازري : ويجوز أن يكون معناه يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن عنهم ولا ينكسن رؤوسهن واختار القاضي أن المائلات تمشطن المشطة الميلاء ، قال : وهى ضفر الغدائر وشدها إلى فوق وجمعها فى وسط الرأس فتصير كأسنمة البخت . قال : وهذا يدل على أن المراد بالتشبيه بأسنمة البخت إنما هو لارتفاع الغدائر فوق رؤوسهن وجمع عقائصها هناك وتكثيرها بما يضفرنه حتى تميل إلى ناحية من جوانب الرأس كما يميل السنام .(٣)

فالمشبه هو رؤوس تلك النسوة ، والمشبه به أسنمة البخت وهي إبل ضخمة السنام ، والأداة هي الكاف ، ووجه الشبه الضخامة والميل إلى أحد الجانبين ، والطرفان حسيان ، ويتضح الغرض من هذا التشبيه في نفي دخلهنّ الجنة ، فالغرض تحريم فعلهنّ مع التحقير والتنفير منه ، وفائدة التشبيه هنا الإيجاز حيث أوجز صلى الله عليه وسلم وصف تلك النسوة وما يفعلن برؤوسهن بهذا التشبيه الطريف ، ولو أراد وصف تلك النسوة غيره لأطال ولعسر عليه إيصال المراد للمخاطبين .

---

(١) صحيح مسلم (١١٧١/٧١٩٥)

(٢) المصدر السابق (١١٧١/٧١٩٦)

(٣) ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج١٧-١٨/ص٢٧٧

٨- التشبيه بالشاة :

الشاة : الواحدة من الغنم ، تقع على الذَّكر والأنثى من الضأن والمعز . وأصلها شَاهَةٌ ، لأن تصغيرها شُوَيْهَةٌ ؛ والجمع : شِياهٌ بالهاء في أدنى العدد . تقول : ثلاث شِياهٍ إلى العشرة ؛ فإذا جاوزت العشرة فبالتاء ؛ فإذا كَثُرَتْ قلت : هذه شاءٌ كثيرةٌ .(١)

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً في ذكر المنافق حين شبهه بالشاة في قوله : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة " .(٢)

والعائرة أي المترددة بين قطيعين من الغنم ، وهي التي تطلب الفحل فتتردد بين قطيعين ولا تستقر مع أحدهما ، وكذلك المنافق مع المؤمنين بظاهره ، ومع المشركين بباطنه ، تبعًا لهواه وغرضه الفاسد فصار بمترلة هذه الشاة .(٣)

انظر إلى دقة هذا التشبيه ومدى مناسبته في وصف حال المنافق ، حيث أنه مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فمثله كمثل هذه الشاة الضعيفة العائرة التي لا تحسن اختيار الطريق الصحيح لنفسها ، كما أنها خائفة وجلة تبحث عن الأمان والاستقرار النفسي فلا تعرف مسلكه ، فحالها محزن متخبطة تسلك سبيل هذا القطيع مرة ، ثم تهابه لأنها لا تعرف مصيرها ، فترجع إلى القطيع الآخر فلا تجد فيه إلا ما وجدت في سابقه ، فتبقى في حيرتها وترددها ، وهذا هو فعلاً حال المنافق يسلك طريق المسلمين تارةً ثم لا يجد الأمن لأنه لا يؤمن بهذا الدين حق الإيمان بل هو في شكٍ منه ، وما تبعه إلا خوفًا من المسلمين لما قويت شوكتهم ورغبةً في الغنائم والهبات التي كان صلى الله عليه وسلم يغدق بها على أصحابه ، ثم يعود إلى طريق الكفار ليناصرهم ويؤازرهم ظنًا منه أنه سيجد الأمن والراحة ، فلا يلبث أن يشعر بالخوف من أن يلقاه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيضربوا عنقه ، وقد أكثر القرآن في وصف أحوالهم ورسم أروع الصور في تبيين فساد عقيدتهم واضطرابهم .

والمشبه في الحديث هو المنافق ، والمشبه به الشاة المترددة ، وأداة التشبيه (كمثل) ، ووجه الشبه

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٥٩٢

(٢) صحيح مسلم (١١٤٧/٧٠٤٣)

(٣) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي تحقق مكتب تحقيق التراث دار المعرفة ببيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ ، المجلد الرابع ، ٨/ ١٢٤.

الاضطراب والتردد ، والطرفان حسيان ، ونوع التشبيه تمثيلي ، والغرض من التشبيه الذم والتحقير للمنافق ، وفائدة التشبيه تبيين وتوضيح لحال المنافق .

٩- التشبيه بالجدي :

الجدي : الذَّكَرُ من أولاد المعز ، وثلاثة أَجْدٍ ، فإذا كَثُرَتْ فهي الجِداءُ .(١)

وقد شبه به النبي صلى الله عليه وسلم في جانب التحقير للدنيا وذلك في صحيح مسلم : لما مرّ صلى الله عليه وسلم بالسوق ، داخلاً من بعض العالية ، والناس كنفته ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكٌ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " (٢)

و" الأسك " بفتحتين وتشديد الكاف : الصغير الأذن ، وقيل : صغير الأذنين . ملتصقهما وقيل : الذي لا أذنان له ، والذي قطعت أذناه ، وهو أيضاً : الأصم الذي لا يسمع .(٣)

أي : إذا كان هذا هين عليكم ، وهو رخيص عندكم فالدنيا كلها أهون على الله من هذا عليكم ، وهذا من كمال بيانه صلى الله عليه وسلم وفصاحته وبلاغته وكمال نصحه لأمته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أراد أن يبين حقارة الدنيا ، وأنه ليس لها شأن عند الله عز وجل ، وإنما المهم هو الآخرة ، وأما الدنيا فهي أهون عند الله من هذا الجدي الأسك الميت عليهم . والواحد يزهد فيه ولا يحب أن يكون له لو كان حياً ، وإنما يحب أن يكون له من نفائس الغنم ، وأحسنها منظراً وأكملها أعضاءً .

فالمشبه في الحديث الدنيا ، والمشبه به الجدي الأسك ، وأداة التشبيه هي أفعل التفضيل ، وأفعل التفضيل من طرق التشبيه ، قال علي الجندي في كتابه فن التشبيه : (جعل الطيبي من أدوات التشبيه أفعل التفضيل ، مثل زيد أفضل من عمرو).(٤) ، ووجه الشبه ذم الدنيا وتحقيرها .

---

(١) ينظر : مختار الصحاح ، ص٤٩

(٢) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)

(٣) شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى تحقيق : أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري ، الطبعة الأولى لمكتبة الرشد - الرياض ، ١٤٢٠ هـ -١٩٩٩ م ، ص٤٣٧

(٤) ينظر : فن التشبيه لعلي الجندي ، ج٢٠٢/١ وما بعدها .

والغرض من التشبيه في الحديث بيان حقارة الدنيا وهوانها على الله ؛ لتزهد بها نفوس المؤمنين وتتوجه أبصارهم وآمالهم إلى الآخرة ، لذلك وضع الإمام مسلم في تصنيفه هذا الحديث الثاني في كتاب الزهد والرقائق . وخرَّج الترمذي من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء" .(١)

وفائدة التشبيه في الحديث التبيين والتوضيح لهذه الحقيقة وهي حقارة الدنيا حتى يتيقن منها المخاطبون وتستقر في نفوسهم ، ولا يغتروا بها ولا بزينتها .

---

(١) ينظر : الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، كتاب الزهد ص٥٦٠

المبحث الثاني

ما كان تشبيهاً به في المقدار

أ- مقدار الحجم :

يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان أيضًا حينما يريد بيان مقدار الحجم والأمثلة على ذلك كثيرة :

١-التشبيه بالبغل والحمار[١] ، والفيل :

البغل : معروفٌ ، وكنيته أبو الأشحج ، وأبو الحَرُون ، وأبو الصقر ... ويقال له : ابن ناهق . وهو مركب من الفرس والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار ، وعِظَم آلة الخيل . وكذلك شحيجه - أي صوته - مولود من صهيل الفرس ، ونهيق الحمار . وهو عقيم لا يولد له... وله صبر الحمار ، وقوة الفرس .[٢]

والفيل : معروف ؛ وجمعه أَفيالٌ ، وفُيُولٌ ، وفِيَلَةٌ ، ولا تقل : أَفْيِلَةٌ . وصاحبه فَيَّالٌ . وكنيته : أبو الحَجَّاج ، وأبو الحِرْماز ، وأبو دَغْفَلٍ ، وأبو كُلْثُوم ، وأبو مُزاحِم . والفيلة : أم سبيلٍ .

... والهند تعظمه لما اشتمل عليه من الخصال المحمودة ، من علو سمكه ، وعظم صورته ، وبديع منظره ، وطول خرطومه ، وسعة أذنيه ، وثقل حمله ، وخفة وطئه ؛ فإنه ربما مرّ بالإنسان فلا يشعر به لحسن خطوه واستقامته .[٣]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " . . . وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق ، فانطلقتُ مع جبريل ، فلما جئتُ إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبًا به ولنعم المجيء جاء . . . "[٤] .

جاء هذا الحديث في سياق وصفه صلى الله عليه وسلم لرحلة المعراج ولقائه بالأنبياء في الحديث الطويل وذلك حين يصف لنا تلك المشاهد الغيبية العجيبة التي رآها ، ومن تلك المشاهد الدابة (البراق) التي ركبها في رحلته ، وهي دابة لا يعرفها الناس فأراد أن يقرّب لهم صورتها ويبن لهم

---

(١) سبق التعريف به في مبحث ما كان تشبيهًا به في القبح ، راجع التشبيه بالحمار ص١١

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٥٥-٤٥٦

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٤٢٨-٤٣٠

(٤) صحيح البخاري (٣٢٠٧/٥٣٥)

حجمها ، فشبهها صلى الله عليه وسلم بالدواب التي يعرفها الناس ويستخدمونها في زمنهم تقريبًا لأذهانهم وإيضاحًا لمسمًّى غريب على أسماعهم ، وإن كان التشبيه في هذا الحديث ضمنيًا أي غير صريح إلا أننا نشعر به في وصفه صلى الله عليه وسلم للبراق بالبياض والتوسط في الحجم بين البغل والحمار ، وخاصة في استخدامه لأفعل التفضيل حيث أراد التشبيه باستخدامها ، ومعلوم أن أفعل التفضيل من طرق التشبيه .[١]

فالمشبه في الحديث الدابة التي ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج (البراق) ، والمشبه به البغل والحمار ، والتشبيه هنا مجمل حيث لم يُذكر وجه الشبه ، والطرفان حسيان ، والغرض من التشبيه بيان مقدار حجم هذه الدابة التي لا يعرفها الناس ، وفائدة التشبيه في الحديث التبيين والتوضيح ؛ لإزالة الغموض في المشبه وتقريبه للأذهان .

وفي هذا الحديث تشبيه آخر بالحيوان وذلك حينما يبين صلى الله عليه وسلم مقدار حجم أوراق سدرة المنتهى حيث يقول : ". . . ثم رُفِعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قِلال هَجَرَ ، وإذا وَرَقُهَا مثل آذان الفيلة . . . " .[٢] حيث شبه صلى الله عليه وسلم ورق سدرة المنتهى بآذان الفيلة في كبر حجمها وشكلها .

فالمشبه ورق سدرة المنتهى ، والمشبه به آذان الفيلة ، والتشبيه هنا مرسل حيث ذكر الأداة (مثل) ، ومجمل لأن وجه الشبه محذوف لظهور المراد به إذ المراد اشتراكهما في كبر الحجم مقارنة بسدر الدنيا ، والطرفان حسيان ، والغرض من التشبيه تقريب صورة المشبه واستحضارها فكأن السامع للحديث يشاهد صورة سدرة المنتهى ؛ لأن التشبيه جسّد هذا الأمر الغيبي بتقريب صورته من خلال تشبيهه بأمر محسوس وهو آذان الفيلة ، ومعلوم أن أذن الفيل أعظم حجمًا من بقية آذان الحيوان ، وفائدة التشبيه هنا المبالغة وتقرير المشبه الذي هو كِبَر أوراق سدرة المنتهى في النفس بصورة المشبه به وهو آذان الفيلة .

---

(١) ينظر : فن التشبيه لعلي الجندي ، ج١/٢٠٢ وما بعدها .

(٢) صحيح البخاري (٦٥٣/٣٨٨٧)

٢- **التشبيه بالبخت**[1] :

وفي الإخبار عن الدجال وصفته ، وما معه من فتن يذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض الغيبيات من أخباره ، ويستخدم فن التشبيه لتقريب تلك الغيبيات والعجائب إلى عقول الناس ، وذلك في الحديث الطويل عن النواس بن سمعان ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال : " ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة ، فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : " غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج ، وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالاً ، يا عباد الله ، فاثبتوا " قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : " أربعون يومًا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، سائر أيامه كأيامكم " قلنا : يارسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : " لا ، اقدروا له قدره " قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : " كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذُرًى ، وأسبغه ضروعًا ، وأمدّه خواصر ، ثم يأتي القوم ، فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب ، النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم درجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عبادًا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من

---

(١) البخت : سبق التعريف به في مبحث تقبيح المشبه ص١٦٨-١٦٩ .

كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه ، مرة ، ماء ، ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النّغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه ، إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر،فعليهم تقوم الساعة " .[١]

وشاهدنا هنا قوله : " فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله " حيث أراد صلى الله عليه وسلم بيان ضخامة هذه الطير المأمورة بحمل جثثهم ، فشبهها بأعناق البخت ، والبَخاتِي : جمالٌ طوال الأعناق .[٢] والبخت أيضًا الإبل الضخمة العظيمة ، فلما كانت جثث القوم كثيرة ومتفرقة احتاجت لوسائل نقل ضخمة تتناسب مع هذه المهمة الصعبة وتتحمل هذه المسؤولية الشاقة ، فكانت هذه الصفة المناسبة للطير التي تحملهم .

التشبيه هنا تشبيهٌ مفردٌ مرسلٌ ؛ حيث ذُكرت الأداة وهي (الكاف) ، ومجمل لأنه لم يذكر وجه الشبه ، والطرفان حسيان .

والغرض الذي سيق التشبيه من أجله باعتبار الشكل الخارج هو بيان حجم هذه الطير الضخمة ، وهذا معنى عظيم غيبي شبَّهه النبي صلى الله عليه وسلم بالإبل تقريبًا للأفهام والعرب يدركون تلك الصفات ويعايشونها . وفائدة التشبيه في هذا الحديث والله تعالى أعلم هي المبالغة في توضيح كبر هذه الطير المأمورة بحمل جثث القوم وبيان ضخامة حجمها .

---

(١) صحيح مسلم (٧٣٧٣/١٢٠٠)

(٢) ينظر : الحياة الكبرى ج١/ص٣٨٥

٣- التشبيه بالفُلُوِّ :

الفُلُوُّ ، والفَلُوُّ والفِلْوُ : بضمِّ الفاء ، وفتحها ، وكسرها : المُهْرُ الصغير ؛ والجمع : أَفْلاءٌ . ... وقال الجوهريُّ : الفَلُوُّ : بتشديد الواو : المُهْرُ ، لأنه يُفتلى عن أمِّه ، أي يُفْطَمُ ؛ وقد قالوا للأنثى : فُلُوَّةٌ ، كما قالوا : عَدُوٌّ وعَدُوَّةٌ ؛ والجمع : أَفْلاءٌ ، مثل عَدُوٍّ وأَعْداءٍ ، وفَلاوي ، مثل خَطايا ، وأصله فَعائِلُ .[1]

في سياق الحث على الصدقة ولو بالقليل يقول صلى الله عليه وسلم : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه ، حتى تكون مثل الجبل " [2]

انظر إليه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الموجز كيف سخّر التشبيه في خدمة السياق حيث بيَّن فيه قيمة الصدقة من الكسب الطيِّب مهما قلَّ حجمها وقيمتها الحسية بالنسبة للناس في الدنيا حين ساوى حجمها بحجم التمرة ، ثم بين قيمة هذه الصدقة عند الله وكيف أن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها ويكلؤها بالرعاية وينميها حتى تغدو كالجبل يوم القيامة ؛ فكنّى هنا عن قبول الصدقة بأخذها باليمين وعن تضعيف أجرها بالتربية . والله يقول : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ .[3]

حينما أرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين اهتمام الله في تربية هذه الصدقة القليلة شبه تربيتها بتربية العربي لُمهره ، والعرب كما هو معروف تُعنى بالخيل عناية كبيرة حتى إنهم ليسقونها اللبن ولا يركبونها في الأسفار ولا في الحروب عند الذهاب ، بل يدّخرونها للمعارك والكر والفر . فحينما ينتقل الخَيَالُ من رؤية هذه الصدقة القليلة وهي التمرة إلى رؤية ما وصلت إليه من النماء حين أصبحت بحجم الجبل يقف المسلم على عظيم فضل الله على المتصدق ويبعثه ذلك على البذل والعطاء دون النظر إلى المقاييس الدنيوية في حجم هذه الصدقة ؛ لأنه يعلم أنه يتعامل مع ربه الرحمن الجواد الكريم . ولما كان السياق سياق حثٍ وترغيب ناسب أن يكون المشبه مما يحبه الناس ويرغبون فيه ويهتمون به وبتربيته فكان اختياره صلى الله عليه وسلم للمهر مشبهًا به .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٤١٨

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

(٣) سورة البقرة ، آية رقم ٢٧٦

المشبه في الحديث صورة تربية الله سبحانه وتعالى للصدقة ، والمشبه به صورة تربية الإنسان لمهره ، والأداة الكاف ، ووجه الشبه الاهتمام والرعاية والحرص على النماء والزيادة في المُرَبَّى ، فالمشبه عقلي وهو تربية الربّ لصدقة العبد ، والمشبه به حسي وهو تربية الرجل لفلوه ، والتشبيه مرسل مجمل حيث ذكر الأداة و لم يذكر وجه الشبه صراحةً ، والغرض من التشبيه هنا الحث على الصدقة مهما قلّ حجمها وقيمتها الدنيوية ، وبيان فضل الله في التعامل مع أعمال العباد الخالصة لوجهه ومضاعفة أجرها وحجمها في الآخرة ، حتى ليعظم حجم أجر التمرة ليصبح بحجم الجبل العظيم بفضل الله .

أما فائدة التشبه هنا فالمبالغة في تقرير صورة المشبه وهو تربية الربّ لصدقة العبد في نفس المخاطبين بصورة المشبه به وهو تربية الإنسان لفلوه والقصد من ذلك الترغيب في الصدقة .

ويستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان في بيان مقدار حجم الأجر المترتب على عمل العبد في الدنيا ، ويبين ما أعده الله له يوم القيامة ، ومن أمثلته :

٤- التشبيه بالبَدَنَةِ ، والبَقَرَةِ ، والكَبْشِ ، والدَّجَاجَةِ :

البَدَنَةُ : جمعها بُدُنٌ ، بضمِّ الدال ، وإسكانها ، وبالإسكان جاء القرآن ؛ وممن ذكر الضم الجوهري رحمهُ الله ، وهو ما أُشْعِرَ من ناقةٍ أو بقرة ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تُبَدَّنُ أي تُسَمَّنُ . وقال النووي : هي البعير ، ذكرًا كان أو أنثى ، وشرطها أن تكون في سن الأُضحية عند الفقهاء ، وعند اللُّغويين أو أكثرهم تطلق على الإبل والبقر . وقال الأزهري : تكون في الإبل والبقر والغنم ؛ سُمِّيَتْ بذلك لعظم أبدانها .[1]

والبَقَرَةُ : اسم جنس ، والبقرةُ تقع على الذكر والأنثى ، والهاء للإفراد ، والجمع البَقَرَاتُ .[2]

والكَبْشُ : فحل الضأن ، في أي سِنٍّ كان ؛ وقيل : إذا أثنى ، وقيل : إذا أربع . والجمع : أَكْبُشٌ وكِبَاشٌ .[3]

والدَّجَاجَةُ : سميت الدجاجة دجاجةً لإقبالها وإدبارها . يقال : دجَّ القوم يدجُّون ، دجًا ودَجِيجًا :

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٨٦-٣٨٧

(٢) مختار الصحاح مادة (ب ق ر) ص٣٣

(٣) حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٥٥٤

إذا مَشَوا مشيًا رُوَيْدًا ، في تقارب خَطْوٍ . وقيل هو أن يُقْبلوا ويدبروا .[١]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .[٢]

جاء هذا الحديث في بيان فضل التبكير إلى صلاة الجمعة ، انظر إلى هذا المشهد الذي صوّره لنا عليه الصلاة والسلام وقد جاء كل مسلم يسوق قربانه يوم القيامة ، فمنهم من جاء ببدنة ومنهم من جاء ببقرة ومنهم من جاء بكبشٍ أقرن . . . وما ذلك إلاّ ليبين لنا قيمة التبكير إلى صلاة الجمعة ، ثم انظر ما لهذا المشهد من أثر عجيب في نفوس المخاطبين من شأنه أن يحفّزهم ويعلي همتهم في التنافس والتبكير لأداء هذه الشعيرة .

والحديث يصوّر مقدار حجم الأجر للمقبلين على أداء هذه الشعيرة العظيمة حين شبهه بمجموعة من الحيوانات من الأعلى إلى الأدنى بحسب تبكيرهم إلى الصلاة ، فالذي راح في الساعة الأولى كان له من الأجر كالذي قدَّم بدنة ، والبدنة من أعظم وأثمن الأنعام عندهم ، أما الذي جاء في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، والبقرة أقل ثمنًا وقيمة من البدنة ، وكذلك ينقص الأجر بمقدار التأخر عن الصلاة حتى يصل إلى بيضة ، ثم تنصرف الملائكة لتستمع الذكر بعد خروج الإمام ، ونفهم من ذلك أن الملائكة لا يكترثون بمن يأتي من المصلين بعد حضور الإمام ولا يسجلون له شيئًا من الأجر والله تعالى أعلم .

والتشبيهات في هذا الحديث توضّح حال من خرج لصلاة الجمعة وأنها مرتبة في الأجر كحال من تصدّق ببدنة أو بقرة أو كبش أو دجاجة أو بيضة ، وهذه التشبيهات مرسلة حيث ذكر أداة التشبيه ، ومجملة إذ لم يذكر وجه الشبه ؛ لأنه بيّن حيث قصد بيان مقدار الأجر المترتب على التبكير للصلاة ، والطرفان عقليان أجر وثواب ، وهو تشبيه متعدد .

أما فائدة التشبيه في الحديث – والله أعلم – فتوكيد حصول الأجر في الآخرة لاسيما وقد استخدم كأنّ للتشبيه ، وذلك أن التشبيه هنا من شأنه أن يقرر مقدار المشبه في الذهن وهو حجم الأجر الذي

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٣٣٢

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

أعدَّه الله للمبكرين إلى صلاة الجمعة ، ويعمق المعنى ويثبته في نفس السامع للترغيب فيه والحرص على تحقيقه .

٥- التشبيه بالطير :

الطَّائِرُ : واحد الطُّيُور ، والأنثى طَائِرَةٌ ، وهي قليلةٌ ؛ وجمع الطّير : أَطْيَارٌ وطُيُورٌ . والطيران : حركة ذي الجناحين في الهواء بجناحيه .[١]

في سياق الحث على قراءة القرآن وبيان فضل سورتي البقرة وآل عمران يقول : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحتجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة "[٢] بعد أن أكّد صلى الله عليه وسلم شفاعة القرآن لقارئيه أراد أن يخصّ سورتي البقرة وآل عمران بالفضل والنفع فسمَّاهما (بالزهراوين) ؛ لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما ، وليبين مقدار أجرهما يوم القيامة شبههما بثلاثة أشياء : كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان وهما متقاربان في المعنى أي كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، ونلاحظ هنا كيف صوّر لنا صلى الله عليه وسلم فائدة هاتين السورتين حينما تصبحان غطاءً لرأس قارئهما يوم القيامة ذلك اليوم الذي يكون الناس فيه في أمس الحاجة للظل حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق قدر ميل وتسّعر جهنم .

والتشبيه الذي يهمنا هنا هو تشبيهه صلى الله عليه وسلم لمقدار حجم أجر قارئ هاتين السورتين حين شبه أجرهما بالفرقين من الطير ، وفي الرواية الأخرى كأنهما حزقان من طير صواف ، والفرقان بكسر الفاء وإسكان الراء والحزقان بكسر الحاء المهملة وإسكان الزاي ومعناهما واحد وهما قطيعان وجماعتان يقال في الواحد فرق وحزق وحزيقة أي جماعة .[٣]

وهذا الشبيه التمثيلي يصوّر لنا هذا المشهد العظيم وكأنّ هاتين السورتين قد تحولتا يوم القيامة إلى

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص١٦

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

(٣) ينظر : شرح النووي على مسلم ج٦/ص٩٠

جماعتين من الطير بحجم سحابتين تغطيان رأس صاحبهما يوم القيامة .
ونلاحظ في الحديث أن المشبه واحد والمشبهات بها ثلاثة ، وفي هذا دلالة على عظم المشبه وأهميته .

فالمشبه في الحديث سورة البقرة وآل عمران ، والمشبه به الفرقان من الطير ، والأداة كأنّ ، ووجه الشبه الإفادة من العمل الصالح وبيان حجم الأجر ، فالمشبه حسي والمشبه به عقلي ، والتشبيه تمثيلي ، والغرض من التشبيه الحث والإغراء والتشجيع على قراءة القرآن والاهتمام بقراءة تلك السورتين .

وفائدة التشبيه المبالغة في بيان عظيم فضل الله وكرمه والترغيب في قراءة القرآن .

٦- التشبيه بالعصفور :

العُصْفُورُ : بضمِّ العين ؛ وحكى ابن رشيق في كتاب " الغرائب والشذوذ " : عَصْفُور - بالفتح - والأنثى عَصْفُورةٌ ... وكنيته : أبو الصَّعْوُ ، وأبو مُحْرِزٍ ، وأبو مُزاحِمٍ ، وأبو يَعقوب . قال حمزة : سُمِّيَ عُصْفُورًا ، لأنّهُ عَصَى وَفَرَّ . [1]

ويستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه حينما يريد بيان مقدار النقص في الحجم في بعض الأمور ؛ لتقريب المعنى إن كان غريبًا ، ومن أمثلة ذلك :
قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر) والحديث طول ، وشاهدنا فيه قوله في آخر الحديث : " . . . فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر : يا موسى ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . . . " [2] في هذه الجزئية من الحديث يبين عليه الصلاة والسلام سعة علم الله ، فقد شبه عليه الصلاة والسلام مقدار علم الخضر وعلم موسى - عليهما السلام - بجانب علم الله - سبحانه - بمقدار ما أخذه العصفور من ماء البحر ، فعلم موسى والخضر مثل ما علق في منقار العصفور وعلم الله بقية البحر .

قال العلماء : (لفظ النقص هنا ليس على ظاهره ، وإنما معناه : أن علمي وعلمك بالنسبة إلى علم الله تعالى كنسبة ما نقره هذا العصفور إلى ماء البحر . هذا على التقريب إلى الأفهام وإلاّ فنسبة

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ ص٩٤-٩٥

(٢) صحيح البخاري (٣٤٠١/٥٧٠)

علمها أقل وأحقر)[١]، فالتشبيه هنا لبيان مقدار المشبه وبيان نقصه واحتقاره ؛ لأن العصفور من أصغر الحيوانات حجمًا وأضعفها قدرة وحيلة فكيف بمنقاره ؟!

فالمشبه في الحديث مقدار علم موسى عليه السلام والخضر ، والمشبه به مقدار ما أخذه العصفور بمنقاره من ماء البحر ، ووجه الشبه القلة ، ونوع التشبيه تمثيلي لأنه يمثل صورة بصورة أو حال بحال ، والتشبيه مرسل لوجود أداة التشبيه ، ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه ، وهو من قبيل تشبيه المعقول (نقص العلم) بالمحسوس (ما أنقصه العصفور بمنقاره من ماء البحر) ؛ لتجلية المعنى المعقول وتقريبه لأذهان المخاطبين . أما فائدة التشبيه في هذا الحديث فيتضح أنها المبالغة في بيان نقص علم المخلوقين قياسًا بعلم الخالق سبحانه .

ب- مقدار الوزن :

وكذلك يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان حينما يريد بيان مقدار الوزن ومن الأمثلة على ذلك :

١- التشبيه بالذّرَّة :

الذّرّة : النمل الأحمر الصغير ، واحده : ذَرَّةٌ . قال تعالى : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّةٍ ﴾[٢] أي لا يبخس ولا يَنْقُصُ أحدًا من ثواب عمله مثقال ذرّةٍ ، أي وزن ذرّةٍ .

وقيل إن الذّرّةَ ليس لها وزنٌ . ويحكى أن رجلاً وضع خبزًا حتّى علاه الذرُّ ، وستره ، ثمّ وزنه فلم يزد شيئًا .

وقيل : الذّرُّ : أجزاء الهباء في كوّة ، وكل جزءٍ منه ذرّة ، ولا يكون لها وزن .[٣]

يقول صلى الله عليه وسلم :" ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذرّة من خير".[٤]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٥-١٦ / ص٢٠٤

(٢) سورة النساء ، آية ٤٠

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص٤١٩

(٤) صحيح البخاري ، حديث رقم (٤٤) صفحة ١٠

في هذا الحديث ينبّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية التوحيد بقول : لا إله إلا الله مع تصديق القلب بها ووجود الخير فيه ، أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين مقدار المشبه في مدى صغره مع عظيم نفعه حين شبه الخير والإيمان الموجود في القلب بوزن الذرة هذا المقدار الصغير من الإيمان الذي كان سببًا في إخراج صاحبه من النار .

فالمشبه في الحديث وزن الإيمان والخير في القلب ، والمشبه به وزن الذرة (النملة الصغيرة) [١]

، ووجه الشبه خفة الوزن مع عظيم النفع . فالمشبه عقلي وهو الإيمان والخير ، والمشبه به حسي وهو وزن الذرة ، والتشبيه مؤكد مجمل لعدم وجود الأداء ووجه الشبه .

والغرض من التشبيه بيّن حيث أراد النبي صلى الله عليه وسلم بيان قيمة الإيمان والخير ولو قلّ في نظر الناس ومقاييسهم في الدنيا فالذرة وزن محتقر عند الناس لخفّته ، لكنه لما كان وزنًا للإيمان والخير كان عند الله عظيم ؛ لذلك كان هذا الوزن الخفيف من الإيمان والخير مُخرجًا ومنجيًا صاحبه من النار يوم القيامة .

وفائدة التشبيه في الحديث تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه والمبالغة في بيان نفع الإيمان ولو كان بمقدار وزن الذرة .

وشاهد آخر على التشبيه بوزن الذرّة جاء في تحريم الكبر والعُجْب وبيان عاقبته حين ينفي النبي صلى الله عليه وسلم دخول المتكبر الجنة ، ولو كان في قلبه مثقال ذرة من هذا الكبر ، وذلك في قوله : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كبرٍ " ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً ، قال : " إن الله جميلٌ يحب الجمال ، الكبر بطر الحقِّ ، وغَمْطُ الناس " .[٢]

حيث شبه صلى الله عليه وسلم مقدار الكبر في القلب بمثقال الذرّة ؛ لبيان قلّته ، ومع ذلك كان هذا المقدار اليسير منه مانعًا لصاحبه من دخول الجنة ، وقيل إن المراد بالذّرّة : أصغر النمل ، وقيل : رأس نملة حمراء ، وقيل : اليسيرة من التراب ، وقيل : الخردلة . والمقصود بالكبر في الحديث رفض الحق وردَّه والتعالي على الناس واحتقارهم ، وليس التزيّن وإظهار الجمال من الكبر كما يظن بعض الناس وهذا ما دلّت عليه إجابة النبي صلى الله عليه سلم على الرجل الذي قال : إن الرجل يحب أن يكون

---

(١) كما نقل ذلك الإمام ابن حجر في فتح الباري عن بعض العلماء في معنى الذرة ، راجع فتح الباري (ج١/١٢٩)

(٢) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٦٥) صفحة ٦١

ثوبه حسنًا ونعله حسنةً . والغرض من الوعيد هنا بنفي دخول المتكبر الجنة هو التنفير من هذه الصفة. فالمشبه في الحديث الكبر وهو عقلي ، والمشبه به مثقال الذّرّة وهو حسي ، والتشبيه مؤكد مجمل لعدم وجود الأداء ووجه الشبه وإن كان وجه الشبه معلومًا من السياق إذ هو خفّة الوزن وقلّة المقدار .

٢- التشبيه بالبعوضة :

البَعُوضُ : دُوَيْبَّةٌ . قال الجوهري : إنه البَقُّ ، والواحدَةُ بَعُوضَةٌ . وهو وَهْمٌ ، والحقّ أنه صنفان ، وهو يشبه القُرادَ ، لكنَّ أرجله خفيفة ، ورطوبته ظاهرة ؛ ويسمَّى بالعراق والشام : الجِرْجِسُ . قال الجوهري : هو لغةٌ في القِرْقِسِ ، وهو البعوض الصِّغار .[1]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – وقال – : اقرؤوا : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾[2] " .[3]

حينما أراد النبي صلى لله عليه وسلم أن يبين فساد أعمال أهل الكفر والشرك وعدم قبولها عند الله ، وأن هذه الأعمال وأصحابها لا تزن عند لله شيئًا استخدم صلى الله عليه وسلّم التشبيه ليحقّر أهل الكفر وأعمالهم .

والبعوضة من أصغر مخلوقات الله تعالى حجمًا ووزنًا وقدرًا فناسب هنا تشبيه حقارة الكافر ولو كان عظيم الحجم سمين البدن بحقارة البعوضة بل لا يزن عند الله جناها فضلاً عن أن يزن كامل جسمها ، والإشارة بهذا إلى أن القدر إنما يكون بالإيمان والتقوى وكم من عظيم الجثة لا وقع له لأن الوقع إنما يكون بالمعاني لا بالصور . ولا شك أنّ في هذا التشبيه ما فيه من الذم والتحقير ؛ لأن الإيمان هو المقياس الحقيقي للناس عند الله لا بأجسامهم ولا بأشكالهم ولا بأوزانهم ، بل بمقدار ما تحمل قلوبهم من الإيمان وما بذلت أبدانهم من أعمال البر والخير .

فالمشبه في الحديث وزن الرجل العظيم السمين (الكافر) ، والمشبه به وزن جناح البعوضة ، ووجه الشبه خفة الوزن وحقارة الموزون .

التشبيه مؤكد لعدم وجود الأداء ، ومرسل لعدم وجود وجه الشبه ، والطرفان حسيان ، والغرض من

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٤٢٢-٤٢٣

(٢) سورة الكهف ، آية رقم ١٠٥

(٣) صحيح البخاري (٨٢٢/٤٧٢٩)

التشبيه تحقير الكافر وعمله ، وإن ظهر عليه ضخامة الجسم وعظمة الوزن في الدنيا . وفائدة التشبيه في الحديث المبالغة في ذم الكافر وتحقير قيمته عند الله عزّ وجل .

ج- مقدار السرعة :

يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم التشبيه بالحيوان لبيان مقدار السرعة في بعض أحاديثه ، وسنضرب على ذلك مثالاً :

١- التشبيه بالطائر[(١)] ، والجواد ، والركاب :

والجواد : الفرس الجيِّدُ العَدْوِ ، سُمِّيَ بذلك لأنه يَجُودُ بِجَرْيِهِ ، والأنثى جَوادٌ أيضًا . والجمع : جَوْدٌ وجِيَادٌ ، كَثَوْبٍ وثِيَابٍ .[(٢)]

والرِّكَاب : بكسر الراء : الإبل ؛ واحدها : راحِلَةٌ ؛ وجمعها رَكَائِب .[(٣)]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل جاء في صحيح مسلم في كتاب الإيمان تحت باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، جاء فيه في وصف الجسر : " . . . قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلّة ، فيه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسك ، تكون بنجد ، فيها شويكة ، يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب فناج مسلّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم . . . " (٤)

في هذا الحديث يشبه النبي صلى الله عليه وسلم سرعة مرور أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة على الصراط بسرعة طرف العين والبرق والريح والطير وأجاويد الخيل والركاب ، وكل هذه المشبهات بها أمور يعرفها الناس كما يعرفون مقدار سرعتها وبالتالي يكون هذا التشبيه محفّزًا لهم على المبادرة والإكثار من الأعمال الصالحة ؛ لتكون سببًا في زيادة سرعتهم على الصراط يوم القيامة ، وليتخلصوا — بإذن الله ورحمته — من الوقوع في نار جهنم ، لا سيما وقد ثبت في وصف الصراط أنه أدق من

---

(١) سبق التعريف بالطائر في ص٣٥-٣٦

(٢) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٧٠٥

(٣) المصدر السابق ج٢/ص٤٦٥

(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٤٥٤) صفحة ٩٧

الشعرة ، وأحد من السيف ، على متن جهنم ، لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول من خشية الله عز وجل .[1] واختار عليه الصلاة والسلام من الحيوانات الطير وأجاويد الخيل والركاب ؛ لِما عُرِفت به من السرعة الفائقة في ذلك الوقت .

فالمشبه في الحديث سرعة المؤمن على الصراط ، والمشبه به الطير وأجاويد الخيل والركاب ، ووجه الشبه سرعة المرور ، فالتشبيه مرسل مجمل حيث ذكر الأداة وهي الكاف ، ولم يذكر وجه الشبه ، والطرفان حسيان . والغرض من التشبيهات بيان مقدار سرعة المشبّه في مروره على الصراط المتناسبة مع عمله في الدنيا وهذا من التشبيه المتعدد . وفائدة التشبيه المبالغة في سرعة المشبه وتقرير ذلك في نفس المخاطب ليزداد يقينًا به .

(١) ينظر كتاب : المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، الناشر جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت – لبنان) ، ١٤١٩هـ ، ج٨ ص٣٠٦ .

المبحث الثالث

ما كان تشبيهاً به في السرعة

كذلك يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم فن التشبيه إذا أراد بيان سرعة المشبه وتقريبه من أذهان المخاطبين ، وحين ذلك يشبه ببعض الحيوانات السريعة ، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

أ- التشبيه بسرعة الإبل :

الإِبِلُ : بكسر الباء الموحَّدة ، وقد تُسَكَّنُ للتخفيف : الجمال ، وهو اسم واحد يقع على الجميع ؛ وليس بجمعٍ وإنما هو دالٌّ على الجنس ؛ كذلك قال ابن سِيْدَه .

وربما قالوا للإبل : إِبْل بإسكان الباء كما تقدم ، والجمع آبالٌ ؛ والنسبة إِبَليّ بفتح الباءِ .... ويقال للإبل : بنات الليل . ويقال للذكر والأنثى منها : بَعيرٌ إذا أجْذَعَ ، ويُجمعُ على أَبْعِرَةٍ وبُعْرَان .[(١)]

يقول صلى الله عليه وسلم : " تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصيًا من الإبل في عقولها "[(٢)]

جاء هذا الحديث في سياق الترغيب في قراءة القرآن معاهدته ومراجعته حتى لا يتعرض للنسيان حيث أخرج لنا صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في صورة بيانية رائعة كان من شأنها أن تؤثر في نفس السامع وتوصل له المعنى المراد من أقصر طرقه وذلك بتشبيه سرعة نسيان القرآن وتفلّته من صدور الرجال بسرعة تفلّت الإبل في عقولها . والتشبيه هنا لم يتم التصريح به وإنما جيء به على سبيل التشبيه الضمني ، واختار للتشبه طريقة أفعل التفضيل مبالغةً ، فليس المعنى أن القرآن يتفلّت من صدور الناس كما تتفلت الإبل في عقولها ، بل تفلت القرآن أشد من ذلك وأسرع .

فالتشبيه هنا تشبيه تمثيلي حيث شبّه حالاً بحال ، فالمشبه هو حال تفلت القرآن وتفصيه من صدور الرجال إذا أهمل و لم يُعاهد بمداومة القراءة والمراجعة له ، والمشبه به حال تفلت وتفصي الإبل في عقولها إذا أهملت و لم يتعاهدها أصحابها بالعقال ، ووجه الشبه سرعة التفلت وصعوبة الإدراك في كلٍ.

ونجد هذا المعنى جاء في هذا الحديث في درج الكلام و لم يتم التصريح به وهو من التشبيه التمثيلي .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٧٣-٧٤

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٥٠٣٣) صفحة ٩٠٢

أما فائدة التشبيه في الحديث فالمبالغة في وصف سرعة نسيان القرآن ويتضح ذلك في استخدامه صلى الله عليه وسلم لأفعل التفضيل في موضع أداة التشبيه ، كما أن في الحديث مبالغة في الحث على قراءة القرآن والتوصية بالمداومة على مراجعته والاهتمام بالمحافظة عليه ويتضح ذلك جليًا في أمره صلى الله عليه وسلم في أول كلمة في الحديث (تعاهدوا القرآن) .

ب- التشبيه بسرعة الحيّة :

الحيّةُ : اسم يطلق على الذّكر والأنثى ؛ فإن أردت التمييز ، قلت : هذا حيّةٌ ذكرٌ ، وهذه حيّةٌ أنثى – قال المبرد في " الكامل " – وإنما دخلته الهاء ، لأنه واحد من جنسٍ كبطة ودجاجة .

على أنه قد روي عن بعض العرب : رأيت حيًّا على حيّةٍ : أي ذكرًا على أنثى ؛ وفلانٌ حيّةٌ ذكرٌ . والنسبة إلى الحيّة : حيويٌّ . والحيُّوتُ : ذَكَرُ الحيَّاتِ .[1]

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم بالحيّة في قوله : " إن الإيمان ليَأْرِزُ إلى المدينة ، كما تَأْرِزُ الحيّة إلى جحرها "[2] قال الشريف الرضي : (والمراد أن الإسلام ليأوي إلى المدينة كما تأوي الحية إلى جحرها ، وأصل ذلك مأخوذ من التقبض والاجتماع ، يقال : أرز أُروزًا إذا كان منه ذلك ، فجعل عليه الصلاة والسلام المدينة كالوِجار للإسلام يتقلص إليها وينضمّ إلى حماها لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه) .[3]

وقيل إن معناه : أن المؤمن إنما يسوقه إلى المدينة إيمانه ومحبته للنبي صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون المراد بذلك ، عصمة المدينة من الدّجّال والفتن ، فيكون الإسلام فيها موقّرًا .

ويحتمل أن يكون المراد بذلك ، رجوع الناس إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها منها ظهرت .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص١٦٢

(٢) صحيح البخاري (١٨٧٦/٣٠٢)

(٣) المجازات النبوية ، لأبي الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٩١هـ ، ص٨٥

ويحتمل أن يكون المراد بذلك ، أن الدين يؤخذ من علمائها وإئمّتها ، وكذلك كان .[١]

فالإسلام في قوته خرج من المدينة ولما خاف وقلّ أنصاره عاد إليها ، والحية تنتشر من جحرها في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها .[٢]

ولاحظ ما توحي به لفظة (يأرز) وما يدور في ظلها من الدلالة على الضم والجمع ، وما تحمله من دلالة الخوف والذعر الذي يصيب العائدين إلى المدينة فهم إذا خافوا على دينهم عادوا إلى المدينة ، كما هو حال الحية فإرز الحية معناه أنها تدخل جحرها من ذنبها فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعد ، وأرز الحية على هذه الصفة إذا كانت خائفة ، أما إذا كانت آمنة فهي تبدأ برأسها فتدخله وهذا هو الانجحار .[٣] كما نلاحظ ما يحمل الفعل المضارع من الدلالة على التجدد .

فالمشبه في الحديث صورة رجوع الإيمان إلى المدينة ، والمشبه به صورة رجوع الحيّة إلى جحرها ، وأداة التشبيه الكاف ، ووجه الشبه سرعة الرجوع .

فالتشبيه تمثيلي إذ هو تشبيه صورة بصورة ، ووجه الشبه منتزع من متعدد ، والطرفان حسيان والتشبيه يصور لنا صورة مليئة بالحركة والحيوية والخيال .

أما الغرض من التشبيه في الحديث فبيان فضل المدينة وقيمتها في الإسلام وعند المسلمين ، وسرعة رجوع المسلمين لها في حالة خوفهم على دينهم ، وفائدة التشبيه التبيين والتوضيح .

ج- التشبيه بسرعة الفرار من الأسد :

الأَسَدُ : من السِّباع معروفٌ ، وجمعه أُسُودٌ وأُسْدٌ وآسُدٌ وآسادٌ ، والأنثى أَسَدَةٌ .[٤]

قال النبي صلى الله عليه وسلم الأسد : " لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر ، وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد " .[٥]

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٢/ص١٩٠

(٢) فتح الباري ج٤/ص١١٢

(٣) ينظر : لسان العرب ج٥/ص٣٠٥

(٤) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٣٨

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٥٧٠٧) صفحة ١٠٠٩

لم يشبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بالأسد من حيث قوته أو شجاعته ، وإنما شبه بسرعة الفرار منه . وفيه يكشف لنا صلى الله عليه وسلم مدى حرصه ورحمته بالأمة حيث أمر في آخر الحديث بالفرار من المجذوم وشبه ذلك الفرار بالفرار من الأسد مبالغةً في السرعة والحرص على التخلّص من هذا المرض ورغبة في النجاة منه ، وسواء كان الجذام مرضًا معديًا أو لا ، وسواء كان الأمر في الحديث للوجوب أو للاستحباب والاحتياط أو للشفقة [1] فهو يدل على رحمته صلى الله عليه وسلم لأنه كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأي وجه كان ، كما كان يدلهم على كل ما فيه الخير لهم .

وبالنظر للتشبيه في الحديث يتضح تشبيهه صلى الله عليه وسلم للفرار من المجذوم بالفرار من الأسد ، ووجه الشبه سرعة الفرار للتخلص من العدوى أو الإصابة بهذا المرض الخبيث المعدي كما يسرع بالفرار من الأسد خوفًا من افتراسه أو بطشه وإيذائه .

فالمشبه صورة الفرار من المجذوم ، والمشبه به صورة الفرار من الأسد ، والجامع بينهما سرعة الفرار والحرص على التخلص ، واختار الأسد في المشبه به ؛ لأنه من أعظم الحيوانات شجاعةً وقوةً وبطشًا ؛ ولذلك هاب الناس والحيوانات لقاءه فكان مناسبًا أن يشبه الفرار من المجذوم بالفرار من الأسد توضيحًا لأهمية التخلص والسرعة في تحقيقه .

والتشبيه في الحديث مفرد ، والطرفان حسيان حيث إن كليهما يدرك بحاسة البصر . والغرض من التشبيه الوجوب أو الاستحباب ، أما فائدة التشبيه في الحديث فهي المبالغة في الترهيب من داء الجذام والأمر بوجوب التخلص منه أو الترغيب في ذلك .

ومما يجدر التنبيه إليه أن في أول الحديث دعوة إلى ترك ما كان يعتقده الجاهليون من الطيرة وغيرها ، ومن أن بعض الأمراض تعدي بطبعها ، كما أن في الحديث دعوة لوجوب التوكل على الله إذ أريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى وأنه لا يصيب الإنسان إلاّ ما قدّر الله عليه .

---

(١) رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم وأكل معه وقال له : كل ثقة بالله وتوكلاً عليه ، لذلك أختلف العلماء في حكم اجتناب المجذوم والفرار منه ، حتى قال بعضهم أن الأمر باجتنابه منسوخ . والصحيح الذي قاله الأكثرون ويتعين المصير إليه أنه لا نسخ بل يجب الجمع بين الحديثين وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط لا الوجوب وأما الأكل معه ففعله لبيان الجواز . ينظر : فتح الباري لابن حجر في باب الجذام ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبي الطيب في باب في الطيرة .

د- التشبيه بقعاص الغنم :

الغَنَمُ : الشَاءُ ، لا واحد له من لفظه ؛ والجمع : أَغْنامٌ وغُنُومٌ وأَغانِيمٌ ؛ وَغَنَمٌ مُغَنَّمَةٌ : أي كثيرةٌ . وقال الجوهيري : الغَنَمُ :اسم مؤنث موضوع للجنس ، يقع على الذكور والإناث ، وعليهما جميعًا[١]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم حين يخبر عن بعض علامات الساعة : " اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " [٢]

نلاحظ في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بست علامات تنذر بقيام الساعة ، ذكر منها موتان وشبه أخذهما في الناس بقعاص الغنم (بضم العين المهملة وتخفيف القاف وآخره مهملة ، وهو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة . قال أبو عبيدة : ومنه أخذ الإقعاص وهو القتل مكانه . وقال ابن فارس : العقاص داء يأخذ في الصدر كأنه يكسر العنق . ويقال إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس) [٣] ، ومما سبق يتضح أن المقصود من تشبيهه صلى الله عليه وسلم للموتين بقعاص الغنم فُجاءة الموت وسرعته وكثرته .

فالمشبه في الحديث سرعة الموت الذي يأخذ بالناس ، والمشبه به قعاص الغنم ، والأداة الكاف ، ووجه الشبه سرعة الموت وفجاءته .

أما غرض التشبيه فهو الإخبار ببعض الغيبيات من أشراط الساعة والله أعلم ، وفائدة التشبيه المبالغة في تقرير سرعة الموت في نفوس المخاطبين وفجاءته .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٣/ص٣٠٣

(٢) صحيح البخاري (٣١٧٦/٥٢٩)

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٦ / ص٣١٧٦

المبحث الرابع

ما كان تشبيهاً به في القلّة والندرة

كذلك كان صلى الله عليه وسلم يستخدم التشبيه بالحيوان لبيان قلة المشبَّه ، وندرته أحيانًا وفي ما يلي أمثلة على ذلك :

أ- التشبيه بالراحلة [١]:

يقول النبي صلى الله عليه سلم : " تجدون الناس كإبلٍ مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة ".[٢]

عندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بيان ندرة أهل الخير والكرام من الناس شبههم بندرة الراحلة في الإبل المائة ، (أراد أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة) .[٣] والإبل لا تعرف الراحلة فيها إلا بعد تجارب واختبار وخبرة كذلك الكريم النقي المحب للخير لا يظهر إلا بعد تربية وتجارب حياتية أثمرت فيه فصقلته ونقحته ، وهذه الفئة من الناس قليلة في كل زمن .

وانظر إلى بيانه صلى الله عليه وسلم كيف أحسن اختيار المشبه به إذْ الإبل أغلى ما كان يملك العربي من الأنعام ، والراحلة أفضل أنواعها وأكثرها نفعًا ، وكذلك الصداقة والأخوة أغلى ما يملكه الإنسان في علاقاته البشرية ، والأخ المخلص القوي المعين لإخوانه أفضل أنواع الإخوان والأصدقاء .

فالمشبه ندرة الكرام الأخيار بين الناس ، والمشبه به ندرة الراحلة النجيبة في الإبل المائة ، ووجه الشبه القلة التي ينبع منها الخير وتكون نافعة لغيرها ، فالطرفان حسيّان ، والتشبيه في الحديث مرسل مجمل حيث ذكر الأداة ولم يذكر وجه الشبه لوضوحه .

والغرض من التشبيه بيان حال المشبه من حيث ندرته والحرص على وجوده ، أما فائدة التشبيه في الحديث فلإيجاز حيث عبّر صلى الله عليه وسلم عن قلّة الكرام وأهل الخير والزهد الراغبين في الآخرة والنافين لغيرهم من إخوانهم والكاشفين عنهم كربهم المرضي عنهم الكاملين الأوصاف الأقوياء على الأحمال والأسفار عبّر عن هذا المعنى العظيم بألفاظ التشبيه القليلة المنحصرة بتشبيه ذلك الرجل النادر بين الناس بالراحلة بين الإبل .

---

(١) سبق التعريف بالراحلة في مبحث تحسين المشبه انظر ص١٥٣

(٢) صحيح مسلم (١٠٥٧/٦٤٩٩)

(٣) لسان العرب (١٧١/٥)

ب– التشبيه بالثور :

الثَّوْرُ : الذكر من البقر ، وكنيته أبو عِجْلٍ ؛ والأنثى ثَوْرَةٌ ، والجمع ثِوَرَةٌ وثِيْرانٌ وثِيَرَةٌ ... وسمي الثور ثورًا ، لأنه يُثِيرُ الأرض ، كما سميت البقرة بقرةً ، لأنها تَبْقَرُها .[١]

قال صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين . فعنده يشيب الصغير { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }[٢] قالوا يا رسول الله : وأينا ذلك الواحد ؟ قال : أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا . فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبرنا . فقال : أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبرنا. فقال : ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود ".[٣]

هذا الحديث يمثّل لنا نسبة المسلمين مقارنة بغيرهم من أهل الموقف يوم القيامة حيث يكشف لنا صلى الله عليه وسلم بطريقة محسوسة قلّة المسلمين في ذلك الموقف ، إضافة إلى توضيح ظهورهم وتميزهم وسط الأمم ، فهم كرام والكرام قليل ، شعرة مغايرة لبقية الشعر اتفقت مع غيرها في الشكل واختلفت في اللون والمضمون ، فالمسلمون وإن كانوا مشابهين لبقية الأمم في البشرية فهم في المكانة والكرامة عند الله مميزون .

وفي اختياره صلى الله عليه وسلم للثور في هذا التشبيه إيحاء بالحث على العمل الصالح والضرب في الأرض إذ عُرف هذا الحيوان بالقوة والنشاط والشجاعة والبأس . وربما يكون اختار الثور دون بقية الحيوانات لكثرة شعره وكثافة فروه .

فالمشبه حال الأمة الإسلامية بين الأمم ، والمشبه به حال الشعرة السوداء في الثور الأبيض أو حال الشعرة البيضاء في الثور الأسود ، ووجه الشبه القلة والندرة مع المغايرة الكاملة والتَّميُّز .

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١/ص٥٨٩-٥٩٠

(٢) سورة الحج آية رقم ٢

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٤٨) صفحة ٥٥٨

إذن التشبيه تمثيلي لأنه شبه حالاً بحال ، وهو مرسل حيث ذكرت الأداة ، ومجمل إذ لم يذكر وجه الشبه وإن كان معلومًا من سياق الكلام ، والطرفان حسيان . والتشبيه في الحديث يفيد البيان والتوضيح حيث أنه جلَّى لنا قلة عدد هذه الأمة قياسًا بأعداد الأمم الأخرى وفي هذا بشرى لهم إذا رُبِط هذا التشبيه بأول الحديث حيث قال صلى الله عليه وسلم في أوله في بعث أهل النار : " أبشروا فإن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج ألف " .

ج- التشبيه بالنَّعَمِ :

النَّعَمُ : عند اللغويين : الإبل والشاة ، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ ... والجمع أَنْعامٌ ؛ وجمعُ الجمعِ : أَناعِيْمُ .
وعند الفقهاء : النَّعَمُ يشمل الإبل والبقر والغنم . وقال ابن الأعرابي : النَّعَمُ : الإبل خاصةً ؛ والأنْعامُ : الإبل والبقر والغنم .(١)

قال صلى الله عليه وسلم يصف مشهدًا من مشاهد الآخرة رآه في منامه – ورؤى الأنبياء حق – : " بينا أنا نائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ ، فقلت : أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : وما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمَّ قلت : أين ؟ قال إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم " (٢)

ختم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بتشبيه ؛ الهدف منه التحذير من مخالفة أمره ، وذلك حين شبه قلّة من يردون حوضه صلى الله عليه وسلم ممن دنوا منه من هؤلاء المخالفين بقلة الإبل الهمل (بفتحتين الإبل بلا راعٍ) بالنسبة لغيرها مما لها راعٍ ، ونلاحظ هنا دقة هذه الصورة فهؤلاء المخالفون لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبل لا راعي لها يرعاها ويؤمّن لها حاجاتها ويهتم بها ، فهم قوم مُهْمَلون لا قيمة لهم في ذلك اليوم ، وهم قلّة بالنسبة لمن يردون الحوض وبذلك تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا به من أوامره صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ج٤/ص٨٩

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق (٦٥٨٧/١١٣٩)

فالمشبه صورة هؤلاء المخالفين لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمشبه به صورة الهمل من البهائم ، وأداة التشبيه مثل ، ووجه الشبه قلة الواردين لحوض رسول الله منهم ، كما أن في الصورة تحقيرًا لهم وعدم اكتراث بهم كما هو حال الإبل الضوال التي لا راعي لها .

أما الغرض من التشبيه فالتحذير من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان عاقبة المخالفين في الآخرة . وفائدة التشبيه في الحديث توكيد صورة المشبّه في أذهان المخاطبين وتعميق معناه في نفوسهم بصورته القبيحة للتنفير منه والترهيب منه .

الفصل الرابع

الجانب التأثيري
للتشبيه بالحيوان في الصحيحين

١ - المبحث الأول : الشعور بالفرح والبهجة والتفاؤل بالأجر .

٢- المبحث الثاني : الشعور بالخوف من العقاب .

٣- المبحث الثالث : الشعور بالتحقير والتنفير .

أولا : الشعور بالتحقير .

ثانياً : الشعور بالاشمئزاز والتقزز والنفور .

الأَثَرُ : بفتحتين ما بقي من رسم الشيء وضربة السيف ... والتأثير إبقاء الأثر في الشيء .[١]
ونقصد به هنا الانفعالات النفسية والاستجابات الناتجة عن تلقي المخاطب للتشبيه في البيان النبوي .

إن للتشبيه والتمثيل أثيرًا عظيمًا في معنى الكلام ، كما أن لهما تأثيرًا كبيرًا في نفس المتلقي ، وهذا هو غاية البلاغة وصلبها ، وثمرتها التي تجنى من دراستها ؛ لذلك كان الجانب التأثيري هو الفصل الأخير من هذا البحث ، ولبّ القول لما سبق من فصوله .

وقد بين الشيخ عبد القاهر أثر التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني حيث قال : واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهةً ، وكسبها منقبةً ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلفًا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا .

فإن كان مدحًا ، كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزَّ للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأَسْيَر على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر . وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد . وإن كان حجاجًا ، كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد وشرفه أجد ولسانه ألد . وإن كان اعتذارًا ، كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغرب الغضب أفلّ ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث . وإن كان وعظًا ، كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يُجلِّي الغياية ، ويُبصِّر الغاية ويُبرىء العليل ، ويشفي الغليل.[٢]

وكان صلى الله عليه وسلم يؤثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين ، لعلمه بأنّ التمثيل أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به ، ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي ، وترفع من شأنه ، وتكسو المعاني أبهة وتضاعف قواها في تحريك النفوس إلى

---

(١) مختار الصحاح ص١٠

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ص١١٥-١١٦

فعل المحمود وترك المذموم .[١]

وضرب المثل في الكلام عبارة عن إيقاعه وبيانه ، وهو في الكلام أن يذكر (لإيضاح حال من الأحوال) ما يناسبها ويشابهها ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيًا ، واختِيرَ له لفظ (الضرب) لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهَيْجِ الانفعال ، كأنّ ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه .[٢]

فإذا كان الغرض التأثير ، فالبلاغة تقتضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه ، بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها واعتادت النفوس النفور منها ، كما تضرب الأمثال لما يراد الحث عليه والترغيب فيه بحال الأشياء التي جرى العرف بقيمتها وتقديرها واعتادت النفوس الإعجاب بها .

إن الأمثال النبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان ، فيحرك الوجدانُ الإرادةَ ويدفعها إلى عمل الخيرات واجتناب المنكرات ، وبهذا تسهم التشبيهات النبوية في تربية الإنسان على السلوك الخيِّر وتهذب نزعاته الشريرة ، وتلك وربي من أعظم غايات البيان في الحديث النبوي ، فالأمثال النبوية سلاح (بلاغي ، عاطفي ، عقلي) ماضٍ ، بليغ الأثر ، عظيم النتائج ، جمّ الفوائد .[٣]

وأسباب تأثير التشبيه في النفوس كثيرة تحدث عنها الشيخ عبد القاهر ومن بعده ، ونستطيع أن نلخّص تلك الأسباب فيما يلي :

١- أن النفس بطبيعتها مجبولة على الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي ، نحو أن تنقلها من المعقول إلى المحسوس .

٢- استخدام الأسلوب غير المباشر للتعبير عن المراد ، أكثر تأثيراً في النفوس من الأسلوب المباشر غالباً ، وذلك في المجالات الأدبيّة ، وفي الموعظة ، وفي كثير من صُوَر الإقناع .

٣- ما في التشبيه من طُرُق متعدّدة ، وصُورٍ كثيرة ، تُعْطِي المعبّر البليغ مجالاً واسعاً لانتقاء ما يراه أكثر تأثيراً فيمن يوجّه له الكلام ، أو أكثر إبداعاً ، وهذا أمْرٌ يشعر فيه المتكلّم بلذّة الإبداع والابتكار وإيجاد ما لم يُسْبَقْ إليه .

---

(١) الحديث النبوي ، لمحمد لطفي الصباغ (بتصرف) .

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم ، للسيد رشيد رضا ، مطبعة المنار ١٣٤٦هـ ، ج١/ص٢٣٦

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، لعبد الرحمن النحلاوي ، دار الفكر المعاصر دمشق ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص٢٥٣ (بتصرف).

٤- كون الصورة الّتي يدلّ عليها التشبيه أكثر بياناً وأوضح دلالة وأدَقَّ أداءً من الكلمات التي تدلُّ بوضعها اللّغوي على المعنَى مباشرة ، دون استخدام التشبيه ، ولذلك يرى علماء النفس أن الإيحاء بإيصال القناعة بفكرة ما إلى ذهن السامع عن غير طريق التلقين المباشر كأن يكون عن طريق القصة أو التعريض أو التشبيه هو أشدّ تأثيرًا في بعض الأحيان من التلقين المباشر .(١)

وأقصد بالتأثير في هذا الفصل : الانفعالات التي منها ما يكون هادئاً ومنها ما يكون حاداً ، وهي تغير وثورة داخلية طارئة ، توجد لوجود مهيج ما ، وتزول لزواله .

فهي إذاً حالات اضطراب وتغير في الكائن الحي ، استجابة لمؤثر معين تميز بمشاعر قوية ، واندفاع نحو سلوك ذي شكل معين .(٢)

و(تلك الانفعالات الوجدانية الهائجة ، والدوافع النفسية الثائرة القوية ، هي التي تحمل الإنسان على العمل ، وتعاوده كل يوم بل كل لحظة من لحظات حياته ، فتسبب له الفوز والنجاح ، وتعينه على إخضاع الظروف المعارضة ، وتذليل صعوبات الحياة ، والتغلب عليها ، أو تجلب له الخزي والعار ، والمرض العضال ، والحزن المستمر ، والإخفاق الدائم ... والانفعال يشمل كل وجدان حاد كالخوف والفرح والحزن والأسف والندم والحقد والحسد والأمل والتفاؤل والتشاؤم) .(٣)

وحينما نتحدث عن أثر التشبيه في نفس المخاطب لا نقصد بذلك إغفال أثر التشبيه في نفس المتكلم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فليس المتكلم في هذا المجال الوجداني الانفعالي بمعزلٍ عن المخاطب إذ التشبيه في حقيقته عبارة عن نقل أحاسيس المتكلم إلى المخاطب لينفعل بها نفسيًا ويتأثر بها وجدانيًا .

وسأتناول في هذا الفصل (الجانب التأثيري) أثر التشبيه بالحيوان في أحاديث الصحيحين ؛ لأبين المزايا التي تعود على المعنى حين يقع التشبيه بالحيوان ، والمزايا التي تعود على السامع حين يُقَام له المعنى

---

(١) ينظر : أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، ص٢١٩ (بتصرّف) .

(٢) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة ، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع ، الناشر : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م ج١/ص٣٠٣

(٣) ينظر : علم النفس التربوي لمحمد عطية الأبراشي وحامد عبد القادر ، الطبعة الرابعة لدار القومية للطباعة والنشر ، ج٣/ص١٥٤

في صورة تشبيه بالحيوان . وستكون مباحث هذا الفصل على النحو التالي :

شعور المخاطب بالفرح والبهجة والتفاؤل بالأجر ، ثم الشعور بالخوف من العقاب ، ثم الشعور بالاشمزاز والتقزز ، ثم الشعور بالاحتقار والتنفير .

وقد بنيت هذا التقسيم على الأسس التربوية والنفسية وهو ما يعرف بالتربية بالترغيب والترهيب ،

فالترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء ، بمصلحة أو لذّة أو متعة آجلة ، مؤكدة ، خيرة ، خالصة من الشوائب ، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيّء ابتغاء مرضاة الله ، وذلك رحمة من الله لعباده .

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتّب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به ، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عبادة ... [١]

ومن المعلوم أن الله فطر الإنسان على (الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية وحسن البقاء ، والرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير . ويشترك الحيوان مع الإنسان في أدنى درجات هذه الرغبة والرهبة ، فجميع الكائنات الحية تقريبًا ، تبتعد عما يؤذيها حال شعورها به ، وتقبل على ما يلذها ويحقق استمرار الحياة لها أو لجنسها . لكن الله ميز الإنسان بالقدرة على التعلّم والاعتبار والتفكير لما بعد الفترة التي يعيشها ، والعمل والتحضير للمستقبل ، والتمييز بين الضار والنافع والاختيار بينهما ، عاجلاً حينًا ، وآجلاً حينًا آخر).[٢]

---

(١) ينظر : أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، ص٢٨٧

(٢) المصدر السابق ، ص٢٨٦ (بتصريف) .

المبحث الأول

الشعور بالفرح والبهجة والتفاؤل الأجر

فَرِحَ فَرَحًا بالشيء : انشرح صدره وسُرَّ فهو فارح وفَرِح ، والفرح السرور .[١]

والفرح : شعور ينتاب الشخص عندما يقترب منه مصدر محبب ، كرؤية صديق عزيز لم يره منذ فترة طويلة .[٢]

وعرّفه بعضهم بقوله : هو حالة استثارة انفعالية معممة أو غير متميزة تستدعيها مواقف كثيرة .[٣] كرؤية صديق عزيز ، أو سماع خبر سار يكون سببًا في ابتهاج الإنسان وانشراح صدره .

والمتأمل لأحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين يجد أن كثيرًا من صور التشبيه الواردة فيها تدعو إلى الفرح والسرور ، حيث تتضافر صورة التشبيه مع المعنى العام للحديث لتؤكد المراد منه ، وتدخل السرور إلى قلب المخاطب ونفسه من خلال المشهد الجميل أو المشبه المحبب للنفس ، فتستأنس النفس بسماعه وتبتهج ، وتتفاءل بالأجر المصوَّر في الحديث .

من صور التشبيه المشعر بالفرح والبهجة والتفاؤل بالأجر :

١- يقول النبي صلى الله عليه وسلم في سياق الحث على إسباغ الوضوء والمحافظة على الطهارة : " إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل "[٤]
لما كان هذا الحديث في الحث والدعوة إلى إسباغ الوضوء تلك العبادة المميِّزة لأمته صلى الله عليه وسلم ، جعل علامة أمته التي يعرفهم بها بين الأمم يوم القيامة الغرّ والتحجيل ، وفي ذلك تشبيه لهم بالخيل الغرّ المحجّلة على طريق الاستعارة ، والمراد بهاتين الصفتين – والله أعلم – النور الكائن في وجوههم يوم القيامة حين تبعث جميع الأمم السابقة معهم فيكون الغر والتحجيل العلامة المميزة لأمته صلى الله عليه وسلم يعرفهم بها .

---

(١) ينظر : المنجد في اللغة والأعلام مادة : (ف ر ح) ص٥٨٤

(٢) ينظر : علم النفس ، مقرر دراسي لطلاب الصف الثاني الثانوي بنين ، تأليف ومراجعة فريق من المتخصصين ، طبعة عام ١٤٣٢هـ – ١٤٣٣هـ .

(٣) ينظر : أسس علم النفس العام ، تأليف د. طلعت منصور ، د. أنور الشرقاوي ، د. عادل عز الدين ، د. فاروق أبو عوف ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة عام ١٩٨٩م .

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٦) صفحة ٢٩

وانظر إلى نفوس المخاطبين حينما يستمعون لهذه البشرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف تبتهج هذه النفوس وتتفاءل بما أعدّ الله لها في ذلك اليوم حين ميزها على غيرها من الأمم ، لاسيما وفي هاتين الصفتين ما فيهما من معاني الإشراق والنضارة إذ هما بياض يعلو الناصية ويغطي بعض القوائم ، والبياض في الغرة لمعة تكون في جبين الفرس ، ثم استعملت في الجَمال والشهرة وطيب الذكر فهي دعوى للابتهاج ، فكيف إذا كان هذا البياض مصوَّرًا في جبين ذلك الحيوان المحبب إليهم ؟ تلك الخيل المعقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة .

لا شك أن ما حمله هذا الحديث من ألفاظه وصفات وما صوّر به علامة هذه الأمة يدعو للفرح ويدخل السرور إلى نفس كل مؤمن بذلك اليوم ، كما أنه يدعو إلى الحرص على المحافظة على تلك العبادة الشريفة السجود والوضوء . وبذلك نشعر بأثر تلك الصورة في نفس كل سامع أو قارئ لهذا الحديث.

٢- يقول النبي الله علية وسلم : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه ، حتى تكون مثل الجبل " .[1]

هذا الحديث يبيّن فيه عليه الصلاة والسلام مدى رحمة الله بخلقه وتكرمه وتفضله عليهم حين يضاعف أجر تلك الصدقة التي يتصدق بها العبد من مالٍ حلالٍ مهما كانت تلك الصدقة من حيث القلّة أو الكثرة ؛ لأن الله يربي تلك الصدقة حتى تصير أعظم من الجبل .

إن في انتقال الخيال من رؤية الصدقة وهي بحجم التمرة إلى رؤيتها وقد أصبحت بحجم الجبل لإشعار للإنسان بعظيم الأجر الذي أعده الله للمتصدق ، كما أن في قوله : (وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلّوه) إشعار بعظم اهتمام الرحمن بتلك الصدقة الخالصة لوجهه المُخرَجة من كسبٍ طيّب ؛ لأن ما يُبْذَل في تربية المهر من الجهد لا يُبْذَل في تربية غيره من أنواع الحيوان وذلك لصعوبة ترويضه من ناحية ولعظيم قيمته ومكانته عندهم من ناحية أخرى .

نعم إن هذا الحديث دعوة صريحة للصدقة من المال الطيب ، لكننا إذا نظرنا إلى الحديث من زاوية أخرى علمنا أنه يحمل التفاؤل بالأجر لكل متصدق ، ويزف البشرى لقلب كل مخلص بمضاعفة الأجر والثواب ؛ لأن التعامل هنا مع الرحمن الجواد الكريم .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٤١٠) صفحة ٢٢٨

٣- يقول صلى الله عليه وسلم : " لله أشدّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن ، من رجل في أرض دوّية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه ،فالله أشدّ فرحًا بتوتة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده". [١]

لقد بلغت هذه القصة السريعة مترلة كبيرة من التأثير في نفوس العرب أبناء الصحراء وأصحاب الإبل ، ومكنّت هذا المعنى المجرّد عندهم ، لأنها حدَّثتهم عن أمر غيبي بأسلوب هم أكثر الناس إدراكًا له لأنهم يعيشون في هذه الأوساط وربما تعرض بعضهم لمثل هذه الأزمات أو سمعوا بنبأ من تعرَّض لها. [٢]

إن هذا الحديث يصوّر لنا فرح الله سبحانه وتعالى بتوبة عبده المؤمن حين ساق لنا هذه القصة القصيرة لتشدَّ المستمع لهذا المعنى الجليل وتقرر هذه الفكرة في ذهنه وقلبه ، فكرة الفرح العظيم الذي يصعب وصفه على أرباب الفصاحة والبلاغة ، كيف لا وقد جمع فيها صلى الله عليه وسلم بين اليأس في أعلى مراتبه في أولها ، ثم ختمها بأعلى درجات الفرح والسرور ؟ فالعبد المؤمن حينما يتذكر ذنوبه وسيئاته وتقصيره في جنب الله ، وهو يعلم أن ذلك لم يغب عن علمه سبحانه وتعالى ، ويتذكر عظمة من عصاه وقدرته عليه يشعر بالألم واليأس من توبة الله ومغفرته لسوء إجرامه في حق العظيم الذي خلقه وقدّره - لاسيما إن تكرر وقوعه في هذا الذنب وتكررت توبته منه - فإذا سمع هذا الحديث في شأن فرح الله بتوبة العبد وتقرر هذا المعنى في ذهنه بهذه الصورة البديعة ، عاد إليه أمله وعظم رجاؤه بمغفرة الله .

إن هذا الفرح الشديد مظهر من مظاهر رحمة الله لعباده ، ورأفته بهم ، فهو يفرح لتوبة عبده الذي ينقذ نفسه بهذه التوبة من النار ، وإذا تيقن العبد بفرح الله بتوبته انتقل هذا الشعور وهذا الانفعال لنفس العبد المذنب فانشرح صدره وسرّ قلبه وزاد تعلقه بالله عز وجل ، وكان ذلك دافعًا دائمًا له في تجديد توبته .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٦٩٥٥) صفحة ١١٢٦

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي ، ص٩١

٤- عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال : يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك ، فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] قالوا : يا رسول الله ، وأينا ذلك الواحد ؟ قال : أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفًا ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود ".[2]

إن المتأمِّل لهذا الحديث من الوجهة التأثيرية يرى أنه جمع بين اليأس والإشعار بالخوف في أعلى مراتبه في أوله ، ثم ختمه بأعلى درجات الفرح والسرور والبشرى في نهايته ، وذلك أنه لما أمر الله آدم أن يخرج بعث النار أمره أن يخرج من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين ، وهذا يعني أن من كل ألف ينجو واحد فقط والبقية يساقون إلى النار ؛ ولذلك الخبر يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وهنا يشعر المخاطب بخطورة الموقف ، وينخلع قلبه لهذا الخبر المرعب ، وتمتلئ عاطفته بانفعال الخوف المطبق ؛ لذلك ما كان من الصحابة الذين هم خيار الأمة وخير القرون ، والصفوة الذين اختارهم الله لصحبة نبيه والدفاع عنه وعن دينه إلاّ أن وجهوا ذلك السؤال لرسول الله صلى الله عليه وسلم سؤال الخائفين الوجلين ، حين قالوا : (وأينا ذلك الواحد ؟) .

بهذا الأسلوب استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يملك أفئدة المخاطبين بعد أن شدّ انتباههم بذلك الخبر المزعج المشعر باليأس وضعف الأمل بدخول الجنة تلك الأمنية التي طالما تمنوها وعملوا لها في كل حركاتهم وسكناتهم ، وهنا آن الأوان ليرسل لهم تلك البشرى بعد أن ملك قلوبهم وشد كل حواسهم إليه (أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفًا ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : ما أنتم في الناس إلا كالشعرة

---

(١) سورة الحج ، آية رقم ٢

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٤٨) صفحة ٥٥٨

السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود) ، وانظر كيف ختم صلى الله عليه وسلم تلك البشرى بالتشبيه ؛ ليوضِّح المعنى ولتزداد النفوس المؤمنة بهجةً وفرحًا حين نقل لهم تلك البشرى من المعنى المعقول – وهو نسبة أمته مقارنة بغيرهم من أهل الموقف مع ظهورهم وتميزهم وسط الأمم – إلى المعنى المحسوس وهو نسبة الشعرة الواحدة السوداء أو البيضاء بالنسبة لبقية الشعر على جلد الثور .

٥- يقول صلى الله عليه وسلم : " ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذرّة من خير ".(١)

هذا الحديث يوضِّح بأن الله تعالى يخرج من النار من دخلها ، وهو يرد على من زعم خلود من دخل النار فيها ... وبينت الأحاديث الصحيحة الكثيرة أن الذين يخرجهم الله من النار يدخلون الجنة . وفي ذلك بشرى برحمة الله تعالى حتى لمن دخل النار إذ إنه إذا كان من أهل الإيمان فإنه يخرج منها بعد أن يطهَّر من الذنوب التي كان قد ارتكبها في الدنيا . لكن ما مقدار الإيمان الذي إذا تحقق في قلب الإنسان يكون سببًا في إخراجه من النار ؟

قد أجاب صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في الحديث حين قال : (وفي قلبه وزن ذرّة من خير) ، حيث شبه الخير والإيمان الموجود في القلب بوزن الذرة هذا المقدار الصغير من الإيمان الذي كان سببًا في إخراج صاحبه من النار .

وقيل إن المراد بالذّرّة : أصغر النمل ، وقيل : رأس نملة حمراء ، وقيل : اليسيرة من التراب ، وقيل : الخردلة . وأيًا كان المعنى مما سبق فهو يوضح قلَّة المقدار وصغر الحجم وهذا ما نلمسه من خلال التشبيه ، والذي يهمنا في هذا الجانب (الجانب التأثيري) ما يحمل الحديث من دواعي الفرح والابتهاج حينما يعلم المؤمن أن إيمانه بالله عز وجل أيًا كان مقداره ولو بلغ في صغره حجم الذرة كان سببًا في دخوله الجنة وعدم خلوده في النار وإن عذِّب بها بما اقترف من الذنوب والخطايا ، ومما يؤكد ذلك أحاديث أخرى منها : عن أنس ، ذكر عن معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) صحيح البخاري ، حديث رقم (٤٤) صفحة ١٠

قال : يا معاذ بن جبل قال : لبيك يا رسول الله – قالها ثلاثا – قال : (بشر الناس أنه من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة) .[١]

وحديث آخر قال مسدد : وحدثنا يحيى ، حدثنا نعيم بن حكيم ، حدثني أبو مريم سمعت أبا الدرداء ، يحدث ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ما من رجل يشهد أن لا إله إلا الله – أو مات لا يشرك بالله شيئا – إلا دخل الجنة ، أو لم يدخل النار – قلت : وإن زنا وإن سرق ، قال : وإن زنا وإن سرق ورغم أنف أبي الدرداء .[٢]

٦- ويقول صلى الله عليه وسلم في الحث على قراءة القرآن وبيان فضل سورتي البقرة وآل عمران:

" اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحتجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " .[٣]

جاء هذا الحديث في سياق الحث على قراءة القرآن وبيان فضل سورتي البقرة وآل عمران ، حيث صوّر لنا صلى الله عليه وسلم فائدة هاتين السورتين حينما تصبحان غطاءً لرأس قارئهما يوم القيامة ذلك اليوم الذي يكون الناس فيه في أمس الحاجة للظل حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق قدر ميل وتسّعر جهنم .

وانظر هنا إلى تأثير هذا الحديث في نفس السامع من الناحية اللفظية والناحية التصويرية اللتين اتحدتا في إخراج هذا النص الأدبي في أبدع مستويات التأثير ؛ لتحمل المخاطب إلى الحرص على قراءة ذلك الكتاب ، وعدم تفويت ذلك الأجر العظيم المترتب على قراءته وقراءة تلك السورتين اللتين قد خُصَّتا بتصوير فضلهما .

وأول ما يلفت نظر المخاطب أنَّه جعل قراءة القرآن سببًا في الشفاعة يوم القيامة ، ثم إنه وصف سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين ، والأزهر النَّيِّر ويسمى القمر الأزهر . والأزهران الشمس

---

(١) ينظر : إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري ، ج١/ص٧٣-٧٤

(٢) المصدر السابق ج١/ص٧٤

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٧٤) صفحة ٣١٤

والقمر . ورجلٌ أزهر أي أبيض مُشْرِقُ الوجه .[١] وفي ذلك إيحاء بالنور الذي يكتسبه قارئ القرآن بقراءته ، ثم إنه شبه تلك السورتين العظيمتين بما هو محبَّب للنفس إذ شبههما بالغمام ، ثم بالفرقين من الطير ، حينما تصبحان غطاءً لرأس قارئهما يوم القيامة ذلك اليوم الذي يكون الناس فيه في أمس الحاجة للظل ، وهذا الشبيه يصوّر لنا ذلك المشهد العظيم وكأنّ هاتين السورتين قد تحولتا يوم القيامة إلى جماعتين من الطير بحجم سحابتين عظيمتين تغطيان رأس صاحبهما يوم القيامة لتحمياه من حرارة شمسه التي تدنو من الخلائق قدر ميل . فإذا قرأ المؤمن هذا الحديث أو سمعه تحقّق التأثير في نفسه وسعد وابتهج بما أعدّه الله له من عظيم الجزاء المصوَّر في الحديث ، وكان ذلك الابتهاج دافعًا له ومشجعًا للمداومة على قراءة القرآن والاهتمام بقراءة تلك لسورتين .

٧- يقول صلى الله عليه وسلم : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .[٢]

انظر إلى هذا المشهد الذي صوَّره لنا عليه الصلاة والسلام وقد جاء كل مسلم يسوق قربانه ، فمنهم من جاء ببدنة ومنهم من جاء ببقرة ومنهم من جاء بكبشٍ أقرن . . . وما ذلك إلاّ ليبين لنا قيمة التبكير إلى صلاة الجمعة .

اعتمد صلى الله عليه وسلم في بناء هذا الحديث على أسلوب الشرط المشوِّق ، وقد تكرر ذلك الأسلوب في جميع جمل الحديث ، فعندما يسمع المخاطب العمل الذي يقدمه العبد – وهو في الحديث فعل الشرط – اشتاقت نفسه لمعرفة الجزاء ، وقد صوَّر الجزاء بصورة قربان يقدمه العبد لربه . والعجيب في هذا الحديث أنه شبه جزاء العمل الصالح بعمل صالح ، فجزاء من راح في الساعة الأولى كجزاء من قدّم بدنة قربانًا إلى الله ، وفي هذا التصوير فوائد :

أولها : بيان قيمة التقرُّب إلى الله بالذبح فهو من أعظم الأعمال الصالحة أجرًا عند الله لذلك جعله مشبهًا به في هذا التشبه .

---

(١) ينظر : مختار الصحاح مادة (ز هـ ر) ص١٢٧

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨١) صفحة ١٤٢

ثانيًا : إشعار المخاطب بالتشابه بين يوم الجمعة وعيد الأضحى مع اختلاف نوع القربان بينهما ففي عيد الأضحى القربان ذبح أضحية من بهيمة الأنعام ، وفي يوم الجمعة القربان في التبكير إلى الصلاة .

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث من الزاوية التأثيرية رأينا ما لهذا المشهد من أثر عجيب في نفوس المخاطبين من شأنه أن يدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم بمعرفة ما أعدّه الله للمبكرين إلى صلاة الجمعة من شأن هذا الأثر النفسي أن يحفزهم ويعلي همتهم في التنافس والتبكير لأداء هذه الشعيرة العظيم .

المبحث الثاني

الشعور بالخوف من العقاب

الخوف : خافَ يَخافُ خَوْفاً، ومنه التخْوِيْفُ والإخافَةُ. والخَوْفُ: الفَزَعُ . وطَرِيقٌ مَخُوْفٌ : يَخافُه الناسُ ، ومُخِيفٌ : يُخِيْفُ الناسَ ، وخائفٌ : ذو خَوْفٍ . وخَوَّفْتُه : جَعَلْت فيه الخَوْفَ ، وصَيَّرْتَه بحالٍ يَخَافُه الناسُ .[1]

والخوف : انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب والقتال وفي التنزيل العزيز ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[2] : أي القتال .[3]

وبالتأمُّل لأحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين نجد أن من صور التشبيه الواردة ما يدعو إلى الخوف والفزع من عقاب الله عز وجل ، حيث تتضافر صورة التشبيه مع المعنى العام للحديث لتؤكد المراد منه ، وتُشْعِر المخاطب بالوجل والخوف من خلال عرض المشهد المرعب أو المشبه المفزع للنفس ، فينخلع قلب المخاطب بسماعه ، وتنفر النفس من رؤية تلك الصورة ؛ وبذلك يتحقق الهدف من تلك الصورة بالإقلاع عن المحرّم المذموم والهروب من العقاب الذي أعده الله لمن وقع فيه .

من صور التشبيه المشعر بالخوف من عقاب الله :

١- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بقاع قرقر ، تستن عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقر لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا

---

(١) المحيط في اللغة للصاحب بن عباد ، مادة (خوف) ج١/ص٣٧٨

(٢) سورة الأحزاب ، آية رقم ١٩

(٣) المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية لمجموعة المؤلفين : إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، الطبعة الرابعة لمكتبة الشروق الدولة عام ١٤٢٥-٢٠٠٤ ، باب الخاء ، ج١/ص٢٦٢

يفعل فيه حقه ، إلا جاء كتره يوم القيامة شجاعا أقرع . يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كترك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه . سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل " .(١)

اشتمل هذا الحديث على صورتين تبين عذاب مانع الزكاة وحسرته يوم القيامة ، الصورة الأولى شبه فيها النبي صلى الله عليه وسلم الكتر وهو المال الذي يخبئه الإنسان ، ولا يؤدي زكاته بالشجاع الأقرع وهو الحية الذكر الذي تمعط شعر رأسه لجمعه السمّ فيه ، والصورة الثانية شبه صلى الله عليه وسلم صورة ندم مانع الزكاة وعضّه ليده بعضّ الفحل ، وكلتا الصورتين تهدف إلى بيان وجوب الزكاة والتخويف من منعها وبيان العقاب الذي أعده الله لتاركها .

حينما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين عقاب مانع الزكاة آثر التعبير بالصورة الحسية على التصريح بوصف ذلك العذاب لعلمه بأثر التصوير في النفس ، فالحديث يصوِّر لنا ذلك العذاب بصورة حسيِّة مخيفة مفزعة من وطء الإبل ونطح البقر ومن تحوّل الكتر إلى ثعبان مخيف يقضم يد صاحبه قضم الفحل . لقد كان الذي تركه مانع الزكاة من الأنعام والمال أداة تعذيبه في ذلك اليوم العصيب .

نعم إن لهذه الصورة لأثرًا عظيمًا في نفس المخاطب من شأنها أن تملأ قلبه بالخوف والرعب والفزع من عذاب ذلك اليوم وتدفعه إلى تزكية ماله وأنعامه والحرص على تأدية ذلك الواجب لينال الأمن من عذاب ذلك اليوم .

٢- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " (٢)

الحديث يصوّر لنا منظرًا شنيعًا ومشهدًا بشعًا كئيبًا لهذا الرجل الذي يؤتى به يوم القيامة ويلقى في النار ، فإذا ألقي فيها خرجت أمعاؤه ، ياله من منظرٍ تنفر منه النفس ، وصورة بلغت من

(١) صحيح مسلم (٣٨٤/٢٢٩٦)

(٢) صحيح البخاري (٥٤٤/٣٢٦٧)

الفظاعة ما يثير التقزز . (ويبدو أنَّ عذابه كان أليمًا ومثيرًا للانتباه مما جعل أهل النار يجتمعون عليه وينادونه باسمه : يا فلان ! مالك ؟ ويذكرونه بماضيه في الدنيا حيث كان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر) .[(١)]

لا شك أن من أهداف هذه الصورة التنفير من هذا العمل المقيت ، والدلالة على تحريمه والكشف عن عذاب فاعله ، لكن في الحديث أيضًا معنى التهديد والوعيد والإخافة من ذلك المصير المؤلم والفاضح ؛ لذلك آثرت أن أجعل هذا الحديث تحت مبحث الشعور بالخوف من العقاب ؛ لبروز معنى التهديد فيه .

وقد أخّر النبي صلى الله عليه وسلم ببراعته البيانية بيان سبب ذلك التصوير بصورة الحمار والدوران بالأمعاء ؛ ليمتلأ قلب المخاطب عجبًا وشوقًا لمعرفة سرّ ذلك العذاب وذلك الخزي في الآخرة وحينها ختم صلى الله عليه وسلم الحديث بالحوار الذي دار بين أهل النار مع ذلك الرجل. ولا شك أن في تصوير ذلك المصير وسببه تهديدًا لكل من تراوده نفسه للإقدام على ذلك الخطأ ويخشى أن يقع في ذلك المقت الكبير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ .[(٢)]

٣- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ؟ أو يجعل الله صورته صورة حمار ؟ " .[(٣)]

نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن مخالفة الإمام في الصلاة والحديث جاء ليؤكد هذا المعنى حينما شبه صلى الله عليه وسلم رأس من يرفع قبل الإمام برأس الحمار ، أو بصورة الحمار ، وفي هذا تقبيح لصورة مرتكب هذه المخالفة تنفر منها نفس المؤمن ؛ لأن المؤمن لا يرضى أن يُوصف بالجهل والغباوة ، والصورة في الحديث تحمل معنى التهديد من الوقوع في هذه المخالفة تُشْعِر المخاطب بالخوف ، لاسيما وقد صُدِّر الحديث بالاستفهام الموحي بالتهديد (أما يخشى أحدكم ، أو لا يخشى أحدكم) .

---

(١) ينظر : التصوير البياني ص١٨٧

(٢) سورة الصف الآيتان ٢-٣

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩١) صفحة ١١٣

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم طريق التشبيه بأوضح صورة وأيسر طريق للتنفير من هذا الفعل والتحذير من التساهل في أمر الصلاة أو مخالفة الإمام .

إذا كان أهم ما يميِّز الإنسان هو الرأس فإن جعل رأسه يوم القيامة رأس حمار كارثة ضخمة تورث صاحبها عذابًا نفسيًّا لا يوصف ولا يحد .[١]

والمخاطب يدرك المراد من هذه الصورة البشعة ، إذْ يشعر بمجرّد سماعها بالخوف من عقاب الله بأن يمسخه لجهله بفرض الصلاة ومتابعة الإمام ، وهنا يتحقق أثر الصورة في نفس المخاطب .

٤- ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لأذودن عن حوضي رجالاً كما تذاد الغريبة من الإبل) .[٢]

أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين في هذا الحديث سوء مآل المرتدين عن دين الله المخالفين لأمر نبيه صلى الله عليه وسلم حين شبههم بالإبل الغريبة ، ويكفيهم خزي أنهم يطردون ويمنعون من ورود الحوض النبوي ؛ وذلك لردتهم عن الإسلام أو تبديلهم وتغييرهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

الحديث يثير انفعال الخوف من الحرمان ، حرمان ورود حوض النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن في ذلك الحرمان تهديدًا لسوء المآل من ناحية ، وتفويتًا للذة عظيمة ، لذة ورود الحوض الذي وُصِفَ في كثير من الأحاديث التي تبيِّن عظمة حجمه ، ولون مائه ، وطيب ريحه ، وكثرة كيزانه ، وعدم الحاجة إلى الشرب بعد الشرب منه ، قال عنه صلى الله عليه وسلم : (حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبداً) .[٣]

---

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي ، ص٣١٩

(٢) صحيح مسلم (٩٧٠/٥٩٩٣)

(٣) ينظر : الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، لمحمد بن فتوح الحميدي ، تحقيق د. علي حسين البواب ، الطبعة الثانية لدار ابن حزم – لبنان/ بيروت- ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

المبحث الثالث

الشعور بالتحقير والتنفير

أولاً : الشـــعــور بالتــحــقـــير .

ثانياً : الشعور بالاشمئزاز والتقزز والنفور .

أولاً : الشعور بالتحقير :

(حَقَرَ) الشيءَ : حقرا وحقرة وحقارة ومحقرة وحقرية استهان به فهو محقور وحقير (ج) حقار و(حقر) حقرا وحقارة هان وذل فهو حقير .[١]

وفي مختار الصحاح (الحَقِيرُ) الصَّغِيرُ الذَّلِيلُ وبَابُهُ ظَرُف . و(حَقَرَهُ) غَيْرُهُ من باب ضَرَبَ اسْتَصْغَرَهُ وكذا (احْتَقَرَهُ) و(اسْتَحْقَرَهُ) و(حَقَّرَهُ تحقيرًا) صغَّرهُ و(الُمحَقِّراتُ) الصَّغَائِرُ .[٢]

(حقر) الحَقْرُ في كل المعاني الذِّلَّة .[٣]

وبالتأمُّل لأحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين نجد أن أكثر صور التشبيه الواردة تدعو إلى احتقار المشبه وازدرائه ، وذلك حين يشبه صلى الله عليه وسلم بعض الناس وتصرفاتهم بالحيوانات المحتقرة عندهم ، وهنا تتضافر صورة التشبيه مع المعنى العام للحديث لتؤكد المراد منه ، وتُشْعِر المخاطب باحتقار ذلك الفعل الشائن واحتقار فاعله من خلال عرض المشهد القبيح أو المشبه المنفِّر للنفس ، فتمتلئ نفس المخاطب ازدراءً له ، وتنفر النفس من رؤية تلك الصورة ؛ وبذلك يتحقق الهدف من التشبيه بالحيوان المحتقر بإقلاع المخاطبين عن ذلك المحرَّم أو المكروه والفرار من الاتصاف بتلك الصورة المحتقرة في نفوسهم .

من صور التشبيه المشعرة بالاحتقار للمشبه :

١- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا في السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " [٤]

---

(١) ينظر : المعجم الوسيط ، باب الحاء ، ج١/ص١٣٤

(٢) مختار الصحاح باب (ح ق ر) ، ص٧٠

(٣) لسان العرب ، باب (حقر) ، ج٤/ص٢٠٧

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٨٢٢) صفحة ١٣٣

يبين هذا الحديث صفة السجود وفيه أمر بالاعتدال والنهي عن أن يفترش المرء ذراعيه افتراش الكلب ، وذلك بأن يجعل ذراعيه على الأرض كالفراش ، والبساط كما يجعلهما الكلب .
والنهي عن هذه الكيفية المكروهة في السجود بوساطة هذه الصورة المعروفة فيه تحديد دقيق يفوق أي وصف ، واختار صلى الله عليه وسلم الكلب في جانب المشبه به ؛ لأنه من الحيوانات التي تُعرف أوضاعها وحالاتها . والصورة مستقاة من حياة المخاطبين مما يجعل تأثرهم بها وإدراكهم لها في الذروة من الدّقة .
إن في تصوير بسط اليدين في السجود ببسط الكلب ذراعيه تقبيحًا لهذا العمل من شأنه أن يثير في المخاطب الشعور بالدناءة وخسَّة الطبع لمن يقع في تلك الصفة ، وبالتالي يحمل المخاطب على ترك ذلك المكروه ، وزيادة الاعتناء بالصلاة .

٢- يقول النبي صلى الله عليه وسلم في سياق تحريم الزنا : " ألا كلمّا نفرنا غازين في سبيل الله ، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس ، يمنح أحدهم الكثبة ، أما والله ، إن يمكني من أحدكم لأنكلنّه عنه " .[1]

حرّم الله الزنا وجعله من كبائر الذنوب لما فيه من أضرار على الفرد والمجتمع ؛ فهو سبب في انتشار الأمراض واختلاط الأنساب ، لذلك حذّر سبحانه وتعالى من كل شيء يمكن أن يوصل إليه فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾[2] وجاء هذا الحديث ليذمّ ويحقّر فاعله حين شبه صلى الله عليه وسلم صوت الزاني بصوت التيس عند السِّفاد ، وهذا التشبيه يتناسب مع سياق النهي والتنفير من هذا الفعل والوعيد لفاعله .
وفي تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم لصوت الزاني بصوت التيس تحقيرًا له وتقبيحًا لفعله ، إذ المراد من تلك الصورة تنفير المخاطبين من ذلك الذنب العظيم وتلك الكبيرة التي توعد الله فاعلها بشديد العذاب .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٤٤٢٤) صفحة ٧١٩

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٣٢

٣- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة " .[١]

هذا الحديث تصوير لحال المنافق ، حيث أنه مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فمثله كمثل هذه الشاة الضعيفة العائرة التي لا تحسن اختيار الطريق الصحيح لنفسها ، كما أنها خائفة وجلة تبحث عن الأمان والاستقرار النفسي فلا تعرف مسلكه ، فحالها محزن متخبطة تسلك سبيل هذا القطيع مرة ، ثم تهابه لأنها لا تعرف مصيرها ، فترجع إلى القطيع الآخر فلا تجد فيه إلا ما وجدت في سابقه ، فتبقى في حيرتها وترددها .

وقال بعضهم العائرة أي المترددة بين قطيعين من الغنم ، وهي التي تطلب الفحل فتتردد بين قطيعين ولا تستقر مع أحدهما ، وكذلك المنافق مع المؤمنين بظاهره ، ومع المشركين بباطنه ، تبعًا لهواه وغرضه الفاسد فصار بمنزلة هذه الشاة .[٢]

والتشبيه في الحديث يُشْعِر بالذم والاحتقار ، ويبين شدة الضعف وكثرة الأخطار التي يتعرض لها المنافق ، كما تتعرض لها الشاة العائرة ، وبذلك تكون هذه الصورة منفِّرة للمخاطب من الاتصاف بالنفاق ، ومحذِّرة من خطره الدنيويِّ وهو فقد الأمن ، ومحذِّرة من عاقبته وهي الدرك الأسفل من النار .

٤- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " .[٣]

جاء هذا الحديث ليصف صنفين من الناس على طريقة التشبيه ، فاشتمل الحديث على تشبيهين الأول : تشبيه السياط بأذناب البقر ، والثاني : تشبيه رؤوس النساء بأسنمة البخت المائلة ، وكلا التشبيهين يشعر بالذم والاحتقار والتنفير من هذه التصرفات الشائنة .

الحديث يقدم لوحة تلتقط جزئيات قبيحة تشكِّل العناصر اللازمة ، فمن سلوك الظالم اتُّخذت

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٤٣/١١٤٧)

(٢) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، المجلد الرابع ، ٨/ ١٢٤.

(٣) صحيح مسلم (٥٥٨٢/٩٠٦) .

صفة الضرب ، والظلم قبيح مطلقًا ، ومع هذا فإنه يُربط بأذناب البقر أي بحيوانية دنيئة ، وذلك لوجود الذَّنب خلفَ البقرة ، ولقربه من مكان التبرُّز ، هذه البشاعة الشكلية إيماءً إلى انحطاط إنسانية الظالم ودونيّته .

ولنا أن نتصوّر كيف ضُخّم التشوه في تصوير النساء ، إذ تربّع كائن ضخم على الكاسيات العاريات المميلات المائلات ، وهو بحجم سنام الجمل فوق قاعدة ترتج وتتقلقل وتتذبذب بين هذه الناحية وتلك .

وقد آلت صورة النساء إلى لقطة مُكَبَّرة تملأ الأبصار وتحتويها لكونها حركة تشد الانتباه لغرابها ، ويتجلى فيها مشهد الرأس وحده بعد مشهد الجسد كلّه ، وقبح هؤلاء النسوة الخَلْقي يناسب البدء من الجسد لاتّصافهن بالشهوة الحيوانية ، وإغراء الناس ، واستفزاز الغرائز المريضة ، إذ بدأ التصوير بالتدرّج من الشكل الجسدي ، إلى الحركة فيه إلى الرأس .(١)

إذا هي صورتان مشعرتان بالتحقير والتنفير من تلك الصفات التي اتصف بها ذلك الصنفان من الناس ؛ ليترجر عنها كل مخاطب ويحذر من الوقوع فيها .

٥- ويقول صلى الله عليه وسلم :" بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ، ثم لعله يعانقها " (٢)

أمر الإسلام بحسن معاشرة الزوجة ، وجعل لها حقوقًا على زوجها ، وأهم تلك الحقوق إكرامها والرفق بها . وفي هذا الحديث يتعجّب النبي صلى الله عليه وسلم ممن يؤذي زوجته ويتسلط عليها بالضرب المبرح حين شبه ذلك الضرب بضرب الفحل ؛ ليبين قوة ذلك الضرب ، وعدم مبالاة الزوج بالشعور البدني والنفسي للزوجة .

وقد حمل هذا التشبيه في الحديث الموجز تأثيرًا عظيمًا من شأنه أن يؤثر في كل مخاطب ، لأنه ينقل لنا عنف ذلك الزوج الذي لم يُسْدِ النصح لزوجته عند خطئها ، ولم يكتفِ بتوبيخها في أسوأ الأحوال ، لكنه أبى إلاّ أن يتكبّر ويتجبّر فينهال عليها بذلك الضرب المبرح الذي لا يتحمله إلا الفحل ذلك الحيوان الضخم الممتلئ بالعضلات المتحمِّل للمشاق الذي سخّره الله لحمل الأثقال وحرث الأرض .

---

(١) ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، ص٧٢٢-٧٢٣

(٢) صحيح البخاري (٦٠٤٢/١٠٥٥)

وقد ختم صلى الله عليه وسلم الحديث بقوله : (ثم لعله يعانقها) ؛ لينقل لنا تصوُّرًا كافيًا عن عنف هذا الزوج وتجرُّده من صفات الرحمة والرفق التي تزين المؤمن وتميِّزه ، إذ لم يبالِ بما صنع بها في أول النهار من ضرب لها وإهانة ليعانقها آخر النهار وكأنّ هذه المرأة ليس لها شعور ولا أحاسيس مع أنها أرق الكائنات ، وقد أوصى النبيّ صلى الله عليه سلم بهن فقال : " واستوصوا بالنساء خيرا "[١].
وبذلك تكون هذه الصورة للعنف وقوة الضرب محتقرة ومنفِّرة للمخاطب من أن يتصف بها .

٦- ويقول صلى الله عليه و سلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " .[٢]

جاء هذا الحديث في وصف الكهّان واحتقارهم وبيان علاقتهم بالجن ، حيث شبه صلى الله عليه وسلم نقل الكلمة بصوت الجني إلى وليه بصوت قرقرة الدجاجة . والشعور بالاحتقار في الحديث واضح جدًا يشعر به المخاطب من عدة زوايا في الحديث في الصورة وفي الألفاظ التي تحمل تلك الصورة ، ولعل أول ما يشعرنا بذلك التحقير أن جعل الجني يخطف كلمة الحق خطفًا وفي ذلك إيحاء بالاختلاس والسرقة وهو معنى محتقر ومذموم ، ثم تشبيه صوت الجني حين ينقل تلك الكلمة إلى وليه بصوت الدجاجة ، يقول الخطابي : (والمعنى أن الجني إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة فسمعها الدجاج فجاوبتها)[٣] ، وصوت الدجاجة مزعج ومحتقر ، ثم إن هذه الشياطين لم تكتف بسرقة هذه الكلمة ونقلها بذلك الصوت المحتقر ، بل زادوا على ذلك أن خلطوا تلك الكلمة من الحق أكثر من مئة كذبة . ولا شك أن في تلك الأوصاف القبيحة ما يشعر المخاطب بقبح الكهّان ويزيد في احتقارهم ويبين جرم صنيعهم بأن استرقوا السمع وكذبوا في نقله وادعوا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

---

(١) فتح الباري ج٩ حديث رقم (٥١٨٦ - ١٦١)
(٢) صحيح البخاري (١٠٨١/٦٢١٣)
(٣) فتح الباري (ج١٠/صفحة٢٣٠)

٧- قال صلى الله عليه وسلم : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – وقال – : اقرؤوا : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾[١] ".[٢]

لعل بعض الناس إذا رأى إنسانًا ضخم الجسم هابه وتصوَّر أن له مكانة ، وربما ظن أنه شجاع وأنه يحمل صفاتًا محمودة ، وربما يكون في ذلك شيء من الصواب . لكنّ المقياس الحقيقي للناس الذي يثبته القرآن وكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والحديث السابق منها هو مقدار الإيمان الذي يحمله قلب الإنسان ، والعمل الصالح الذي يبذله جسده ، ولا عبرة لغير ذلك .

جاء هذا الحديث في ذمِّ الكافر وعمله وإن عَظُم جسمه وبدنه ، وعندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يثبت ذلك للمخاطبين شبه الكافر العظيم السمين بالبعوضة ، بل هو لا يساوي عند الله يوم القيامة جناحها .

ومن المعلوم أن البعوضة من أصغر مخلوقات الله تعالى حجمًا فناسب هنا تشبيه حقارة الكافر ولو كان عظيم الحجم سمين البدن بحقارة البعوضة بل لا يزن عند الله جناحها فضلاً عن أن يزن كامل جسمها . ولا شك أنّ في هذا التشبيه ما فيه من الذم والتحقير ؛ لأن الإيمان هو المقياس الحقيقي للناس عند الله لا بأجسامهم ولا بأشكالهم ولا بأوزانهم ، بل بمقدار ما تحمل قلوبهم من الإيمان وما بذلت أبدانهم من أعمال البر والخير .

ولهذا التشبه أثر في نفس المخاطب من شأنه أن يجعل نظرته للناس منصبَّة على مقدار إيمانهم وما عُرفوا به من العمل الصالح ، ولا يغترُّ بأجسام الكفار ولا بقوتهم الحربية وإن عظمت ، ولذلك أثر عظيم في ثقة المؤمن بربه ثم بنفسه في لقاء الأعداء من الكافرين .

---

(١) سورة الكهف ، آية رقم ١٠٥

(٢) صحيح البخاري (٨٢٢/٤٧٢٩)

ثانياً : الشعور بالاشمئزاز والتقزز والنفور :

اشمأز : بالأمر ومنه اشمئزازًا ضاق به ونفر منه كراهة[١]، وفي التريل العزيز ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ .[٢]

(قزز) القَزازَةُ الحَياءُ قَزَّ يَقُزُّ ورجل قَزٌّ حَيِيٌّ والجمع أَقِزَّاءُ نادر وقَزَّتْ نفسي عن الشيء قَزًّا وقَزَّتْهُ بحرف وغير حرف أَبَتْه وعافَتْه وأكثر ما يستعمل بمعنى عافَتْه وتَقَزَّز الرجلُ من الشيء لم يَطْعَمْه ولم يَشْرَبْهُ بإرادة ... [٣]

قَزَّ : تقَزَّزَ: تباعد عن المعاصي والمعايب . وتقزَّز من الشيء : عافه وأباه .[٤]

والتقزز : انفعال ينتج عن التعرض لمصدر غير محبوب كحالة الشخص الذي يكتشف أن الطعام المقدّم له فاسد .[٥]

يشترك هذا الجانب الانفعالي أو الشعوري مع سابقه في أنهما يهدفان إلى التنفير من العمل المحرم أو المكروه ، إلاّ أن هذا الجانب – أعني الشعور بالاشمئزاز والتقزز – يختلف عن سابقه من جهة أنه يضمّ إلى صورة القبح ما يشعر بالتقزز والاشمئزاز ، فالصورة في هذا الجانب أعمق وأكثر تأثيرًا من جهة التنفير ؛ لأنها تجمع مع صورة القبح ما تتقزز النفس من رؤيته .

وبالتأمّل في أحاديث التشبيه بالحيوان في الصحيحين نجد أنه صلى الله عليه وسلم يستخدم في جانب المشبه به بعض الحيوانات المحتقرة وتصرفاتها المقززة مما يُشْعِر المخاطب بالاشمئزاز والتقزز من تلك التصرفات ، حيث استخدم في جانب المشبه به من الحيوانات ما يحتقره الناس كالكلب ، وأضاف إلى ذلك تصرفًا مقززًا من تصرفاته كحالة تقيُّئِه والأكل من قيئه ، أو التشبيه بالجدي وإضافة صفة الموت له مع قطع الأذن وتعفّن جثته ، وبذلك تتضافر صورة التشبيه القبيحة مع تلك الإضافات المقززة والمعنى العام للحديث لتؤكد المراد منه ، وتُشْعِر المخاطب بالاحتقار مع الاشمئزاز

---

(١) المعجم الوسيط ، باب الشين ج١/ص٤٩٣

(٢) سورة الزمر ، آية رقم ٤٥

(٣) لسان العرب ، باب (قزز) ، ج٥/ص٣٩٤

(٤) العامي الفصيح من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، باب القاف ، ج٢١/ص١٠

(٥) ينظر : علم النفس ، مقرر دراسي لطلاب الصف الثاني الثانوي بنين ، ص٥٧

والتقزز من ذلك الفعل الشائن ، ومن خلال تلك الصورة المتكاملة يتحقق الهدف المنشود في دفع المخاطب للإقلاع عن ذلك المحرّم أو المكروه بعد تشويه صورته وإخراجها بالشّكل المنفّر .

من صور التشبيه المنفِّرة المشعر بالاشمئزاز والتقزُّز :

١- يقول النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما مثل الذي يتصدق بصدقة ثم يعود في صدقته ، كمثل الكلب يقيء ثم يأكل قيأه " .[١]

لّما كان الرجوع في الهبة والصدقة فيه ما فيه من الخسّة ودناءة النفس شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم العائد في هبته بالكلب ، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم في تحقيره بتشبيهه بالكلب ، بل جعل لهذا الكلب صورة مخصوصة كلب يقيئ ثم يعود في قيئه فيأكله ، يالها من صورة مقيتة مقززة !! تنفر منها النفوس السليمة .

مهما بذل الإنسان جهده في الإتيان بصورة تدعو إلى التقزز من عمل والتنفير منه فليس بواجد أروع من هذه الصورة التي نقف عليها في هذا الحديث الذي مثل العائد في صدقته أو هبته بالكلب الذي أكل حتى شبع ثمَّ قاء ما أكل ، ثمَّ عاد في قيئه يأكله . يا لله ما أشدَّ نفورنا من هذه الفعلة التي نجحت الصورة أي نجاح في إثارة تقززنا ونفورنا . لو كان الذي يفعل هذا إنسانًا لكان شيئًا منفرًا فما بالنا ونحن نتصوَّر من يفعل ذلك كلبًا يقيء ويأكل قيئه مرَّة أخرى ؟ [٢]

وللتقبيح والتنفير في هذا الحديث مرحلتان : الأولى في مشهد تقيؤ الكلب ، والثانية في أكل القيء ، وهاهنا إشباع لفكرة القبح والتقزز ، كما أن مما يبرز القبح ندرة المشهد في الوجود ، وندرته تكسر المألوف وغرابته تشدّ الانتباه ، وكأن العائد في هبته خرج على موازين الحياة السوية والطبيعة الصحيحة ، كما أن من المركوز في الطباع ألاّ ينظر الإنسان إلى طعام الكلب ، إذ يعيش على الجيف والمأكولات النتنة وبقايا الأشلاء فإذا أضيف ذلك إلى نجاسة الكلب وتقيئه كان أشدّ شناعة وأعظم اشمئزازًا .[٣]

---

(١) صحيح مسلم (٤١٧٣/٦٧٦)

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي ، ص٣٢٧-٣٢٨

(٣) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، ص٧١٧-٧١٨ (بتصرف) .

٢- يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تقيء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَتْ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا " [١]

أراد صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن يبين للناس حقارة هذا المال ودناسته حين شبهه بالقيء ؛ ليحرصوا على التخلص منه في وجوه الخير ، كما أن الحديث يصور لنا البشاعة في محاولة جمع المال حين بيّن أنه يُجْمع بطرق غير شرعية ، كالقتل وقطع الرحم والسرقة وغيرها .

إنها صورة حيّة صورة الأرض وكأنها بعير أصابته حالة تقيؤ وغثيان فهو يخرج ما في جوفه ، بل وَصَلَ به التقيؤ إلى أن نفد ما في بطنه فتقيأ قطعًا من كبده ولحمه لما نفد الطعام ، والعجيب أن أفلاذ الأرض ليست أكبادًا ولا لحمًا وإنما هي معادن الأرض الثمينة الذهب والفضة تخرج من جوفها بأحجام كبيرة كالأعمدة والسواري ، فيكثر المال وتقلّ رغبة الناس فيه حينها يندم من قتل وقطع وسرق لأجل المال فيقول القاتل : في هذا قُتِلتُ ، ويقول القاطع : في هذا قُطعت رحمي ، ويقول السارق : في هذا قُطِعَت يدي . ثم يدعونه (أي المال) فلا يأخذوا منه شيئًا . بعد أن كان سببًا في وقوعهم في تلك الجرائم التي ارتكبوها ونفّذت بهم أحكام الله من أجلها . أيّ بشاعة للمال وأيّ ندامة يصورها لنا هذا الحديث ؟! أنها تشويه لصورة المال من شأنها أن تثير انفعال التقزز والاشمئزاز ؛ ليتنبّه المخاطب لخطورة المال وتحثّه على الصدقة قبل فوات الأوان .

ويعلّق الدكتور عز الدين على هذا الحديث بقوله : (يصور لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يتكالب عليه الناس من متاع ، وما يجرم به بعضهم على بعض ، هذه الصورة الذميمة ، التي تعثى لها النفس ، ويشمئز منها الطبع ، فيجمع دونها الثياب ، صورة القيء والقيء لأفلاذ الكبد) .[٢]

٣- لما مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بالسوق ، داخلاً من بعض العالية ، والناس كنفته ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : " أيكم يُحبُّ أنّ هذا له بدرهم ؟ " فقالوا : ما نحبّ أنه

---

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٣٤١) صفحة ٣٩٢

(٢) الحديث النبوي من الوجه البلاغية ، د/ عز الدين السيد ، ص١٧٩

لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبّون أنّه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيًا ، كان عيبًا فيه ، لأنّه أسكُّ ، فكيف وهو ميّتٌ ؟ فقال : " فوالله ، للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم " (١)

جملة التشبيه في هذا الحديث هي الجملة الأخيرة (للدّنيا أهْوَنُ على الله ، من هذا عليكم) ، والتشبيه هنا ضمني جاء على صيغة (أفعل) التفضيل ، حيث شبه صلى الله عليه وسلم حقارة الدنيا عند الله بحقارة الجدي الأسك عند الناس .

والذي يعنينا في هذا الجانب من الدراسة أنه صلى الله عليه وسلم اختار الجدي الأسك الميت المنتفخ في جانب المشبه به ، وهي صورة مقززة بشعة إذ جمعت بين سوء المنظر (جدي مقطوع الأذن ، وميت ، وملقى في الطريق لا يعبأ به أحد) ، كما جمعت الصورة إلى ذلك نتن الرائحة .

إن في أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن الجدي الأسك الميت المتعفّن بالغ الأثر في بيان حقارة الدنيا وتشويه صورتها ، من شأن تلك الصورة أن تقزز المخاطب من الدنيا ، وتجعله دائم الحذر منها ، بعيدًا عن التشبث بها ، مترفعًا عن دناستها ، وهنا يتحقق الغرض من الحديث وهو الإعراض عن الدنيا والتطلع للآخرة .

وبذلك يكون الجانب التأثيري في أحاديث التشبيه بالحيوان بجميع مجالاته صورة الجمال المبهجة ، أو صور القبح التي هي وسيلة جمالية لا تستهدف استنفاد طاقتها عند الطبقة الحسية للقبح ، بل تقرنه بالرعب ، وتجعله مصدر تنفير من الرذيلة ، وجسرًا للوصول إلى مكارم الأخلاق ، وهذا ما يسمى التربية بالتشبيه والذي به نحمل النفوس على ما نريد بتهييج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجدانها فتنطلق إلى الهدف المرسوم كالسهم المرسل لا يلوى على شيء .

---

(١) صحيح مسلم (٧٤١٨/١٢١٠)


الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، الحمد لله عدد ما خلق ، الحمد لله مِلْءِ ما خلق ، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض ، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله على ما أحصى كتابه ، الحمد لله عدد كلّ شيء ، والحمد لله ملء كلّ شيء .

والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداه ، وبعد :

إنّ من أعظم نعم الله عليَّ أن وفقني للعمل في هذا المجال (خدمة السنة) من الوجهة البلاغية ، فقد فُضِّلَ عليه الصلاة والسلام بجوامع الكلم ، وكان لأسلوب التشبيه في حديثه الأثر الطيب العجيب في الحث على الفضيلة ، والترغيب في الخير ، أو التحذير من الرذيلة والتنفير من الشر ، وقد تعددت الموضوعات التي استخدم فيها صلى الله عليه وسلم التشبيه ، فهي موضوعات عظيمة لها علاقة بالإنسان وصلاح دنياه وآخرته ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يَعْمِد إلى وسائل إيضاح لتقريب المعنى المراد للأفهام والتشبيه والتمثيل من أفضل وأشهر طرق الإيضاح في جميع اللغات .

وكان صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثال ويجسِّد الحقائق النظريَّة والفكرية بصور من الحياة اليومية المحسوسة التي يعيشها الناس لتثبت عن طريق الفهم ويصل المعنى المراد إيصاله من أقصر طريق وأقل مؤونة لفظية .

والحقيقة أنّ الذي دفعني إلى دراسة هذا الموضوع كما أوضحت في مقدمة البحث وتمهيده هو ارتباط حياة الإنسان منذ نشأته بهذه الحيوانات التي سخَّرها الله له ، وتأثره بها حتى في طباعه وتصرفاته ، فالإنسان ابن بيئته تأثر فيه ويؤثر فيها ، وتطبعه بطباعها ، وتلّون أخلاقه ومزاجه وعاداته بلون تضاريسها ومناخها وكائناتها ، ويكفينا دليلاً على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر "[١] ، وقوله : "... والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم "[٢] ، وما ذلك إلاّ تأثرًا منهم بتلك الحيوانات التي يربونُّها ويتعاملون معها ، والله تعالى أعلم .

(١) ينظر : فتح الباري ، ج٦/حديث رقم ٣٤٩٨ / ص٦٠٨

(٢) المصدر السابق ، ج٧ / ص٧٠١

ثمَّ إن دراسة التشبيه بالحيوان من خلال التطبيق على الحديث الشريف دراسة فيها جدّة وطرافة ، وإثبات للعلاقة الوطيدة التي بين اللغة والدين ، وربط بين القديم بالحديث ؛ لأنّها تتجّه إلى بيان التأثير النفسي للكلام ، والكشف عن أسباب هذا التأثير .

انتهت هذه الدراسة بتوفيق الله ومنّه وتوصلت أثناء هذا البحث وبعده إلى مجموعة من النتائج المهمة وبعض التوصيات ومنها ما يلي :

١- بلاغة التشبيه النبوي إنما سخِّرت للدعوة وظهرت في مجالاتها ، ولم تكن صناعة فنِّية يمارسها النبي صلى الله عليه سلم في كل الأغراض والموضوعات .

٢- الحديث الشريف نصّ أدبي له مقوِّمات أي نص فني ، لكن له قدسية خاصة تميزه عن بقية النصوص لأنه المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ، ولأنه رسالة من الربّ سبحانه وتعالى إلى العباد ، ومن هنا نستطيع قراءة الصورة الفنية في الحديث الشريف لتحفيز الوعي لدينا والاندماج في النص فيحصل لدينا الفهم السليم للحديث ، والمتعة الفنية بالصورة الموجودة.

٣- التشبيه في الحديث النبوي الشريف صورة تنبثق عن فكر منظّم وذكاء فائق في اختيار صورة المشبه به (الحيوان) المناسب للموقف والسياق ؛ لذلك يصعب في الخطاب النبوي إقصاء الصورة عن المعنى المراد من الحديث .

٤- تنطلق الصورة التشبيهية في الحديث الشريف من مرجعيات وثقافات إنسانية لها قدرة عجيبة في استمالة كل الأنماط البشرية فهي تصل إلى الإنسان عن طريق الكون والبيئة والطبيعة وما يعيش معه فيها من حيوان وطائر وحشرة .

٥- جاء التشبيه في الحديث النبوي الشريف يحمل كل مقاصد الخطاب النبوي في الدعوة إلى الله : البيان والإيضاح ، التحفيز على العمل الصالح والتبشير بأجوره ، تقبيح العمل السيّء والتحذير منه ، إلى غير ذلك من المقاصد الجليلة التي عُني بها الخطاب النبوي الشريف .

٦- لا ينبغي في دراسة جماليات التشبيه في الحديث النبوي الشريف التوقف عند الصورة الفنية ، بل لا بدّ من تعدي ذلك إلى بقية مفردات السياق والعناية بالجانب التركيبي اللغوي لأنها تزيد في طاقة الصورة التشبيهيّة وتضفي عليها ألوانًا من العناصر الحيوية المكمِّلة لها ، والكاشفة عن أسرارها .

٧- تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان كانت مستمدَّة من عناصر كونية ونفسية يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين فهي شركة بين الناس والأمم ، وذلك الاستمداد حفظ لتلك الصور والتشبيهات بقاءها وحيويتها ، فأثرت في ذلك الجيل الذي عاصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وامتدّ تأثيرها في أجيال الناس والأمم من بعدهم وستبقى تلك الصور مؤثرة في كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وما ذلك إلاّ دليل على عظمة هذا الدين وصلاحه لكل زمان ومكان .

٨- أكثر تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان كانت لغرض التحقير والتنفير من الصفات والطباع والعادات السيئة التي حرمها الله أو كَرِه اتصاف عباده بها ، وذلك من أرقى أساليب التربية حين يُستَخْدَم التشبيه بالحيوان المستقبح في إيصال تلك المعاني ، وبذلك ربّى صلى الله عليه وسلم نفوس المؤمنين على ما أراد الله ، بتهييج مشاعرهم ، وإلهاب عواطفهم ، وبعث وجدانهم على الفضيلة وزجرها عن الرذيلة .

٩- يعتمد النبي صلى الله عليه وسلم في تشبيهاته على تشبيه المعقول بالمحسوس ، خاصة في التشبيه بالحيوان ؛ وذلك للإيضاح وإجلاء الحكم الشرعي المراد .

١٠- كثير من تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان منتزعة من آي القرآن الكريم ، وليس ذلك بالغريب فهو حامل هذه الرسالة ، وأول المتأثرين بها .

١١- إن تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلم بالحيوان في جانب تقبيح المشبه لا تثير التقزُّز فحسب ، بل تثير مشاعر التقزز مقرونة بالرعب ؛ لتردع المتلقي عن الخلق القبيح ، وتسمو به عن الدَّنايا والخطايا ، إمَّا من تلك الصورة القبيحة أو بالرعب من ذلك المصير المؤلم .

يعد هذا البحث المتواضع محاولة لدراسة نوع معين من أنواع التشبيه في البيان النبوي الشريف ، ومحاولة للكشف عن شيءٍ من جماليات البيان النبوي الذي يستحقّ مِنَّا جهدًا أكبر في خدمته ، وهو في الوقت نفسه دعوة إلى تقديم الأفضل في خدمة البلاغة النبوية وبيان مكانتها المرموقة .

وأخيرًا فإني أسأل الله أن يجعلنا ممن يكون له شرف خدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وألاّ يجعل علمنا حجّةً علينا بين يديه يوم القيامة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

الفهارس العامة

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث : الصفحة :

فهرس أبيات الشعر[1]

البيت أو الشطر	آخر البيت	القافية	البحر	قائـــله	الصفحــة
ركضًا إلى الله بغير زادِ	غير التُقى وعمل المعادِ	الدال	الرجز	عبد الله بن أبي رواحة	١١٦
كـدبابيـس عسجـد	قـضبـها مـن زبرجـدٍ		الخفيف	الصنوبري	١٦٧
أعــلام ياقوت نشـرن	على رمـاح مـن زبرجـدْ		الكامل	الصنوبري	١٦٧
ولم أر أمثال الرجال تفاوتت	لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ		الطويل	البحتري	١٥٨
وكـأن محـمر الشقيق	إذا تصـوب أو تصـعـدْ		الكامل	الصنوبري	١٦٧
كلـنـا باسـط اليـد	نحــو نيلـوفـر نـدّ		الخفيف	الصنوبري	١٦٧
أبي أحمد الغيثين صعصعة الذي	متى تخف الجوزاء والدلو يمطر	الراء	الطويل	الفرزدق	٦١
وتظن سلمى أنني أبغي بها	بدلاً أرها في الظلام تهيم	الميم	الكامل	لا يعرف قائله	١٥١ ، ١٥٤
أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي	ومسنونة زرق كأنياب أغوال	اللام	الطويل	امرؤ القيس	١٦٧
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ	....	اللام	الطويل	امرؤ القيس	٦٣

(١) لم أعتبر الحروف الأولى في هذا الفهرس ، وإنّما رتّبت الأبيات الشعريّة الواردة فيه حسب حروف الرّويّ تأسّيًا بما هو مشهور في هذا الباب .

فهرس الحكم والأمثال

فهرس المصادر والمراجع

١- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري .

٢- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٥م ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم .

٣- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة ، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع ، الناشر : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م

٤- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، للإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة عام ١٤١٨هـ .

٥- أسرار البلاغة لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ، الطبعة الأولى لدار المدني عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

٦- أسس علم النفس العام ، تأليف د. طلعت منصور ، د. أنور الشرقاوي ، د. عادل عز الدين ، د. فاروق أبو عوف ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة عام ١٩٨٩م .

٧- أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، لعبد الرحمن النحلاوي ، دار الفكر المعاصر دمشق ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .

٨- الإكسير في علم التفسير ، لسليمان بن عبد القويّ الطوفي البغدادي ، تحقيق عبد القادر حسين ، المكتبة النموذجيّة (الجماميز) ، بدون تاريخ .

٩- الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، لجمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق د/ محمّد حسن عواد، دار الجيل (بيروت) ودار عمّار (عمّان)، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٠- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ، بدون تاريخ للطباعة .

١١- بدائع الفوائد ، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني وعدنان درويش ، الطبعة الأولى لدار الكتاب العربي بيروت عام ١٤٢٢هـ .

١٢- بغية الإيضاح (مع متن الإيضاح) لعبد المتعال الصعيدي ، الناشر مكتبة الآداب القاهرة عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

١٣- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، للدكتور فضل حسن عباس دار الفرقان الطبعة العاشرة عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

١٤- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د/ عودة خليل أبو عودة ، دار البشير للنشر والتوزيع (الرياض) .

١٥- التصوير البياني ، محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ .

١٦- التصوير الفني في الحديث النبوي ، لمحمد لطفي الصباغ ، الطبعة الأولى للمكتب الإسلامي عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، بيروت .

١٧- تفسير القرآن الحكيم ، للسيد رشيد رضا ، مطبعة المنار ١٣٤٦هـ .

١٨- التلخيص في علوم البلاغة للإمام القزويني شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٩- الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .

٢٠- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، لمحمد بن فتوح الحميدي ، تحقيق د. علي حسين البواب ، الطبعة الثانية لدار ابن حزم - لبنان/ بيروت- ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

٢١- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، طبع المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٩٦٤م .

٢٢- جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر البغدادي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية (بيروت) ، بدون التاريخ .

٢٣- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تأليف السيد أحمد الهاشمي ، ضبط وتدقيق وتوثيق د. يوسف الصميلي المكتبة العصرية صيدا بيروت ، عام ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ .

٢٤- حاشية السندي على النسائي ، لنور الدين بن عبد الهادي أبو الحسن السندي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٦-١٩٨٦م .

٢٥- الحديث النبوي (مصطلحة ، بلاغته ، كتبه) - تأليف محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي الطبعة الثامنة عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٢٦- الحذف والتعويض في اللهجات العربية ، د/ سلمان سالم السحيمي، مكتبة الغرباء الأثريّة (المدينة النبويّة)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٧- حياة الحيوان الكبرى ، تأليف كمال الدين محمد بن موسى الدميري،تحقيق إبراهيم صالح ، الطبعة الأولى لدار البشائر دمشق .

٢٨- خصائص التراكيب ، د/ محمّد محمّد أبو موسى ، مكتبة وهبة (مصر) ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٥هـ-١٩٩٦م.

٢٩- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني القاهرة ، الطبعة الثالثة عام ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٣٠- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، الناشر مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الهند ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ .

٣١- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي تحقق مكتب تحقيق التراث دار المعرفة ببيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ

٣٢- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ، لعَلي محمد محمد الصَّلاَّبي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ، الطبعة: السابعة ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

٣٣- شرح ابن عقيل بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني المصري على الفية أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ومعه كتاب منحة الجليل ، بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر المكتبة العصرية صيدا - بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٣٤- شرح الكوكب المنير ، تأليف تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز على الفتوحي المعروف بابن النجار ، تحقيق: محمد الزحيلي ، ونزيه حماد ، الطبعة الثانية لمكتبة العبيكان عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٣٥- شرح النووي على صحيح مسلم ، للإمام يحي بن شرف النووي ، الطبعة المصرية ومكتبتها ، بدون تاريخ .

٣٦- شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى تحقيق : أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري ، الطبعة الأولى لمكتبة الرشد - الرياض ، ١٤٢٠ هـ -١٩٩٩ م .

٣٧- شرح قطر الندى وبل الصدى ، جمال الدين ابن هشام الأنصاري ، تحقيق عرفان مطرجي ، الطبعة الثانية مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨م .

٣٨- الصاحبي ، لأحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ، تعليق أحمد حسن بسج ، منشورات محمد علي بيضـون ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م .

٣٩- صحيح البخاري ، دار السلام للتوزيع والنشر الرياض ، الطبعة الثانية عام ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

٤٠- صحيح مسلم ، تحقيق وتخريج أحمد زهوة وأحمد عناية ، الناشر دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .

٤١ صحيح مسلم بشرح النووي ، الطبعة الأولى لمؤسسة قرطبة ١٤١٢هـ .
الطبعة الأولى عام ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٤٢- العامي الفصيح من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٤٣- علم النفس ، مقرر دراسي لطلاب الصف الثاني الثانوي بنين ، تأليف ومراجعة فريق من المتخصصين ، طبعة عام ١٤٣٢هـ - ١٤٣٣هـ .

٤٤- علم النفس التربوي لمحمد عطية الابراشي وحامد عبد القادر ، الطبعة الرابعة لدار القومية للطباعة والنشر

٤٥- علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة المحموديّة التجارية ، بدون تاريخ .

٤٦- العمدة ، لابن رشيق القيرواني، تحقيق د/ محمد قزقزان، مكتبة الكاتب العربي (دمشق)، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٤٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، الطبعة الثالثة للدار السلفية ١٤٠٧هـ .

٤٨- فن التشبيه ، لعلي الجندي ، الطبعة الثانية لمكتبة الأجلو المصرية عام ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م
القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي .

٤٩- الكامل في النحو والصرف والإعراب ، أحمد قبّش ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٤م .

٥٠- الكشاف للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى لمكتبة العبيكان عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

٥١- الكليات ، لأبي البقاء الكفومى ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تأليف : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، تحقيق : عدنان درويش - محمد المصري .

٥٢- لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، الطبعة الأولى لدار صادر – بيروت ، بدون تاريخ .

٥٣- المثل السائر ، نصر الله محمد ين عبد الكريم أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير ، طبعة البابي الحلبي ، ١٩٧٩م.

٥٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٩٥م .

٥٥- المجازات النبوية ، لأبي الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٩١هـ .

٥٦- المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، الناشر جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت – لبنان) ، ١٤١٩هـ .

٥٧- مجمع الأمثال أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، الطبعة الرابعة ١٣٧٤هـ .

٥٨- مختار الصحاح ، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، الطبعة الأولى لدار الفكر بيروت عام ١٩٩٧م .

٥٩- المخصص لابن سيده ، الطبعة الأولى لدار إحياء التراث العربي ، تحقيق :خليل إبراهيم جفال ، بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

٦٠- معجم البلاغة العربية ، ٥٦٢، د/ بدوي طبانة ، دار المنارة (جدّة) ودار الرفاعي (الرياض) ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦١- المعجم المفصّل في علوم البلاغة ، د/ إنعام فوّال عكاري، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٦٢- المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية لمجموعة المؤلفين : إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، الطبعة الرابعة لمكتبة الشروق الدولة عام ١٤٢٥- ٢٠٠٤

٦٣- معجم مقاييس اللغة ، أحمد ابن فارس اللغوي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل (بيروت) ، بدون تاريخ.

٦٤- معاهد التنصيص ، عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م .

٦٥- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي للسكاكي ، تحقيق نعيم زرزور ، الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٦٦- المنجد في اللغة والأعلام ، تأليف مجموعة ، الطبعة الرابعة والثلاثون لدار المشرق بيروت ، بدون تاريخ .

٦٧- موسوعة الحيوان (علمية،أدبية،لغوية،ثقافية) إعداد غراتا قره بتيان ، الإشراف اللغوي الدكتور إميل بديع يعقوب ، الطبعة الأولى للدار العربية للعلوم عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

٦٨- النحو المصفى ، لمحمد عيد ، مكتبة الشباب ، بدون تاريخ للطباعة .

٦٩- النكت في إعجاز القرآن (مطبوعة ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن")ص ٧٦ لأبي الحسن عليّ بن عيسى الروماني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ.

فهرس محتويات البحث

المبحث الثالث :

المبحث الأول :

تمّ بفضل الله ومنّه